لا تسبوا أصحابي


ردود العلامة محمود شاكر ومعاصريه
على سيد قطب ومؤيديه


ينشر كاملاً لأول مرة

جمعها ورتبها ووثق نصوصها
محمد بن عوض بن عبد الغني المصري



دار سبيل المؤمنين
للنشر والتوزيع


لا تسبوا أصحابي



الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م


رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٢٢٢٨٢م

دار سبيل المؤمنين
للنشر والتوزيع

عين شمس - القاهرة - جمهورية مصر العربية

جوال: ٠٠٢٠١٠٧٦١٠٠٩٩

E.mail: Dar_Sabilelmomnen@yahoo.com

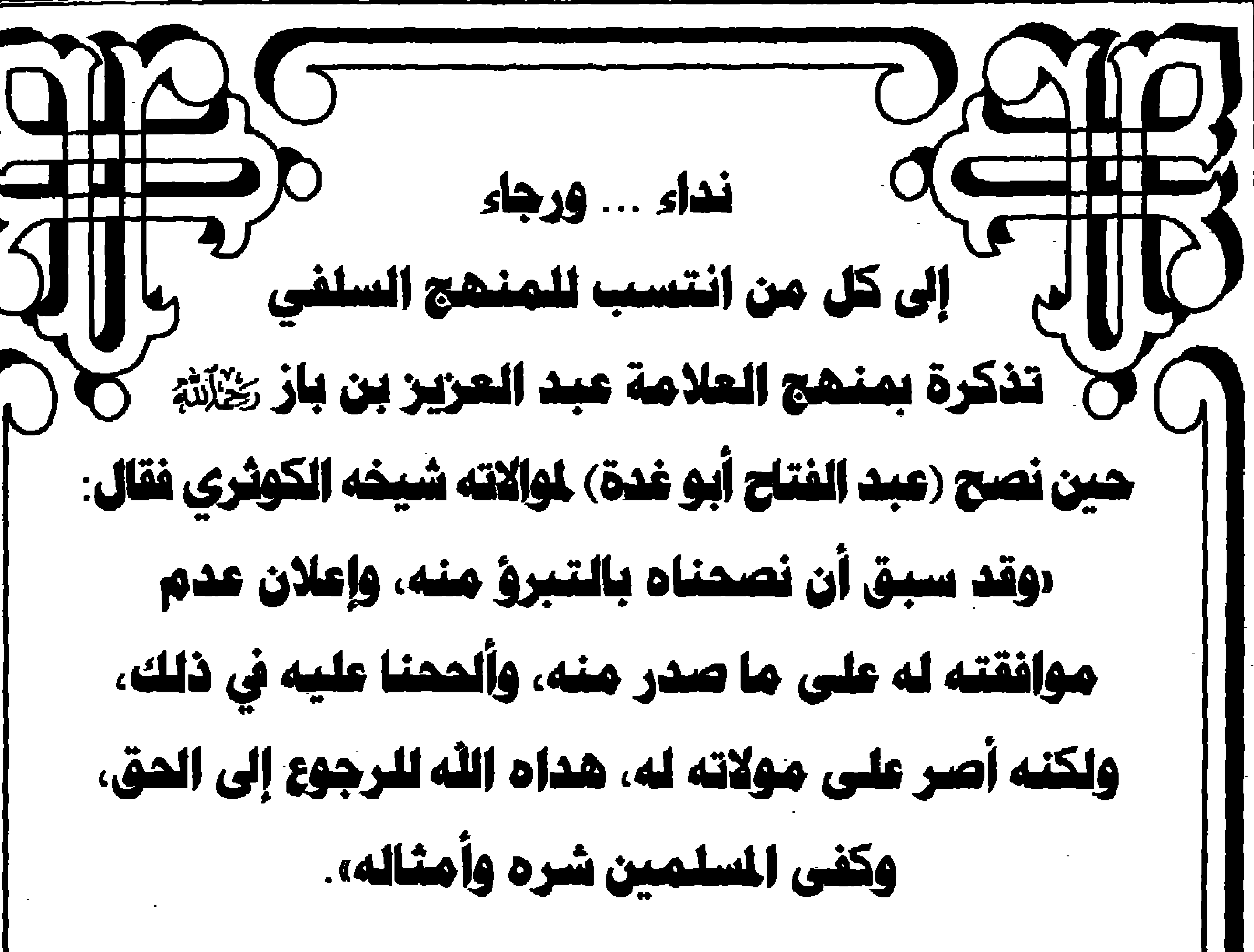


لا تسبوا أصحابي

ردود العلامة محمود شاكر ومعاصريه على سيد قطب ومؤيديه

جمعها ورتبها ووثق نصوصها
محمد بن عوض بن عبد الغني المصري

دار سبيل المؤمنين
للنشر والتوزيع



نداء ... ورجاء

إلى كل من انتسب للمنهج السلفي

تذكرة بمنهج العلامة عبد العزيز بن باز رحمه الله

حين نصح (عبد الفتاح أبو غدة) لموالاته شيخه الكوثري فقال:

«وقد سبق أن نصحناه بالتبرؤ منه، وإعلان عدم موافقته له على ما صدر منه، وألححنا عليه في ذلك، ولكنه أصر على موالاته له، هداه الله للرجوع إلى الحق، وكفى المسلمين شره وأمثاله».

قال العلامة محمود شاكر رحمه الله:

«وليعلم الأستاذ قطب أني إذا أحببت لا أغلو، ولا أتجاوز حد الحب الذي يصل القلب بالقلب، ويمد الروح بالروح، ويجعل النفس في فرح متصل بسببه، أو حزن آت بعلته، فهذا أخلق الحب أن يخلو من سوء العصبية، وفساد الهوى، أو قبح الغرض»

(جمهرة المقالات ١ - ٢٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ١﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد:

فإن الله عز وجل أثنى على أصحاب نبيه ﷺ، وأخبر أنهم خير البشرية، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾ [البينة: ٧ - ٨].

ولذلك بيّن النبي ﷺ عظم شأن صحابته الكرام رضوان الله عليهم، فقال: «النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يوعدون وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون»[1].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٤٠).

وحذر ﷺ من انتقاص أصحابه أو سبهم أو ذكرهم بسوء، فقال: «لا تسبوا أصحابي، لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهبًا، ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»(١).

وعلىٰ هذا درج السلف الكرام في بيان عقيدة أهل السنة والجماعة.

سئل عمر بن عبد العزيز عن قتال يوم الجمل ويوم صفين، وقيل: لو قلت فيها برأيك. قال: «دماءٌ لَـمْ أغمس فيها يدي، أغمس فيها لساني؟!»(٢).

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن الحجة الواضحة البينة المعروفة: ذكر محاسن أصحاب رسول الله ﷺ كلهم أجمعين، والكف عن ذكر مساوئهم والخلاف الذي شجر بينهم، فمن سب أصحاب رسول الله، أو أحدًا منهم، أو تنقصه، أو طعن عليهم، أو عرض بعيبهم، أو عاب أحدًا منهم؛ فهو مبتدع رافضي خبيث مخالف، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلًا، بل حبهم سنة، والدعاء لهم قربة، والاقتداء بهم وسيلة، والأخذ بآثارهم فضيلة.

وأصحاب رسول الله هم خير الناس، ولا يجوز لأحد أن يذكر شيئًا من مساوئهم، ولا يطعن علىٰ أحد منهم بعيب ولا نقص»(٣).

بل من أصول أهل السنة بغض من انتقصهم أو ذكرهم بسوء.

قال الإمام الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بالخير»(٤).

قال أبو زرعة رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٠)، مسلم (٢٥٤٠).

(٢) انظر كتاب: الحجة في بيان المحجة (٢/ ٥٢١).

(٣) انظر كتاب: السنة (٧٨).

(٤) انظر كتاب: العقيدة الطحاوية (٤٦٧).

أولى، وهم زنادقة»[١].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «واتفق أهل الإسلام على أن جميع الصحابة عدول، ولم يخالف في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة»[٢].

ومن سب الصحابة وجب عقابه وتعزيره من قبل السلطان:

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنه يجب على السلطان تأديبه - من سب الصحابة - وعقوبته، وليس له أن يعفو عنه، بل يعاقبه ويستتيبه»[٣].

بل من ذكر الصحابة بسوء لا يأخذ عنه علم، ولا يحدث عنه.

قال محمد بن علي رَحِمَهُ اللَّهُ: «حدثنا مهنا، قال: سألت أحمد - يقصد ابن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ - عن عبيد الله بن موسى العبسي؟ فقال: كوفي، فقلت: فكيف هو؟ قال: كما شاء الله. قلت: كيف هو يا أبا عبد الله؟ قال: لا يعجبني أن أحدث عنه، قلت: لِـمَ؟ قال: يحدث بأحاديث فيها تنقص لأصحاب رسول الله ﷺ»[٤].

وإن من أعظم الجهاد في الإسلام الدفاع عن صحابة النبي ﷺ، وهو من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومثل أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة، أو العبادات المخالفة للكتاب والسنة، فإن بيان حالهم، وتحذير الأمة منهم؛ واجب باتفاق المسلمين، حتى قيل للإمام أحمد بن حنبل:

الرجل يصوم ويصلي ويعتكف أحب إليك، أو يتكلم في أهل البدع؟

فقال: إذا قام وصلى واعتكف فإنما هو لنفسه، وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو

---

(١) انظر كتاب: الكفاية (٩٧).

(٢) انظر كتاب: الإصابة (١/ ١٠).

(٣) انظر كتاب: السنة (٧٨).

(٤) انظر كتاب: السنة (٨٠٧) للخلال.

للمسلمين، هذا أفضل.

فبين أن نفع هذا عام للمسلمين في دينهم من جنس الجهاد في سبيل الله، إذ تطهير سبيل الله ودينه ومنهاجه وشريعته، ودفع بغي هؤلاء وعدوانهم علىٰ ذلك واجب علىٰ الكفاية باتفاق المسلمين، ولولا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين، وكان فساده أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب»[(١)].

ولا سيما ينبغي الرد علىٰ من خالف منهج أهل السنة والجماعة في كثير من المسائل المشهورة التي لا شك في أن من خالفها لا يعد من أهل السنة والجماعة جملة وتفصيلًا، فهذا يعامل معاملة أهل البدع كما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«نعم من خالف الكتاب المستبين، والسنة المستفيضة، أو ما أجمع عليه سلف الأمة، خلافًا لا يعذر فيه، فهذا يعامل بما يعامل به أهل البدع»[(٢)].

فهذا النوع الواضح في انحرافه لا يمكن السكوت عنه، وإغضاء الطرف عن مساويه، بل الواجب إظهار حقيقته وبيان انحرافه ليحذر منه، ويعرف خطره، ويظهر حذره، فيجتنبه الخلق كافة؛ حفاظًا علىٰ عقيدة المسلمين، وحراسة لأصول الدين.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لابد من بيان حال هؤلاء، بل الفتنة بحال هؤلاء أعظم، فإن فيهم إيمانًا يوجب موالاتهم، وقد دخلوا في بدع من بدع المنافقين التي تفسد الدين، فلابد من التحذير من تلك البدع، وإن اقتضىٰ ذكرهم وتعيينهم، بل ولو لم يكن قد تلقوا البدعة عن منافق لكن قالوها ظانين أنها هدىٰ، وأنها خير، وأنها دين، ولم يكن

---

(١) انظر كتاب: مجموع الفتاوىٰ (٢٨/ ٢٣١: ٢٣٢).

(٢) انظر كتاب: مجموع الفتاوىٰ (٢٤/ ١٧٢).

كذلك؛ لوجب بيان حالها»[1].

فكيف بشخص نصح له، وبين له خطأه، فلم يتراجع؛ بل أصر بسخرية واستهزاء علىٰ خطئه، ولم يعتذر عما بدر منه حتىٰ مات، إن هذا الصنف ممن قال فيهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ : «ومن أصر علىٰ فعل البدع وتحسينها؛ فإنه ينبغي أن يعزر تعزيرًا يردعه وأمثاله عن مثل ذلك، ومن نسب إلىٰ رسول الله ﷺ الباطل خطأ فإنه يعرَّف، فإن لم ينتهِ عوقب، ولا يحل لأحد أن يتكلم في الدين بلا علم، ولا يعين من يتكلم في الدين بلا علم، أو أدخل في الدين ما ليس منه»[2].

قال الإمام ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالواجب علىٰ المسلمين توضيح الحقيقة ومناقشة كل جماعة أو جمعية، ونصح الجميع بأن يسيروا في الخط الذي رسمه الله لعباده ودعا إليه نبينا محمد ﷺ.

ومن تجاوز أو استمر في عناده لمصالح شخصية، أو لمقاصد لا يعلمها إلا الله؛ فإن الواجب التشهير به والتحذير منه، ممن عرف الحقيقة، حتىٰ يتجنب الناس طريقهم، وحتىٰ لا يدخل معهم من لا يعرف حقيقة أمرهم؛ فيضلوه، ويصرفوه عن الطريق المستقيم؛ الذي أمرنا الله باتباعه في قوله جل وعلا:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]»[3].

قال الإمام ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن السنة هجران أهل البدع ومباينتهم، وترك

---

(١) انظر كتاب: مجموع الفتاوىٰ (٢٨/ ٢٣٣).

(٢) انظر كتاب: طريق الوصول (١٢٤).

(٣) انظر كتاب: فتاوىٰ ومقالات متنوعة (٥/ ٢٠٢).

الجدال والخصومات في الدين، وترك النظر في كتب المبتدعة»[1].

وإن من أعظم الخطر علىٰ الأمة أن تقلب الأمور رأسًا علىٰ عقب، فيصبح المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، والبدعي سلفيًّا، والسلفي بدعيًّا، وكل هذا تحت مسمىٰ منهج أهل السنة والجماعة.

وحفظًا لوحدة الأمة - زعموا - يدافع عن أهل البدع، وتلتمس لهم الأعذار، ويدافع عن أخطائهم، والأدهىٰ والأمر أن يصور هؤلاء علىٰ أنهم أبطال الإسلام، ورجال العقيدة، وحماة الدين، ويساوىٰ بين هؤلاء وبين أئمة الإسلام، دون النظر إلىٰ حقيقة الأمور، والتبصر لعواقبها.

وإن من هذه الشخصيات التي شغلت وحتىٰ الآن ما تزال تشغل الكثير من الحوارات: «سيد قطب» إذ انقسم الناس فيه إلىٰ قسمين؛ ما بين محب ومبغض، وبين جافٍ وغالٍ، وانبرىٰ الفريقان في التراشق، حتىٰ وصل الأمر إلىٰ أن جعله البعض إمامًا من أئمة أهل السنة والجماعة، والبعض جعله شهيد الإسلام، وخرج آخر ليقول عنه: إنه اختلط لحمه ودمه بالقرآن، فصاغ لنا «ظلال القرآن»... وغيره الكثير من الأقاويل التي تجعل الشباب يصير معجبًا به ومغرمًا بكتبه، وكثيرًا ما تحولت القراءة إلىٰ فكر، وتحول الفكر إلىٰ تدمير وتفجير ناتج من التكفير الذي استقاه من كتب سيد - غفر الله له -.

واليوم بفضل الله عز وجل كشفتْ كثيرًا من الأوراق الخاصة بحياة سيد قطب مؤرخة وموثقة تبين الكثير من الحقائق، وتفند الكثير من الادعاءات حول حياته، وقد كان من هذه الأقوال:

«إن سيدًا لم ينصحه أحد فيما كتب فأخطأ».

---

(١) انظر كتاب: لمعة الاعتقاد صـ٣٣.

واليوم بفضل الله عز وجل نقدم ما دار من نقاش وحوار حول ما كتب سيد - غفر الله له - حول صحابة النبي ﷺ، حيث رد عليه العلامة المحقق الأستاذ/ محمود شاكر رحمه الله في أربع مقالات، فرد الأستاذ/ محمد رجب البيومي مدافعًا عن سيد رحمه الله، فرد عليه العلامة محمود شاكر رحمه الله، فرد عليه مرة أخرىٰ الأستاذ/ محمد رجب البيومي، ثم تلاه رد الأستاذ/ محمود شاكر رحمه الله، ثم كان رد الأستاذ سيد قطب معرضًا عن الحق، مجادلًا عن أخطائه في حق الصحابة - رضوان الله عليهم -، وتلا ذلك دفاع الأستاذ/ علي الطنطاوي رحمه الله عن الأستاذ/ سيد قطب، فرد عليه الأستاذ/ محمود شاكر، فاعتذر الشيخ/ الطنطاوي ورجع عن بعض ما كتب، فاحتج الأستاذ عبد الجواد رمضان علىٰ ما كتبه الشيخ علي الطنطاوي، فرد عليه الشيخ الطنطاوي.

وكتب الأستاذ/ عز الدين إسماعيل رحمه الله ردًّا علىٰ سيد قطب، ناقدًا لكتابه هذا «العدالة الاجتماعية»، فرد عليه أيضًا الأستاذ محمد رجب البيومي!!.

وبعد هذا كله يبقى سؤال:

هل تراجع سيد عما كتب في العدالة الاجتماعية قبل موته؟

هل توقف طبع كتابه «العدالة الاجتماعية» بعد موته؟.

إن هذا القول ينقصه الدليل، ويكذبه الواقع، ووجود هذه الكتب حتى الآن دليل علىٰ ذلك.

من أجل هذا كله كان هذا الجمع.

فإلىٰ من يبحث عن الحقيقة، ويهتم بالدليل، ويحذر التقليد، إلىٰ من انتسب إلىٰ أهل السنة والجماعة، إلىٰ هؤلاء جميعًا:

يا مَن يظن بأننا حِفْنا عليـ — ـهم كُتْبُهم تُنْبِيكَ عن ذا الشانِ
فانظرْ ترىٰ لكِنْ نرىٰ لك تَرْكَها — حَذَرًا عليك مصائدَ الشيطانِ
فَشِبَاكُها واللهِ لم يَعْلَق بِها — من ذي جناحٍ قاصر الطيرانِ

إلا رأيتَ الطيرَ في قفص الردىٰ يبكي له نوحٌ علىٰ الأغصانِ

ويظل يخبط طالبًا لخلاصِهِ فيضيق عنه فرجة العيدانِ

والذنب ذنب الطير خلّىٰ أطيب الثـ ـمرات في عالٍ من الأفنانِ

وأتىٰ إلىٰ تلك المزابل يبتغي الْـ ـفضلات كالحشرات والديدانِ

يا قوم والله العظيمِ نصيحةٌ من مشفقٍ وأخٍ لكم معوانِ[1]

قال العلامة محمد خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلقًا:

«ولا يظنن أحد أننا نتجنىٰ علىٰ القوم ونتهمهم بغير الحق، فتلك كتبهم تخبر عنهم كل من ينظر فيها، وتشهد عليهم شهادة صدق، فليقرأها من شاء؛ ليتأكد من صحة ما نسبناه إليهم، لكنا مع ذلك ننصح كل أحد أن لا يقرأ هذه الكتب؛ حتىٰ لا يقع في حبائلها، ويغرُّه ما فيها من تزويق المنطق وتنميق الأفكار، لا سيما إذا لم يكن ممن رسخ في علوم الكتاب والسنة قدمه، ولا تمكن منهما فهمه، فهذا لا يلبث أن يقع أسير شباكها، تبكيه نائحة الدوح علىٰ غصنها، وهو يجتهد في طلب الخلاص فلا يستطيع، والذنب ذنبه هو، حيث ترك أطيب الثمرات علىٰ أغصانها العالية حلوة المجتنىٰ طيبة المأكل، وهبط إلىٰ المزابل وأمكنة القذارة يتقمم الفضلات كما تفعل الديدان والحشرات».

فماذا بقي لنا من منهج أهل السنة والجماعة إلا نقاءه من البدع والترهات؟

إن الشدة علىٰ أهل البدع منقبة وليست مذمة، كما جاء في وصف الإمام ابن الجوزي للإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد كان الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل لشدة تمسكه بالسنة ونهيه عن البدعة يتكلم في جماعة من الأخيار إذا صدر منهم ما يخالف السنة،

---

(١) انظر كتاب: نونية ابن القيم صـ١٨٠.

وكلامه ذلك محمول علىٰ النصيحة».

فهل كان الإمام أحمد من أهل الجرح والتجريح يا دعاة السلفية؟!!

لقد آن الأوان لنكون سلفيين حقًّا، بتركنا المجادلة والدفاع عن الباطل، والرجوع إلىٰ الحق.

لقد آن لنا أن نعرف أيهما أغلىٰ عندنا: صحابة النبي ﷺ، أم سيد قطب؟

وليس المقصود من هذا الجمع تجريح شخصية أفضت إلىٰ خالقها، أو التشنيع به، ولكن المقصود بهذا الجمع إظهار حق، وإبطال باطل.

إظهار حق أهل السنة والجماعة في الدفاع عن صحابة النبي ﷺ.

وإبطال دعوىٰ من أظهر انتسابه لأهل السنة والجماعة وهو في حقيقة الأمر يدافع عن أهل الأهواء.

فإلىٰ هؤلاء وهؤلاء أقدم لهم هذا المجموع الذي ذب فيه صاحبه رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره عن صحابة رسول الله ﷺ.

سائلًا المولىٰ سبحانه وتعالىٰ أن يجعله مفتاحًا للخير، مغلاقًا للشر، هاديًا للبر، قاطعًا للإثم، وأن يرزقنا حسن الاتباع، ويجنبنا شر الابتداع، وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأن لا يجعله ملتبسًا علينا فنضل، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

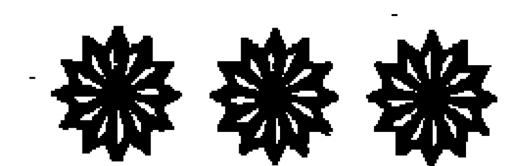
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه

محمد بن عوض بن عبد الغني المصري

ثغر الإسكندرية

ربيع الثاني ١٤٣٠ هـ.



نظرة سيد قطب
لأصحاب النبي ﷺ

إساءات عديدة وجّهها سيّد قطب ضد عثمان منها ما يتعلّق بشخصيّته ومنها ما يطعن في عدالته وحكمه كإغداق الأموال والولايات على أقاربه وكلّها باطلة ظالمة

قال سيّد قطب في كتابه «العدالة الاجتماعيّة» [ص١٥٩]:

«هذا التّصوّر لحقيقة الحكم قد تغيّر شيئًا ما دون شكّ علىٰ عهد عثمان - وإن بقي في سياج الإسلام -، لقد أدركت الخلافة عثمان وهو شيخ كبير. ومن ورائه مروان بن الحكم يصرّف الأمر بكثير من الانحراف عن الإسلام، كما أنّ طبيعة عثمان الرّخيّة، وحدبه الشّديد علىٰ أهله، قد ساهم كلاهما في صدور تصرّفات أنكرها الكثيرون من الصّحابة من حوله، وكانت لها معقبات كثيرة، وآثار في الفتنة التي عانىٰ الإسلام منها كثيرًا.

منح عثمان من بيت المال زوج ابنته الحارث بن الحكم يوم عرسه مئتي ألف درهم، فلمّا أصبح الصّباح جاءه زيد بن أرقم خازن مال المسلمين، وقد بدا في وجهه الحزن وترقرقت في عينه الدّموع، فسأله أن يعفيه من عمله؛ ولما علم منه السّبب وعرف أنّه عطيته لصهره من مال المسلمين، قال مستغربًا: «أتبكي يابن أرقم أن وصلت رحمي؟» فردّ الرجل الّذي يستشعر روح الإسلام المرهف: «لا يا أمير المؤمنين. ولكن أبكي لأنّي أظنّك أخذت هذا المال عوضًا عمّا كنت أنفقته في سبيل الله في حياة رسول الله، والله لو أعطيته مئة درهم لكان كثيرًا!» فغضب عثمان علىٰ الرّجل الّذي لا يطيق ضميره هذه التّوسعة من مال المسلمين علىٰ أقارب خليفة المسلمين، وقال له: «ألقِ المفاتيح يابن أرقم فإنّا سنجد غيرك»!.

والأمثلة كثيرة في سيرة عثمان علىٰ هذه التّوسعات؛ فقد منح الزّبير ذات يوم ستمائة

ألف، ومنح طلحة مائتي ألف، ونفّل مروان بن الحكم خمس خراج إفريقية، ولقد عاتبه في ذلك ناس من الصّحابة علىٰ رأسهم علي بن أبي طالب، فأجاب: «إنّ لي قرابة ورحمًا»، فأنكروا عليه وسألوه: «فما كان لأبي بكر وعمر قرابة ورحم؟» فقال: «إنّ أبا بكر وعمر كان يحتسبان في منع قرابتهما، وأنا أحتسب في إعطاء قرابتي»، فقاموا عنه غاضبين يقولون: «فهديهما والله أحب إلينا من هديك».

وغير المال كانت الولايات تغدق علىٰ الولاة من قرابة عثمان، وفيهم معاوية الّذي وسع عليه في الملك، فضمّ إليه فلسطين وحمص؛ وجمع له قيادة الأجناد الأربعة، ومهد له بعد ذلك أن يطلب الملك في خلافة علي وقد جمع المال والأجناد، وفيهم الحكم بن العاص طريد رسول الله الّذي آواه عثمان وجعل ابنه مروان بن الحكم وزيره المتصرّف، وفيهم عبد الله بن سعد بن أبي السّرح أخوه من الرّضاعة ...إلخ» اهـ كلامه.

ونقول: إنّه لا يثبت شيء من هذه الدعاوىٰ الظالمة.

❋ ❋ ❋

زعمه أن الثّورة على عثمان فورة من روح الإسلام وقوله: يلعب به مروان، وصار عثمان سيقة لمروان يسوقه حيث شاء

وقال أيضًا في [ص١٦٠ - ١٦١]:

«وأخيرًا ثارت الثّائرة علىٰ عثمان، واختلط فيها الحق والباطل، والخير والشّر، ولكن لابد لمن ينظر إلىٰ الأمور بعين الإسلام، ويستشعر الأمور بروح الإسلام، أن يقرر أنّ تلك الثّورة في عمومها كانت فورة من روح الإسلام؛ وذلك دون إغفال لما كان وراءها من كيد اليهودي ابن سبإ عليه لعنة الله! .

واعتذارنا لعثمان ﷺ: أنّ الخلافة قد جاءت إليه متأخرة، فكانت العصبة الأمويّة حوله وهو يدلف إلىٰ الثّمانين، فكان موقفه كما وصفه صاحبه علي بن أبي طالب: «إنّي

إن قعدت في بيتي قال: تركتني وقرابتي وحقي؛ وإن تكلّمت فجاء ما يريد، يلعب به مروان، فصار سيقة له يسوقه حيث شاء، بعد كبر سنّه وصحبته لرسول الله ﷺ» اهـ.

هؤلاء الثوار الذين يمدحهم سيد قطب قال رسول الله ﷺ فيهم أنهم منافقون، فبكلام مَنْ نأخذ؟.

❋ ❋ ❋

اتهام عثمان بأنّه باكر الدين الناشئ بالتمكين منه للعصبة الأمويّة

وقال أيضًا [ص: ١٦١]:

«ولقد كان من جراء مباكرة الدين الناشئ بالتمكين منه للعصبة الأمويّة علىٰ يدي الخليفة الثالث في كبرته، أن تقاليده العملية لم تتأصل علىٰ أسس من تعاليمه النظريّة لفترة أطول.

وقد نشأ عن عهد عثمان الطويل في الخلافة أن تنمو السلطة الأمويّة ويستفحل أمرها في الشام وفي غير الشام؛ وأن تتضخم الثروات نتيجة لسياسة عثمان [كما سيجيء]، وأن تخلخل الثورة علىٰ عثمان بناء الأمّة الإسلاميّة في وقت مبكّر شديد التبكير.

ومع كل ما يحمله تاريخ هذه الفترة وأحداثها من أمجاد لهذا الدين، تكشف عن نقلة بعيدة جدًّا في تصوّر الناس للحياة والحكم، وحقوق الأمراءِ وحقوق الرعيّة، إلا أن الفتنة التي وقعت لا يمكن التقليل من خطرها وآثارها البعيدة المدىٰ».

❋ ❋ ❋

قوله: خلّف عثمان الدولة الأمويّة قائمة بالفعل بفضل ما مكّن لها في الأرض بتمكينه للمبادئ الأمويّة المجافية لروح الإسلام

قال سيد قطب [ص: ١٦١]:

«مضىٰ عثمان إلىٰ رحمة ربه، وقد خلف الدولة الأموية قائمة بالفعل بفضل ما مكن

لها في الأرض، وبخاصة في الشام، وبفضل ما مكن للمبادئ الأموية المجافية لروح الإسلام، من إقامة الملك الوراثي، والاستئثار بالمغانم والأموال والمنافع، مما أحدث خلخلة في الروح الإسلامي العام، وليس بالقليل ما يشيع في نفس الرعية - إن حقًّا وإن باطلًا - أن الخليفة يؤثر أهله، ويمنحهم مئات الألوف؛ ويعزل أصحاب رسول الله ليولي أعداء رسول الله؛ ويبعد مثل أبي ذر لأنه أنكر كنز الأموال، وأنكر الترف الذي يخب فيه الأثرياء، ودعا إلىٰ مثل ما كان يدعو إليه الرسول ﷺ من الإنفاق والبر والتعفف، فإن النتيجة الطبيعية لشيوع مثل هذه الأفكار - إن حقًّا وإن باطلًا - أن تثور نفوس، وأن تنحل نفوس.

تثور نفوس الذين أشربت نفوسهم روح الدين إنكارًا وتأثمًا، وتنحل نفوس الذين لبسوا الإسلام رداء، ولم تخالط بشاشته قلوبهم، والذين تجرفهم مطامع الدنيا، ويرون الانحدار مع التيار، وهذا كله قد كان في أواخر عهد عثمان».

❋ ❋ ❋

غلوه في علي وتصديقه لروايات سخيفة، وزعمه أن عليًّا يرد للحكم صورته كما صاغها النبي ﷺ والخليفتين بعده، أي أن عثمان هدم أو شوه صورة الحكم

قال سيد قطب [ص: ١٦١ - ١٦٢]:

«جاء علي - كرّم الله وجهه - لم يكن من اليسر أن يرد الأمر إلىٰ نصابه في هوادة، وقد علم المستنفعون علىٰ عهد عثمان وبخاصة من أمية أن عليًّا لن يسكت عليهم، فانحازوا بطبيعتهم إلىٰ معاوية، وبمصالحهم إلىٰ معاوية، جاء علي ليرد التصور الإسلامي للحكم إلىٰ نفوس الحكام ونفوس الناس.

جاء ليأكل الشعير تطحنه امرأته بيديها، ويختم هو علىٰ جراب الشعير ويقول: «لا أحب أن يدخل بطني إلا ما أعلم».

وربما باع سيفه ليشتري بثمنه الكساء والطعام، وكره أن ينـزل القصر الأبيض بالكوفة مؤثرًا عليه الخصاص التي يسكنها الفقراء.

جاء ليعيش كما روىٰ عنه النضر بن منصور عن عقبة بن علقمة، قال: دخلت علىٰ علي عليه السلام، فإذا بين يديه لبن حامض، آذتني حموضته، وكسر يابسة. فقلت: يا أمير المؤمنين، أتأكل مثل هذا؟ فقال لي: «يا أبا الجنوب! كان رسول الله يأكل أيبس من هذا ويلبس أخشن من هذا - وأشار إلىٰ ثيابه -؛ فإن لم آخذ بما أخذ به خفت أن لا ألحق به».

أو كما روىٰ عنه هارون بن عنترة عن أبيه قال: دخلت علىٰ علي بالخورنق، وهو في فصل شتاء، وعليه خلق قطيفة، وهو يرعد فيه. فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيبًا، وأنت تفعل هذا بنفسك؟ فقال: «والله ما أرزؤكم شيئًا، وما هي إلا قطيفتي التي أخرجتها من المدينة».

وما يصنع عليٌّ هذا بنفسه وأهله، وهو يجهل أن الدين يبيح لـه فوق ما يصنع، وأنه لا يحتم التزهد والحرمان والشظف، وأن حظه من بيت المال في ذلك الحين كفرد من المسلمين يبلغ أضعاف ما يأخذ، وأن راتبه كأمير المؤمنين يؤدي خدمة عامة، أكبر من هذا لو شاء أن يأخذ مثلما خصصه عمر لبعض ولاته علىٰ الأقاليم، إذ قدر لعمار بن ياسر حين ولاه الكوفة ستمائة درهم في الشهر له ولمساعديه، يزاد عليها عطاؤه الذي يوزع عليه كما توزع الأعطية علىٰ نظرائه، ونصف شاة ونصف جريب من الدقيق ؛ كما قدر لعبد الله بن مسعود مئة درهم وربع شاة لتعليمه الناس بالكوفة وقيامه علىٰ بيت المال فيها، ولعثمان بن حنيف مائة وخمسين درهمًا وربع شاة في اليوم مع عطائه السنوي وهو خمسة آلاف درهم.

ما يصنع عليّ بنفسه ما صنع وهو يجهل هذا كله، إنما كان يعلم أن الحاكم مظنّة وقدوة، مظنّة التبحبح بالمال العام إذ كان تحت سلطانه؛ وقدوة الولاة والرعيّة في

التحرج والتعفف، فأخذ نفسه بعزائم أبي بكر وعمر، في هذا الأمر، فالأفق الأعلىٰ كان هو الأحرىٰ بخلفاء رسول الله علىٰ دين الله.

وسار عليّ -كرم الله وجهه- في طريقه يرد للحكم صورته كما صاغها النبي ﷺ والخليفتان بعده...».

انظر إلىٰ هذه العقلية التي تقبل هذه الخرافات الرافضية، وإلىٰ تعليقه عليها مؤيدًا لها، وهي تصور عليًّا مع الأسف في صورة راهب غال أو صوفي محترق، لقد كان لعلي الأموال والأراضي الكثيرة والزوجات والسراري والأولاد والخدم والحشم كغيره من إخوانه من أغنياء الصحابة لم يخرجوا عن حدود ما أباحه الله لهم.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]. (وراجع كتاب مطاعن سيد قطب في أصحاب رسول الله ﷺ).

خطبة كُذبت على علي رضي الله عنه فيها مصادرات لكل أعطيات عثمان وفيها رمي للناس بأنهم نفعيون، ودعوى لعلي أنه يرد للدين روحه التي ذهبت في عهد عثمان

قال سيد قطب [ص: ١٦٣ - ١٦٤]:

«ولقد كان منهاجه الذي شرعه هو ما قاله في خطبته عقب البيعة له:

«أيها الناس، إنما أنا رجل منكم، لي ما لكم، وعلي ما عليكم، وإني حاملكم علىٰ منهج نبيكم، ومنفذ فيكم ما أمرت به، ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان، وكل مال أعطاه من مال الله، فهو مردود في بيت المال؛ فإن الحق لا يبطله شيء، ولو وجدته قد تزوج به النساء، وملك الإماء، وفرق في البلدان، لرددته، فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه الحق، فالجور عليه أضيق.

أيها الناس، ألا لا يقولن رجال منكم غدًا، قد غمرتهم الدنيا، فامتلكوا العقار، وفجروا الأنهار، وركبوا الخيل، واتخذوا الوصائف المرققة، إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتهم إلىٰ الحقوق التي يعلمون: حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا.

ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرىٰ أن الفضل له علىٰ سواه بصحبته، فإن الفضل غدًا عند الله، وثوابه وأجره علىٰ الله.

ألا وأيما رجل استجاب لله ولرسوله، فصدق ملتنا، ودخل ديننا، واستقبل قبلتنا؛ فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يقسم بينكم بالسوية، ولا فضل فيه لأحد علىٰ أحد، وللمتقين عند الله أحسن الجزاء.

ولقد كان من الطبيعي ألا يرضىٰ المستنفعون عن علي، وألا يقنع بشرعة المساواة من اعتادوا التفضيل، ومن مردوا علىٰ الاستئثار، فانحاز هؤلاء في النهاية إلىٰ المعسكر الآخر: معسكر أمية، حيث يجدون فيه تحقيقًا لأطماعهم، علىٰ حساب العدل والحق اللذين يصر عليهما علي رضي الله عنه هذا الإصرار.

والذين يرون في معاوية دهاءً وبراعة لا يرونهما في علي، ويعزون إليهما غلبة معاوية في النهاية؛ إنما يخطئون تقدير الظروف، كما يخطئون فهم علي وواجبه.

لقد كان واجب علي الأول والأخير أن يرد للتقاليد الإسلامية قوتها، وأن يرد إلىٰ الدين روحه، وأن يجلو الغاشية التي غشيت هذا الروح علىٰ أيدي بني أمية في كبرة عثمان، ولو جارىٰ وسائل بني أمية في المعركة، لبطلت مهمته الحقيقية؛ ولما كان لظفره بالخلافة خالصة من قيمة في حياة هذا الدين.

إن عليًّا إما أن يكون عليًّا، أو فلتذهب الخلافة عنه، بل فلتذهب حياته معها، وهذا هو الفهم الصحيح الذي لم يغب عنه - كرم الله وجهه - وهو يقول فيما روي عنه - إن صحت الرواية -: والله ما معاوية بأدهىٰ مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهىٰ الناس».

حديث ظالم عن عهد بني أمية وبني العباس
على طريقة الروافض والخوارج

وقال [ص١٦٤ - ١٦٥]:

«ومضىٰ علي إلىٰ رحمة ربه، وجاء بنو أمية، فلئن كان إيمان عثمان وورعه ورقته، كانت تقف حاجزًا أمام بني أمية، لقد انهار هذا الحاجز، وانفتح الطريق للانحراف.

لقد اتسعت رقعة الإسلام فيما بعد، ولكن روحه انحسرت بلا جدال، ولولا قوة كامنة في طبيعة هذا الدين، وفيض عارم في طاقته الروحية؛ لكانت أيام أمية كفيلة بتغيير مجراه الأصيل، ولكن روحه ظلت تقاوم وتغالب، وما تزال فيها الطاقة الكامنة للغلب والانتصار.

غير أنه منذ تولي بني أمية انساحت حدود بيت مال المسلمين، فصار نهبًا مباحًا للملوك والحاشية والمتملقين، وتخلخلت قواعد العدل الإسلامي الصارم، فأصبح للطبقة الحاكمة امتيازات، ولأذيالها منافع، ولحاشيتها رسوم، وانقلبت الخلافة ملكًا، وملكًا عضوضًا كما قال عنه رسول الله ﷺ في وثبة من وثبات الاستشفاف الروحي العميق.

وعدنا نسمع عن الهبات للمتملقين والملهين والمطربين، فيهب أحد ملوك أمية اثني عشر ألف دينار لمعبد، ويهب هارون الرشيد - من ملوك العباسيين - إسماعيل بن جامع المغني في صوت واحد أربعة آلاف دينار، ومنزلًا نفيس الأثاث والرياش، وتنطلق الموجة في طريقها لا تقف إلا فترة بين الحين والحين.

ولا بد أن نذكر هنا عهد عمر بن عبد العزيز ﷺ، فقد كان بقية من عهد الخلافة، وإشعاعة مضيئة تنير الطريق؛ لقد بدأ عهده برد الحكم المغصوب إلىٰ صاحب الحق الأول فيه، إلىٰ الأمة المسلمة التي يجب أن تختار إمامها حرة طائعة مختارة، لا بقوة الجند،

ولا بسلطان الوراثة.. صعد المنبر، فقال:

«أيها الناس، إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين. وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم».

فصاح الناس: قد اخترناك يا أمير المؤمنين، ورضينا بك، فلِ الأمر باليمن والبركة.

وبذلك رد الأمر إلىٰ نصابه في ولاية الأمر، فلا ولاية بغير شورىٰ ورضىٰ وقبول.

عندئذٍ خطب الناس، فقال: «أيها الناس، إنه قد كان قبلي ولاة تجترون مودتهم بأن تدفعوا بذلك ظلمهم عنكم. ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصىٰ الله فلا طاعة له. أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم».

وحينما باشر سلطته، بدأ برد المظالم مبتدئًا بنفسه».

ثم ساق روايات لا تثبت، ومنشئوها - والله أعلم - الروافض.

❁ ❁ ❁

سرده لخطب منسوبة كذبًا لمعاوية والمنصور، لا يصدقها إلا الروافض وأمثالهم

قال سيد في ص [١٦٧ — ١٦٨]:

«وإذا كنا لا نؤرخ هنا للدولة الإسلامية، ولكن الروح الإسلامي في الحكم، فإننا نكتفي في إبراز مظاهر التحول والانحسار بإثبات ثلاث خطب من عهد الملوك، وبموازنتها بالخطب الثلاث التي سبقت في عهد الخلفاء؛ يتبين الفارق العميق.

خطب معاوية في أهل الكوفة بعد الصلح، فقال: يا أهل الكوفة، أتراني قاتلتكم علىٰ الصلاة والزكاة والحج، وقد علمت أنكم تصلون وتزكون وتحجون؟ ولكني قاتلتكم؛ لأتأمر عليكم وعلىٰ رقابكم، وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون. ألا إن كل

مال أو دم أصيب في هذه الفتنة فمطلول، وكل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين.

وخطب كذلك في أهل المدينة، فقال:

أما بعد، فإني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم، ولا مسرة بولايتي، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة، ولقد رضيت لكم نفسي علىٰ عمل ابن أبي قحافة، وأردتها علىٰ عمل عمر، فنفرت نفارًا شديدًا، وأردتها علىٰ سنيات عثمان، فأبت علي، فسلكت بها طريقًا لي ولكم فيه منفعة، مؤاكلة حسنة، ومشاربة جميلة، فإن لم تجدوني خيركم، فإني خير لكم ولاية...

وخطب المنصور العباسي - وقد فعلت الموجة الأموية فعلها في تصور الحكم حتىٰ انتهت به أيام العباسيين إلىٰ نظرية الحق الإلهي المقدس التي لا يعرفها الإسلام - فقال: أيها الناس: إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتأييده، وحارسه علىٰ ماله، أعمل فيه بمشيئته وإرادته، وأعطيه بإذنه فقد جعلني الله عليه قفلًا، إن شاء أن يفتحني فتحني لإعطائكم وقسم أرزاقكم، وإن شاء أن يقفلني عليه أقفلني.

وبذلك خرجت سياسة الحكم نهائيًا من دائرة الإسلام وتعاليم الإسلام.

فأما سياسة المال؛ فكانت تبعًا لسياسة الحكم، وفرعًا عن تصور الحكام لطبيعة الحكم وطريقته، ولحق الراعي والرعية. فأما في حياة محمد ﷺ وصاحبيه وفي خلافة علي بن أبي طالب، فكانت النظرة السائدة هي النظرة الإسلامية: وهي أن المال العام مال الجماعة، ولا حق للحاكم بنفسه أو بقرابته أن يأخذ منه شيئًا إلا بحقه، ولا أن يعطي أحدًا منه إلا بقدر ما يستحق، شأنه شأن الآخرين. وأما حين انحرف هذا التصور قليلًا في عهد عثمان، فقد بقيت للناس حقوقهم، وفهم الخليفة أنه في حل - وقد اتسع المال عن المقررات للناس - أن يطلق فيه يده، يبرّ أهله ومن يرىٰ من غيرهم حسب تقديره.

وأما حين صار الحكم إلىٰ الملك العضوض، فقد انهارت الحدود والقيود، وأصبح الحاكم مطلق اليد في المنع والمنح، بالحق في أحيان قليلة، وبالباطل في سائر الأحيان، واتسع مال المسلمين لترف الحكام وأبنائهم وحاشيتهم ومملقيهم إلىٰ غير حد ، وخرج الحكام بذلك نهائيًّا من كل حدود الإسلام في المال».

❋ ❋ ❋

غلوه في علي، وإسقاطه لخلافة عثمان، وأنها كانت فجوة بين الخليفتين قبله وعلي بعده

قال سيد في [ص ١٧٢ – ١٧٣]:

«هما رأيان إذن في تقسيم المال، رأي أبي بكر ورأي عمر، وقد كان لرأي عمر ﷺ سنده: «لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه» و.. «فالرجل وبلاؤه في الإسلام..»، ولهذا الرأي أصل في الإسلام، وهو التعادل بين الجهد والجزاء، وكان لرأي أبي بكر ﷺ سنده كذلك: «إنما أسلموا لله، وعليه أجرهم، يوفيهم ذلك يوم القيامة، وإنما هذه الدنيا بلاغ».

ولكننا لا نتردد في اختيار رأي أبي بكر؛ إذ كان أقمن أن يحقق المساواة بين المسلمين – وهي أصل كبير من أصول هذا الدين –، وأحرىٰ أن لا ينتج النتائج الخطرة التي نتجت عن هذا التفاوت؛ من تضخم ثروات فريق من الناس، وتزايد هذا التضخم عامًا بعد عام بالاستثمار – والمعروف اقتصاديًّا أن زيادة الربح تتناسب إلىٰ حد بعيد مع زيادة رأس المال –، هذه النتائج التي رآها عمر في آخر أيام حياته، فآلىٰ لئن جاء عليه العام ليسوين في الأعطيات، وقال قولته المشهورة: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت؛ لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم، فرددتها علىٰ الفقراء»! .

ولكن وا أسفاه!؛ لقد فات الأوان، وسبقت الأيام عمر، ووقعت النتائج المؤلمة

التي أودت بالتوازن في المجتمع الإسلامي، كما أدت فيما بعد إلىٰ الفتنة، بما أضيف إليها من تصرف مروان وإقرار عثمان.

رجع عمر عن رأيه في التفرقة بين المسلمين في العطاء حينما رأىٰ نتائجه الخطرة إلىٰ رأي أبي بكر، وكذلك جاء رأي علي مطابقًا لرأي الخليفة الأول، ونحن نميل إلىٰ اعتبار خلافة علي ﷺ امتدادًا طبيعيًا لخلافة الشيخين قبله، وأن عهد عثمان الذي تحكم فيه مروان كان فجوة بينهما؛ لذلك نتابع الحديث عن عهد علي، ثم نعود للحديث عن الحالة في أيام عثمان.

اختار علي مبدأ المساواة في العطاء، وقد نص عليه في خطبته الأولىٰ حيث قال: «ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرىٰ أن الفضل له علىٰ سواه بصحبته، فإن الفضل غدًا عند الله، وثوابه وأجره علىٰ الله. ألا وأيما رجل استجاب لله ولرسوله، فصدّق ملتنا، ودخل ديننا، واستقبل قبلتنا؛ فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده؛ فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يقسم بينكم بالسوية، ولا فضل فيه لأحد علىٰ أحد، وللمتقين عند الله أحسن الجزاء».

هذا هو المبدأ الإسلامي السليم الذي يتفق مع روح المساواة الإسلامية، ويكفل للمجتمع الإسلامي التوازن، فلا يدع الثروات تتضخم إلا بقدر الجهد والعمل وحدهما، لا بفضل إتاحة فرصة لا تتاح للآخرين، بوجود وفر من المال للعمل فيه أكبر مما لدىٰ الآخرين.

وقد كان عمر آخر أيامه علىٰ أن يفيء إلىٰ هذا المبدأ، ولكنه عوجل فاستشهد ولم ينفذ عزيمته التي اعتزم، بل عزيمتيه: عزيمته في أن يأخذ فضول أموال الأغنياء فيردها علىٰ الفقراء؛ إذ كانت هذه الفضول قد نشأت - في الأغلب - من تفريقه في العطاء، وعزيمته في أن يسوي بينهم في العطاء، فلا تعود هذه الفوارق إلىٰ الظهور كما ظهرت، ولا يختل المجتمع الإسلامي كما بدأ يختل».

طعنه في عثمان وافتراؤه عليه من منطلق اشتراكي وطعنه في سادة قريش

قال في [ص: ١٧٣]:

«وجاء عثمان ﷺ، فلم ير أن يأخذ بالعزيمتين أو إحداهما.. ترك الفضول لأصحابها فلم يردها، وترك الأعطيات كذلك علىٰ تفاوتها. ولكن هذا لم يكن كل ما كان، بل وسع أولًا علىٰ الناس في العطاء، فازداد الغني غنىٰ، وربما تبجح الفقير قليلًا، ثم جعل يمنح المنح الضخمة لمن لا تنقصهم الثروة، ثم أباح لقريش أن تضرب في الأرض تتاجر بأموالها المكدسة، فتزيدها أضعافًا مضاعفة، ثم أباح للأثرياء أن يقتنوا الضياع والدور في السواد وغير السواد، فإذا نوع من الفوارق المالية الضخمة يسود المجتمع الإسلامي في نهاية عهده يرحمه الله.

كان أبو بكر وكان عمر من بعده يتشددان في إمساك الجماعة من رءوس قريش بالمدينة، لا يدعونهم يضربون في الأرض المفتوحة؛ احتياطًا لأن تمتد أبصار هؤلاء الرءوس إلىٰ المال والسلطان، حين تجتمع إليهم الأنصار بحكم قرابتهم من رسول الله، أو بحكم بلائهم في الإسلام وسابقتهم في الجهاد. وما كان في هذا افتيات علىٰ الحرية الشخصية كما يفهمها الإسلام، فهذه الحرية محدودة بمصلحة الجماعة والنصح لها. فلما جاء عثمان أباح لهم أن يضربوا في الأرض، ولم يبح لهم هذا وحده، بل يسر لهم وحضهم علىٰ توظيف أموالهم في الدور والضياع في الأقاليم، بعدما آتىٰ بعضهم من الهبات مئات الآلاف.

لقد كان ذلك كله برًّا ورحمة بالمسلمين وبكبارهم خاصة، ولكنه أنشأ خطرًا عظيمًا لم يكن خافيًا علىٰ فطنة أبي بكر وفطنة عمر بعده. أنشأ الفوارق المالية والاجتماعية الضخمة في الجماعة الإسلامية، كما أنشأ طبقة تأتيها أرزاقها من كل مكان دون كد ولا تعب، فكان الترف الذي حاربه الإسلام بنصوصه وتوجيهاته، كما حاربه الخليفتان قبل عثمان، وحرصا علىٰ ألا يتيحاه».

مدحه للثوار على عثمان، وافتراؤه على أبي ذر أنه منهم، وسرد خطبة ثورية له، وطعن في عثمان وبني أمية ومن يسميهم بالمترفين من كبار الصحابة

قال سيد في [ص: ١٧٤ - ١٧٥]:

«عندئذٍ ثار الروح الإسلامي في نفوس بعض المسلمين، يمثلهم أشدهم حرارة وثورة أبو ذر، ذلك الصحابي الجليل الذي لم تجد هيئة الفتوىٰ المصرية في الزمن الأخير إلا أن تخطئه في اتجاهه، وإلا أن تزعم لنفسها بصرًا بالدين أكثر من بصره بدينه! ثم عادت - في مناسبة أخرىٰ - فأصدرت فتوىٰ بصواب اتجاهه، عندما تغيرت الظروف الأولىٰ! كأن دين الله سلعة تتجر بها الهيئة في سوق الرغبات.

قام أبو ذر ينكر علىٰ المترفين ترفهم الذي لا يعرفه الإسلام، وينكر علىٰ معاوية وأمية خاصة سياستهم التي تقر هذا الترف، وتستزيد منه، وتتمرغ فيه، وينكر علىٰ عثمان نفسه أن يهب من بيت المال المئات والألوف، فيزيد في ثراء المثرين وترف المترفين.

علم أن عثمان أعطىٰ مروان بن الحكم خمس خراج إفريقية، والحارث بن الحكم مائتي ألف درهم، وزيد بن ثابت مائة ألف.. وما كان ضمير أبي ذر ليطيق شيئًا من ذلك كله، فانطلق يخطب في الناس:

«لقد حدثت أعمال ما أعرفها، والله ما هي في كتاب الله ولا سنة نبيه، والله إني لأرىٰ حقًّا يطفأ، وباطلًا يحيا، وصادقًا مكذبًا، وأثرة بغير تقىٰ.. يا معشر الأغنياء، واسوا الفقراء. وبشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار، تكوىٰ بها جباههم وجنوبهم وظهورهم.. يا كانز المال، اعلم أن في المال ثلاثة شركاء: القدر لا يستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرها من هلاك أو موت، والوارث ينتظر أن تضع رأسك ثم يستاقها وأنت ذميم، وأنت الثالث، إن استطعت ألا تكون

أعجز الثلاثة؛ فلا تكونن؛ إن الله عز وجل يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾.

[آل عمران: ٩٢]

اتخذتم ستور الحرير، ونضائد الديباج، وتألمتم الاضطجاع علىٰ الصوف الأذربي، وكان رسول الله ينام علىٰ الحصير، واختلف عليكم بألوان الطعام، وكان رسول الله لا يشبع من خبز الشعير».

وروىٰ مالك بن عبد الله الزيادي عن أبي ذر أنه جاء يستأذن علىٰ عثمان بن عفان، فأذن له وبيده عصاه. فقال عثمان: يا كعب، إن عبد الرحمن توفي وترك مالًا، فما ترىٰ فيه؟ فقال: إن كان يصل فيه حق الله، فلا بأس عليه. فرفع أبو ذر عصاه فضرب كعبًا، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أحب لو أن لي هذا الجبل ذهبًا أنفقه ويتقبل مني، أذر خلفي منه ست أواق»، أنشدك الله يا عثمان، أسمعته؟ - ثلاث مرات -، قال: نعم.

وما كانت مثل هذه الدعوة ليطيقها معاوية، ولا ليطيقها مروان بن الحكم ، فما زالا به عند عثمان يحرضانه عليه حتىٰ كان مصيره إلىٰ «الربذة» منفيًّا من الأرض في غير حرب لله ولرسوله، وفي غير سعي في الأرض بالفساد، كما تقول شريعة الإسلام!».

❋ ❋ ❋

يرى سيد قطب أن سياسة عثمان أدت إلى تفريق الجماعة الإسلامية طبقات، وإلى تحطيم الأسس التي جاء بها هذا الدين، يرافق ذلك طعنه في أعيان الصحابة

قال سيد في [ص: ١٧٥ - ١٧٦]:

«لقد كانت هذه الصيحة يقظة ضمير مسلم لم تخدره الأطماع، أمام تضخم فاحش في الثروات، يفرق الجماعة الإسلامية طبقات، ويحطم الأسس التي جاء هذا الدين

ليقيمها بين الناس. ويحسبنا أن نعرض هنا نموذجًا للثروات الضخام أورده المسعودي، قال: «في أيام عثمان اقتنىٰ الصحابة الضياع والمال: فكان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرىٰ وحنين وغيرهما مائة ألف دينار، وخلف إبلًا وخيلًا كثيرة. وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلف ألف فرس وألف أمة. وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم، ومن ناحية السراة أكثر من ذلك. وكان علىٰ مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس، وله ألف بعير، وعشرة آلاف من الغنم، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفًا. وخلف زيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفئوس غير ما خلف من الأموال والضياع. وبنىٰ الزبير دارة بالبصرة، وبنىٰ أيضًا بمصر والكوفة والإسكندرية، وكذلك بنىٰ طلحة دارة بالكوفة، وشيد دارة بالمدينة، وبناها بالجص والآجر والساج، وبنىٰ سعد بن أبي وقاص دارة بالعقيق، ورفع سمكها وأوسع فضاءها، وجعل علىٰ أعلاها شرفات، وبنىٰ المقداد دارة بالمدينة، وجعلها مجصصة الظاهر والباطن. وخلف يعلىٰ بن منبه خمسين ألف دينار وعقارًا، وغير ذلك ما قيمته ثلاثمائة ألف درهم».

هذا هو الثراء الذي بدأ صغيرًا بإيثار بعض المسلمين علىٰ بعض في العطاء في أيام عمر، ذلك الإيثار الذي كان معتزمًا إبطاله وتلافي آثاره لولا أن عاجلته الطعنة التي لم تصب قلب عمر وحده، وإنما أصابت قلب الإسلام، ثم نما وازداد بإبقاء عثمان عليه، فضلًا عن العطايا والهبات والقطائع، ثم فشا فشوًّا ذريعًا بتجميع الأملاك والضياع وموارد الاستغلال، بما أباحه عثمان من شراء الأرضين في الأقاليم وتضخيم الملكيات في رقعة واسعة، وبمقاومة الصيحة الخالصة العميقة التي انبعثت من قلب أبي ذر، وكانت جديرة لو بلغت غايتها، ولو وجدت من الإمام استماعًا لها، أن تعدل الأوضاع،

وأن تحقق ما أراده عمر في أواخر أيامه من رد فضول الأغنياء علىٰ الفقراء، بما يبيحه له سلطان الإمامة؛ لدفع الضرر عن الأمة، بل بما يحتمه عليه تحقيقًا لمصلحة الجماعة».

❁ ❁ ❁

حديث ظالم عن عثمان ﷺ، وحديث مشوه للعهد الأموي والعباسي يقطر حقدًا وجحودًا لسيادة الإسلام وعزه وعزة أهله في عهد خير القرون

قال سيد ﷺ: [ص: ١٧٥ – ١٧٦]:

«وبقدر ما تكدست الثروات وتضخمت في جانب، كان الفقر والبؤس في الجانب الآخر حتمًا، وكانت النقمة والسخط كذلك، وما لبث هذا كله أن تجمع وتضخم، لينبعث فتنة هائجة، يستغلها أعداء الإسلام، فتودي في النهاية بعثمان، وتودي معه بأمن الأمة الإسلامية وسلامتها، وتسلمها إلىٰ اضطراب وفوات لم يخب أواره حتىٰ كان قد غشي بدخانه علىٰ روح الإسلام، وأسلم الأمة إلىٰ ملك عضوض.

لذلك لم يكن غريبًا أن يغضب أصحاب الأموال والمستنفعون من تفاوت الحظوظ في العطاء علىٰ سياسة المساواة والعدالة التي اعتزمها علي بعد عثمان، وأن يتظاهروا بأنهم إنما ينصحون بالعدول عن هذه السياسة، خوفًا عليه من الانتقاض، فما كان جوابه إلا أن يستلهم روح الإسلام في ضميره القوي فيقول: أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؟ لو كان هذا المال لي لسويت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله؟ ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف، وهو يرفع صاحبه في الدنيا، ويضعه في الآخرة.

فأما بنو أمية فقد ساروا في سياسة المال سيرة أخرىٰ، حتىٰ كان عمر بن عبد العزيز فصنع الذي أسلفنا في رد المظالم، وفي الكف عن بعثرة أموال المسلمين في غير حقها، فلم يكن لبني أمية إلا ما لسائر الناس، ولم يكن للمتملقين والملهين نصيب

في هذا المال، فقد انقطع عن الشعراء المداح، ولم يجزهم بشيء من بيت المال».

ثم تكلم عن عهد عمر بن عبد العزيز، ثم قال:

«إنما الفقر والحاجة ثمرة التضخم والزيادة، والفقراء في كل وقت هم ضحايا الأغنياء المفحشين، والأغنياء المفحشون في الغالب هم نتاج الأعطيات والإقطاعيات والمحاباة والظلم والاستغلال.

وفي أيام بني أمية ثم في أيام بني العباس من بعدهم، كان بيت المال مباحًا للملوك كأنه ملك لهم خاص، وذلك علىٰ الرغم من وجود بيتين للمال: بيت المال العام، وبيت المال الخاص. والأول مفروض أن موارده ومصارفه للجماعة، والثاني مفروض أن موارده ومصارفه من خاصة السلطان. لكنا نجد أحيانًا أن أموالًا عامة تحمل إلىٰ بيت المال الخاص، وأن مصارف خاصة تؤخذ من بيت المال العام! .

جاء في كتاب «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري»، تأليف آدم ميتز وترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة: أما العطايا وكل ما يتعلق بنفقات دار الخلافة فكان يؤخذ من بيت المال العام، وعندنا بيان يرجع إلىٰ أول القرن الرابع مشتمل علىٰ وجوه الأموال التي تحمل إلىٰ بيت مال الخاصة:

١ - الأموال المختلفة التي يتركها الآباء لأبنائهم في بيت المال. ويقال: إن الرشيد خلف أكبر مقدار من المال، وهو ثمانية وأربعون ألف ألف دينار، وكان المعتضد [٢٩٧ - ٢٨٩ هـ] يستفضل من كل سنة من سني خلافته بعد النفقات، مما كان يحصله بيت مال الخاصة ألف ألف دينار، حتىٰ اجتمع في بيت المال تسعة آلاف ألف دينار، وكان يريد أن يتممها عشرة آلاف ألف دينار، ثم يسبكها ويجعلها نقرة واحدة، ونذر عند بلوغ ذلك أن يترك عن أهل البلاد ثلث الخراج في تلك السنة، وأراد أن يطرح السبيكة علىٰ باب العامة؛ ليبلغ أصحاب الأطراف أن له عشرة آلاف ألف دينار وهو مستغن عنها،

فاخترمته المنية قبل بلوغ الأمنية. ثم جاء المكتفي بعد المعتضد [٢٨٩ - ٢٩٥ هـ] فأبلغ المدخر إلىٰ أربعة عشر ألف ألف دينار.

٢- مال الخراج والضياع العامة الذي يرتفع من أعمال فارس وكرمان [بعد إسقاط النفقات]».

ثم واصل هذا التشويه مستفيدًا ذلك من كلام آدم ميتز.

وهكذا يستقي سيد قطب الطعون في الصحابة والتابعين والعهد الأموي والعباسي ثم يبالغ فيها ويضخمها، فلا ندري ماذا أبقىٰ للإسلام والمسلمين من الاعتزاز بتلك العهود ولا سيما القرون المفضلة عهد عزّة الإسلام وعهد الفتوحات العظيمة؟!

❁ ❁ ❁

طعونه في معاوية وعمرو ومن في عهدهما، وغلوه في علي رضي الله عنه

قال سيد قطب في كتابه «كتب وشخصيات» [ص٢٤٢ - ٢٤٣]:

«إن معاوية وزميله عمْرًا لم يغلبا عليًّا لأنهما أعرف منه بدخائل النفوس، وأخبر منه بالتصرف النافع في الظرف المناسب؛ ولكن لأنهما طليقان في استخدام كل سلاح، وهو مقيد بأخلاقه في اختيار وسائل الصراع. وحين يركن معاوية وزميله إلىٰ الكذب والغش والخديعة والنفاق والرشوة وشراء الذمم، لا يملك علي أن يتدلىٰ إلىٰ هذا الدرك الأسفل، فلا عجب، ينجحان ويفشل، وإنه لفشل أشرف من كل نجاح.

علىٰ أن غلبة معاوية علىٰ علي كانت لأسباب أكبر من الرجلين، كانت غلبة جيل علىٰ جيل، وعصر علىٰ عصر، واتجاه علىٰ اتجاه، كان مد الروح الإسلامي العالي قد أخذ ينحسر، وارتد الكثيرون من العرب إلىٰ المنحدر الذي رفعهم منه الإسلام، بينما بقي علي في القمة لا يتبع هذا الانحسار، ولا يرضىٰ بأن يجرفه التيار. من هنا كانت هزيمته، وهي هزيمة أشرف من كل انتصار.

وهنا نصل إلىٰ الملاحظة الرابعة؛ إذ نرىٰ المؤلف يهش لروح النفعية في السياسة، ويشيد بأصحابها، ولا يعترف بغير النجاح العملي، ولو علىٰ أشلاء المثل العليا والأخلاق».

ثم واصل كلامه إلىٰ أن قال:

«لقد كان انتصار معاوية هو أكبر كارثة دهمت روح الإسلام التي لم تتمكن بعد من النفوس، ولو قد قدر لعلي أن ينتصر لكان انتصاره فوزًا لروح الإسلام الحقيقية: الروح الخلقية العادلة المترفعة التي لا تستخدم الأسلحة القذرة في النضال، ولكن انهزام هذه الروح ولما يمض عليها نصف قرن كامل، وقد قضي عليها فلم تقم لها قائمة بعد - إلا سنوات علىٰ يد عمر بن عبد العزيز -، ثم انطفأ ذلك السراج، وبقيت الشكليات الظاهرية من روح الإسلام الحقيقية.

قد تكون رقعة الإسلام قد امتدت علىٰ يدي معاوية ومن جاء بعده، ولكن روح الإسلام قد تقلصت، وهزمت، بل انطفأت.

فأن يهش إنسان لهزيمة الروح الإسلامية الحقيقية في مهدها، وانطفاء شعلتها بقيام ذلك الملك العضود.. فتلك غلطة نفسية وخلقية لا شك فيها.

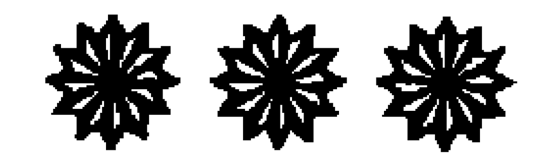
علىٰ أننا لسنا في حاجة يومًا من الأيام أن ندعو الناس إلىٰ خطة معاوية؛ فهي جزء من طبائع الناس عامة. إنما نحن في حاجة لأن ندعوهم إلىٰ خطة علي؛ فهي التي تحتاج إلىٰ ارتفاع نفسي يجهد الكثيرين أن ينالوه.

وإذا احتاج جيل لأن يدعىٰ إلىٰ خطة معاوية، فلن يكون هو الجيل الحاضر علىٰ وجه العموم؛ فروح «مكيافيلي» التي سيطرت علىٰ معاوية قبل مكيافيلي بقرون، هي التي تسيطر علىٰ أهل هذا الجيل، وهم أخبر بها من أن يدعوهم أحد إليها؛ لأنها روح

النفعية التي تظلل الأفراد والجماعات والأمم والحكومات!.

وبعد، فلست شيعيًّا لأقرر هذا الذي أقول، إنما أنا أنظر إلىٰ المسألة من جانبها الروحي والخلقي، ولن يحتاج الإنسان أن يكون شيعيًّا لينتصر للخلق الفاضل المترفع عن «الوصولية» الهابطة المتدنية، ولينتصر لعلي علىٰ معاوية وعمرو، إنما ذلك انتصار للترفع والنظافة والاستقامة».

يريد الرجل بعد هذه الطعون التي يخجل منها بل ويحرمها كثير من الشيعة، أن يتخلص من تهمة التشيع، ولكن من يحترم أصحاب محمد ﷺ، يحكم بالرفض الخبيث علىٰ من انتقص واحدًا من أصحاب محمد ﷺ، فكيف وهو يحكم علىٰ الكثير من أصحاب محمد ﷺ والتابعين بأنهم قد ارتدوا إلىٰ المنحدر الذي انتشلهم منه الإسلام؟!



محبة الصحابة ﭫ ومعرفة قدرهم

قال العلامة محمود شاكر ﭬ:

ولذلك، فإن هذه الأمة مجمعة - إلا من شذ منها - بأن أصحاب رسول الله ﷺ عند كل منهم من العلم بالقرآن وبسنته ﷺ، وهي ما أوتيه من الوحي كما أوتي النبيون من قبله، قدر لا يلحقهم فيه أحد من التابعين، سواء كان الصحابي قديم الصحبة له ﷺ منذ أول البعثة، أو كان حديث الصحبة لم يدركه إلا في آخر حياته، بأبي هو وأمي قبل أن يقبضه الله إليه ويُرفع الوحي؛ وذلك لأن كل صحابي لم يخرج من جاهليته إلىٰ إسلامه إلا بعد أن استوعب بهذا التذوق النافذ العميق قدرًا زائدًا من علم الكتاب المنزل حين تهدّم الحاجز الكثيف، فانكشف له أن هذا الكتاب كلام الله المباين لكلام البشر.

والجهد الذي بذله كل صحابي في هذا التذوق الذي وصفت جهد لا يستطاع تحديده أو تصوره، والذي عاناه كل منهم في سبيل هذا التبين الفاصل بين القرآن وبين كلام البشر محنة شديدة علىٰ النفس الإنسانية لم تمتحن بمثلها قط، ولا يبلغ النظر النفاذَ إلىٰ حقيقته، ولذلك رفعهم الله درجات فوق سائر عباده، وقال لهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

هذه صفة الأمة الماضية، أما الأمة الحالية!.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «دعوا لي أصحابي، لو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهبًا؛ لم يبلغ مُدَّ أحدهم أو نصيفه».

ولذلك أيضًا شدد علماء الأمة النكير، حتىٰ بلغوا التكفير، علىٰ من سب أصحاب رسول الله ﷺ، أو غمس لسانه أو قلمه بسوء الأدب وقلة الحياء من الله في شيء مما وقع بينهم من خلاف أو نزاع أو قتال.

وأحب أن أختم هذا الحديث عن أصحاب رسول الله ﷺ وما عانوا بخبر رواه الإمام أبو عبد الله البخاري في «الأدب المفرد» قال:

حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ، قَالَ:

أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ قَالَ: أَخْبَرَنَا صَفْوَانُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: جَلَسْنَا إِلَىٰ الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ يَوْمًا، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ فَقَالَ: طُوبَىٰ لِهَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ اللَّتَيْنِ رَأَتَا رَسُولَ الله ﷺ، وَاللَّهِ لَوَدِدْنَا أَنَّا رَأَيْنَا مَا رَأَيْتَ، وَشَهِدْنَا مَا شَهِدْتَ. فَاسْتُغْضِبَ الْمِقْدَادُ- غضب غضبًا شديدًا -، قال ابن نفير: فَجَعَلْتُ أَعْجَبُ، مَا قَالَ إِلَّا خَيْرًا، ثُمَّ أَقْبَلَ - المِقدادُ - عَلَيْهِ فَقَالَ: مَا يَحْمِلُ الرَّجُلَ عَلَىٰ أَنْ يَتَمَنَّىٰ مُحْضَرًا غَيَّبَهُ اللَّهُ عَنْهُ، لَا يَدْرِي لَوْ شَهِدَهُ كَيْفَ يَكُونُ فِيهِ؟ وَاللهِ، لَقَدْ حَضَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَقْوَامٌ كَبَّهُمُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ، لَمْ يُجِيبُوهُ وَلَمْ يُصَدِّقُوهُ، أَوَلَا تَحْمَدُونَ الله عز وجل إِذْ أَخْرَجَكُمْ لَا تَعْرِفُونَ إِلَّا رَبَّكُمْ، فَتُصَدِّقُونَ بِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّكُمْ ﷺ، قَدْ كُفِيتُمُ الْبَلَاءَ بِغَيْرِكُمْ - بما لقيه الصحابة -، وَاللَّهِ لَقَدْ بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ أَشَدِّ حَالٍ بُعِثَ عَلَيْهَا نَبِيٌّ قَطُّ، فِي فَتْرَةٍ وَجَاهِلِيَّةٍ، مَا يَرَوْنَ أَنَّ دِينًا أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، فَجَاءَ بِفُرْقَانٍ فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَفَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الْوَالِدِ وَوَلَدِهِ، حَتَّىٰ إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَرَىٰ وَالِدَهُ أَوْ وَلَدَهُ أَوْ أَخَاهُ كَافِرًا، وَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ قُفْلَ قَلْبِهِ بِالإِيمَانِ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ إِنْ هَلَكَ دَخَلَ النَّارَ، فَلَا تَقَرُّ عَيْنُهُ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ حَبِيبَهُ فِي النَّارِ، إِنَّهَا لِلَّتِي قَالَ اللَّهُ: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤]. اهـ.

هذا خبر يدمي القلوب، ويبكي الأعين، ويلقي الرعب في النفوس، وهو عظيم الدلالة علىٰ مقدار التصدع والتمزق الذي لقيه العرب الذين كانوا في الجاهلية، ثم اجتازوا الهول كله إلىٰ الإسلام، وصحبوا تالي القرآن عليهم، صلوات الله عليه، ولكن يا سوء ما صرنا إليه، أن يجترئ مجترئ غيبه الله عن محضر لا يدري لو شهده كيف

يكون فيه، فيتهجم على صحابة رسول الله ﷺ، ويغمس لسانه وقلمه فيما وقع بينهم من خلاف، ويقضي في أمر إسلامهم وجوههم لله قضاءً يوجب له أن يقول: إن فلانًا وفلانًا وفلانًا من الصحابة لم يدخل الإيمان قلوبهم قط.

اللهم اغفر لنا، وتغمدنا برحمتك، وقنا عذاب النار.

هذا أيضًا مختصر جواب السؤال الثالث مع استطراد لا يلتحم به، ولكنه لا ينفصل عنه.

«المحاضرة السادسة والأخيرة» ألقاها في قاعة المحاضرات في المربع ليلة ٨ ربيع الثاني ١٣٩٦هـ



حكم بلا بينة[1]

بقلم العلامة/ محمود شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ

يوشك تاريخ الإسلام أن يصبح لهوًا علىٰ الألسنة، ولغوًا في الصحف، ومرتعًا للظن المتسرع دون اليقين المتثبت، وهدفًا لكل متقحم[2] علىٰ الحق بمثل جراءة الباطل، ومخاضة يخوض فيها كل من ملك لسانًا ينطق، أو عقلًا يفكر، أو قلمًا يخط.

وإنما ابْتُلي زماننا بهذا لأسباب كثيرة:

أولها: أن العصر الذي نعيش فيه يُعجل الناس عن تحقيق معنىٰ الدين نفسه في حقيقة قلوبهم.

وآخرها: أن المسلمين في زماننا بلغوا من العجز، والقلة، والهوان علىٰ أنفسهم، مبلغًا مهد لشياطين الإنس والجنّ مسالك كثيرة إلىٰ مقر الغرور في بعض الأفئدة، فسوّل لأصحابها فيما يسول أن فهموا الإسلام «فهمًا جديدًا»، فكان لهذه الكلمة سحرها حين مست مكان الغرور والكبرياء من نفوسهم، واحتملهم هذا الغرور علىٰ أن يسيئوا الظن بما يفهمون من ماضيهم، جله أو كله، وخيل إليهم سوء الظن أن ذلك هو طريق الحق لإحياء دين الله في نفوسهم، وإقامة شريعته في أرضه، ثم خرج بهم مخرجًا أوقع في أوهامهم أنهم قادرون علىٰ أن يجددوا أمر هذا الدين بمجرد النظرة الخاطفة المعتسفة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وفي تاريخ أسلافهم من المسلمين.

ولا أظنني أخطئ شيئًا في التقدير إذا زعمت أن هذه النابتة لم يبتل الإسلام بمثلها

(١) المسلمون، العدد الأول ١٣٧١ هـ/ ١٩٥١، ص: ٤٣-٤٨.

(٢) يرد الأستاذ شاكر علىٰ ما كتبه سيد قطب في شأن بعض الصحابة. ولم يرد سيد قطب علىٰ نقد الأستاذ شاكر، ولكن تصدّىٰ له أحد أصدقاء سيد قطب، وهو الأستاذ محمد رجب البيومي، وانظر الجزء الأول، ص: ٥٦٧ - ٥٧٩.

قط، علىٰ كثرة ما انتابه من النوابت المتتابعة علىٰ مدة عصوره كلها؛ في حال بأسه وسطوته، وفي حال ضعفه وفترته. وهي عندي أخطر النوابت جميعًا وأخوفها علىٰ دين الله؛ لأنها نجمت في عصر قد حطم جميع القيم الإنسانية العتيقة، ودمر تراث الأخلاق التي فطر عليها ولد آدم في الآباد المتطاولة.

ولا أسيء الظن فأدَّعي أنهم يأتون ما يأتون عن عمد، بل أقول: إن وباء هذا العصر قد أصابهم، منذ نقله الاستعمار إلىٰ الأرض المسلمة، فنشئوا فيه لا يكادون يحسون بالذي أصابهم من آفاته، فاتسم تفكيرهم من أجل ذلك بسمة التحطيم والتدمير، وسمة العلو والجراءة، وسمة الإصرار علىٰ تحقيق معاني الغرور الإنساني في أعمال الإنسان، وأولها الفكر.

وقد تفشت في أهل الإسلام منذ زمن قريب فاشية شديدة الخطر علىٰ تاريخ الإسلام كله، بل علىٰ دين الله نفسه. نظرت متعجلة في دين ربها، وخطفت خطفة في تاريخ أسلافها، ثم انتزعت من ذلك كله حكمًا يدمغ المسلمين جميعًا منذ القرون الأولىٰ من الهجرة، باطراح الدين واتباع الشهوات، فزعمت – مثلًا – أن الإسلام لم يطبق ولم يعمل به إلا مدة رسول الله ﷺ، ومدة أبي بكر خليفة رسول الله، ومدة عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، ثم مرج أمر الإسلام وضطرب! .

والخطأ في مثل هذا الحكم الدامغ يكبر عن أن يسمىٰ خطأ؛ إنه الحالقة:

حالقة الدين لا حالقة الشعر، كما قال رسول الله ﷺ؛ تستأصل دين الصحابة والتابعين، وتستأصل أمانتهم في تبليغه، وتستأصل ما بذلوه في نشره في مشارق الأرض ومغاربها، وتستأصل تاريخهم، وتستأصل تاريخ الحياة الإسلامية كلها ثلاثة عشر قرنًا.

فيالها من بلوىٰ تستهلك دين امرئ إذا نطق بها، وتخسف بتقوىٰ سامع إذا لم ينكرها.

ورَدُّ مثل هذه المقالة يوجب علىٰ منكرها أحد طريقين:

إما أن يسرد على القائل بها تاريخ الإسلام كله بجميع تفاصيله، ويقف به على كُلّ موضع منها، وهذا شيء لا يتيسر في كتاب واحد، فضلًا عن مقالة، فضلًا عن حديث.

وإما أن يقفه على فسادها في صريح العقل، ويبين له ما تفضي إليه من بَهْت أمة كاملة، بل أمم بأسرها، بشيء لا يستطيع عاقل أن يحتمل وزره في فكره وتقواه ودينه. وهذا هو أيسر الطريقين، وأقربهما إلى تصحيح المقاييس، وإلى إقامة التفكير على أصل واضح وثيق.

* * *

وكلمة «الإسلام» كلمة شاملة لدين الله كله، وإذا دخلت في حكم قاطع كهذا الحكم «إن الإسلام لم يطبق إلا مدة رسول الله وأبي بكر وعمر»، صار حكمًا شاملًا بطبيعته، فإذا ألقي إلى سامع، لم يجد عندئذ مناصًا في العقل ولا في اللغة ولا في البيان، من تعميم الحكم في كل ما يتناوله لفظ «الإسلام». فإذا استمعه سامع كأهل زماننا الذين وصفنا قبل، كان هذا الحكم ظلًّا كثيفًا قاتمًا كئيبًا يُلقي على العصور الأولى كلها من قتامه وكآبته، يدفع إلى الاستخفاف والتحقير والغلو في التهزؤ بأهل هذه العصور، والشك في أمورهم، ويعميه عن معرفة الحقائق، ويصرفه إلى البحث عن المثالب يتسرع إليها ويتقممها من كل كتاب ومن كل خبر، والناس أسرع شيء إلى سوء الظن، فإذا كان سوء الظن والثلب والتحقير مما يعينهم على نسبة القدرة والصلاح والعلم والفقه إلى أنفسهم؛ فهم عندئذ أسرع إليه من السيل إلى الحَدُور[1]. وإذا كانت نسبة الصلاح والعلم إلى أنفسهم مدعاة إلى صرف أنظار الناس إليهم بالتسليم والتبجيل والإعجاب، فسوء الظن والثلب والتحقير، أسرع في عقولهم وألسنتهم من النار المتضرمة في الهشيم اليابس.

وماذا بعد هذه البلوى، إلا أن يصبح تاريخ الأمة المسلمة منذ اليوم السابع

---

(١) الحدور: الأرض المنحدرة.

والعشرين من ذي الحجة سنة ٢٣ من الهجرة - منذ قتل عمر - إلىٰ يوم الناس هذا في سنة ١٣٧١ وقودًا لكلمة يزل بها لسان، ويتبجح بها صوت، وتستخفها أذن؟ أي إنسان يرضىٰ لنفسه هذه الظنة الجائحة، فضلًا عن إنسان عاقل، فضلًا عن مسلم، فضلًا عن مسلم يتقي الله، يرجو رحمته، ويخاف عذابه؟

قتل عمر وخلف أئمة الصحابة، فعاشوا زمن عثمان، وزمن علي، وزمن معاوية ﷺ، ويقيت منهم بقية في عصر الأوائل من بني أمية، ثم خلفهم الذين اتبعوهم بإحسان من علماء الأمة وفقهائها وأهل دينها، وهم متوافرون يومئذ إلىٰ أوائل عصر بني العباس، وكانوا هم علماء الأمة وورثة النبوة، القائمون ببثّ دين الله في الأرض، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، المبلغون عن نبي الله ورسوله، وعن أصحابه، هذا الدين إلىٰ الناس. وبهم بلّغ المسلمون هذا الأمر كله، وبما بلغونا من أمر الدين قامت حجة الله علينا، وإلىٰ ما بلّغوا كان مرجع أئمة المسلمين وفقهائهم وعلمائهم طول هذه القرون. ولولاهم ولولا ما بلّغوا؛ لدرست سنة رسول الله، ولذهب الفقه، ولفقد الناس الحجة والبرهان في دينهم، ولما وجدوا وسيلة لتحكيم الله وتحكيم رسوله في شيء مما اختلف فيه من أمر الدين، أفيمكن في العقل أن يوصف العصر الذي كان فيه هؤلاء الأمناء علىٰ دين ربهم، بأنه عصر لم يطبق فيه الإسلام؟! وأين غابوا جميعًا إذا كان الإسلام لم يطبق في زمانهم؟ ولو شهدوا، وصحت هذه الكلمة علىٰ زمانهم، فكيف يؤتمنون علىٰ ما بلغوا من أمر الدين؟

بل إلىٰ أي شيء يحتكم قائل هذه الكلمة في الحكْم علىٰ عَصْرِهم؟

أليس يحتكم ويرجعُ في الحكم عليهم إلىٰ ما بَلغَه هو من دين الله الذي بلّغوه هُمْ إليه؟

وأنّي له أن يعرفَ الإسلامَ إلّا بما عرَّفوه هُمْ له ولمن سبقه من أمة محمد ﷺ؟

بل كيف يُعْقَل أنْ يبلِّغوا هذا الشيء الذي يستند إليه هذا القائل، ويكونونَ هم أوَّلَ

الناقضين والهادمين بإغفالهم إقامته، بل بعملهم علىٰ إقامة خلافه؟

أفي العَقل شيءٌ بعد ذلك هو أفسَدُ معنًىٰ ومدخلًا ومخرجًا من هذه الكلمة الجائرة، من هذا الحكم المستأصِل لدين هؤلاء الناسِ وعلمهم وَأمانتهم؟ كبرت كلمة وساء حكمًا.

وأحبُّ أن أزيدَ الأسئلة: ما هو هذا الإسلام الذي لم يطبّق: أكفروا بأن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله؟ أتركوا صلاتهم وأضاعوها وسهوا عنها؟ أَمَنعوا زكاتهم واحتجنوها[1] فلم يؤدوا حق الله عليهم؟ أتركوا شهر صيامهم فأفطروه؟ أأبوْا أن يحجوا إلىٰ بيت ربهم قانتين مسبحين مكبرين؟ أعتزلوا الجهادَ بأموالهم وأنفسهم رغبة عنه وحرصًا علىٰ الحياة؟! أأغفلوا أدبَ الله لهم وأدبَ رسوله؟ أنقضوا عهدَ الله، فخانوا الأمانة وبغوْا في الأرض؟ أعطَّلوا أحكام الله وفرضوا علىٰ الناس أحكامًا من عند أنفسهم؟ أشرَعوا في الدين ما لم يأذن به الله؟ أأبطلوا الحدود ونصروا الخارجين عليها والمعتدين؟ أأعرضوا بقلوبهم ووجوههم عن كل ما تضمَّنه كتابُ الله، وما احتوته سُنَّة رسوله، وعادوا في جاهليةٍ لا يُعرفُ فيها لله دين، ولا يطاعُ له فيها أمرٌ، ولا يُنتهىٰ فيها عن منكر، ولا يؤتىٰ فيها معروف؟ أرتكسُوا هم والأمة كلها قرنًا من بعد قرنٍ في تعطيل الإسلامِ في أحكامهم، وفي أنفسهم، وفي أبنائهم، وفي الذين دخلوا في هذا الدين حتىٰ شمل ما بين الهند شرقًا إلىٰ المغربِ الأقصىٰ غربًا، ومن حدود الروم شمالًا إلىٰ أقصىٰ الأرض جنوبًا؟

أيّ عاقل يستطيع أن يقول: نعم، في جوابِ سؤالٍ واحدٍ من هذه الأسئلة، فضلًا عنها كلها؟

ولو غلغل المرءُ قليلًا، فسألَ نفسه: أمن الممكن لأمّة تنقُض دينها هذا النقضَ، الذي استوجبَ ذلك الحكم، أن تفتح الأرَضين كلها، وتُحدث فيها أكبرَ تغيير حدث في

---

(١) احتجنوها: حزنوها.

تاريخ الجنس البشري كله: تتغير بهمْ ألسنة الناسِ إلىٰ العربية، ودينهم إلىٰ الإسلام، وتنابُذُهم إلىٰ الألْفَة، وتداعيهم باسم العصبية والجنسية إلىٰ شيء واحدٍ هو جماعة المسلمين، ويقومُ هذا الأمرُ في الأرض ثلاثة عشر قرنًا، مع شدة ما انتابَ المسلمين علىٰ مرّ القرون من النوائب، إلىٰ أن كانت النائبة الكبرىٰ في هذا العصر، وهي نائبة الاستعمار، ويَظَلُّ مع ذلك هذا الرباطُ الوثيق مشدودًا لا ينحلُّ من ناحية، إلّا تداركته آلاف الأسباب من هذا التراث من نواحٍ أخرىٰ، أكان ممكنًا لهؤلاء الذين خانوا أمانة الله أن يَبْلغوا هذا المبلغ؟ اللهم اشهد؛ فإنها كلمةٌ لو صحت؛ لأزالتِ العقول من مستقرِّها، وصدقَ الله رسولَه والمؤمنين ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [سورة النور: ٥٥]. وما من حرفٍ من هذه البشارة إلا أتمه الله علىٰ محمد وأصحابه وتابعيهم؛ إذ كانوا خيرَ أمةٍ أخرجتْ للناس، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويطيعون الله ورسوله في سرّهم وعلانيتهم.

ومن الحق علىٰ من وسوَس في قبله هذا الحكم الشامل أن الإسلام لم يطبَّق إلا مدّةَ رسول الله، ومدةَ أبي بكر وعمر، أن يسأل نفسه: بم يصحُّ مثل هذا الحكم؟

إنّ بديهة العَقْل تجيبه بأنه لا يسوغُ لهُ أن يحكم علىٰ عصور كاملة بحكم شاملٍ، إلا بدلائل بينة المعاني صحيحة الأصول؛ وشرطُ هذه الدلائل أن تكون مستقصية لأهل الإسلام جميعًا في كل أرضٍ، وأن تكون شاملةً أيضًا لكل ما يكون به إسلام الناسِ إسلامًا، وأن يكون ما يدّعي المدَّعِي أنه قد أَبْطِلَ، أمرًا من أمور الإسلامِ التي لم يختلف عليها المجتهدون من العلماء والفقهاء، وأن يكون هذا الإبطالُ جاريًا مجرىٰ الشريعة، ومأمورة به كلُّ جماعة يشملها الإسلام.

فإذا فقد الحكم هذا الشرطَ، فإنما هو تحكُّمٌ محضٌ وبهتانٌ خالصٌ. ولست أظنُّ في العالم كله إنسانًا يوصف بالمعرفة يستطيع أن يؤيّد هذا الحكم، بمثل هذه الدلائل، علىٰ مثل هذا الشرط، مهما أوتي من العلم، ومن التتبُّع، ومن سوء النية، ومن براعة التخلُّص، ومن تمام القدرة علىٰ إظهار الباطِلِ في ثيابٍ مزوَّرة من الحق.

وإلا فإن هذا الحكم الشامل مظلمةٌ جائرة مُبيرة لأهل العصور الأولىٰ من الصحابة والتابعين وعلماء الأمة، وقادحٌ بليغٌ في دينهم وأمانتهم، وجائحة طاغيةٌ تزيل كل ثقة بهم وبتاريخهم وأعمالهم، وناقضٌ مُدَمّر ينقضُ كل ما يشهدُ به التاريخ الذي كنا نحنُ آخرَ خلف له في هذا العَصْر.

كلا، بل أتجاوز ولا أطالب من يقضي بهذا القضاء، أن يأتي بكل هذا الشمول، بل أقتصر فأدعوه إلىٰ أن يأتي بقضية مفردة عن الإسلام تجتمع لها هذه الشروط، مصححة صادقة خالية من التوهم والغلو. وأنا علىٰ يقين من أن أحدًا لا يطيق أن يفعل، وأن الأمر أكبر من أن يحيط به بيان مبين وعلم عالم. وإنما يؤتىٰ الغارز فكره في هذه الضلالة المتحكمة باتخاذه الحادثة الواحدة المجردة من الاستقصاء والشمول، ومن الاختلاف في أمرها، ومن شمول العمل بها وإنفاذها في جماعات المسلمين، أساسًا لاستقصاء مكذوب وشمول متوهَّم.

ثم أتجاوز مرة أخرىٰ، وألتمس لهذا الحكم الشامل مخرجًا آخر، أزعم فيه أن العربية والبيان والعقل تبيح مجتمعة أن يكون المراد بالإسلام في هذا الحكم جزءًا من الإسلام، وأن يكون المراد بالذين لم يطبقوه فئة واحدة من المسلمين: فكيف يمكن أن يصح؟

إن المدَّعِي لمثله مطالب عندئذ أن يستقصي هذا الجزء المعطل في تاريخ العصور التي يشملها حكمه، يومًا بعد يوم، وحادثة بعد حادثة، وأن يدل دلالة لا يأتيها الشك أن ذلك هو الذي جرىٰ به العمل في كل جماعة من جماعات المسلمين؛ وأن يأتي بالبرهان

علىٰ أن هذه الفئة أصرت علىٰ أن تجعل هذا الجزء ديدنها في كل زمان ومكان؛ وأنها استطاعت أن تجعل ما خالف حكم الله إلزامًا عامًّا للناس كلهم بتشريع من عند أنفسهم يلزم الناس جميعًا العمل به والطاعة له.

وهذه هي الشروط التي يقضي محض العقل أنها هي وحدها التي تبيح لامرئ أن ينطق بحكم شامل كهذا الحكم. فإذا لم تتم له هذه الشروط، فما هو إلا التعسف الغليظ الذي لا يبصر وجه الحق إلّا في ظلمات من الباطل، إن صح وأمكن أن يكون التعسف قادرًا عندئذ علىٰ أن يبصر.

ثم أتجاوز مرة ثالثة، فأزعم أن من الممكن أن نلتمس شيئًا من الإسلام لا يدخله الخلاف، قد أطبق الخلفاء جميعًا منذ قتل عمر ﷺ علىٰ تعطيله، فما الشروط اللازمة لمثل هذا الممكن؟

ينبغي أن يثبت المرء أولًا أن الخليفة قادر علىٰ أن يأمر علماء الإسلام وفقهاءهم ومفتيهم وأمراءهم وعامة الناس منهم بهذا الذي يريد تعطيله، وأنهم إن فعل أطاعوه جميعًا وعملوا بما أمر، وأن هذا الشيء من الإسلام قد عطل تمام التعطيل في الحياة الإسلامية كلها في زمنه. ومن البين أن الخليفة رجل من المسلمين، لا يملك أن يشرع للناس شرعًا يعمل به الفقهاء والقضاة والمفتون، ويخضع له عامة الناس علانية ويعملون به في أنفسهم سرًّا. وإذا بطل هذا الشرط، بطل الحكم كله، ولم يبق إلا أن الخليفة ربما قدر علىٰ أن يعطل حكمًا من أحكام الله، فيما يمكن أن تناله يده، وهو في بيته أو قصره أو بلدته، دون سائر بلاد المسلمين، وأن هذا الحكم لا يلزم أحدًا من القضاة ولا الأمراء أن يفعلوا فعله؛ لأنه لا يملك أن يشرع لهم ما لم يأذن به الله. وأنا أقطع بأن تاريخ الإسلام كله ليس فيه حادثة واحدة استطاع خليفة أن يأمر قضاة المسلمين وعلماءهم وفقهاءهم بأمر يخالف كتاب الله وسنة نبيه، فأطاعته الأمة كلها أو بعضها، وعملت بما أراد، وقضت علىٰ الناس بقضائه دون قضاء الله.

وينبغي أن يثبت المرء ثانيًا أن الخليفة - أو غير الخليفة من أمراء المسلمين في بلدان الأرض المسلمة - قد استطاع أن يجعل هذا التعطيل، بهذه الشروط، عملًا متوارثًا في جيل بعد جيل، وأن الأمة قد اتفقت علىٰ قبول تعطيله أبدًا، وأن هذا هو الذي جرىٰ به العمل بلا ريبة ولا ادعاء ولا توهم ولا اعتساف، وأنا أقطع أيضًا بأن هذا شيء لم يكن قط إلا بعد أن ضرب الاستعمار علىٰ هذه الأمة الإسلامية حضارته وثقافته ولون تفكيره.

فهذه الكلمة الباغية الجائرة منقوضة في شمولها وفي تخصيصها، ولا يستطيع منصف بعض الإنصاف أن يجد لها في العقل مخرجًا، ولا في التاريخ شاهدًا، ولا في الفرض المطلق وسيلة إلىٰ تحقيق طرف منها. وهي لا تصح في أحد محمليها إلا كانت حكمًا علىٰ عامة الصحابة والتابعين والفقهاء وخاصتهم بالكفر البواح.

فلينظر امرؤ أين يُنزل عقله؟ وفيم يورّط دينه وتقواه؟ وإلىٰ أي قرار تهوي به كلمة تعجب هواه، ويستخفها لسانه، ويتغذىٰ بها غروره بنفسه؟

ولم أجعل همي في هذه الكلمات أن أسرد الحجج التي يحتج بها القائلون بهذا الحكم، ولا أن أروي ما يعدونه مؤيدًا لهم من روايات التاريخ والكتب؛ فإني إن فعلت كان لزامًا علي أن أقدم نفس هذه المقدمة في شروط الأحكام، ومقدمة أخرىٰ في تمييز ما يعد تاريخًا، ومقدمة ثالثة في انتزاع الحكم العام من الحادثة أو الحوادث، وهل هو صحيح في نفسه أو غير صحيح. ثم آخذها واحدة واحدة، فأبين وجه تأويلها أو فهمها أو ردها أو تجريحها، إلىٰ آخر ما ينبغي لكل من يتصدىٰ للأحكام علىٰ أفراد في التاريخ، فما ظنك بأمم بأسرها في تاريخ كامل كتاريخ العصور الإسلامية أولها وآخرها، وكل ما رميت إليه أن أبين فساد مثل هذا الحكم الشامل، وأسباب فساده، وأن أكشف عن موضع المخافة وثقل الوزر، وجناية التسرع في تعميم الأحكام بلا بينة من العقل أو الحجة أو التاريخ. وأرجو أن يتاح لي أن أتناوله مرة أخرىٰ بالبيان والتفصيل حتىٰ يتجلىٰ فيه وجه الحق.

تاريخ بلا إيمان(١)

بقلم العلامة/ محمود شاكر رحمه الله

أنا أعلمُ أني استفتحتُ موضوعًا، لو شئت أن أستهلك فيه تلك الذُّبالة الخفاقة المترددة من بقية عمري، لما استطعتُ أن أوفيه حَقه من البيان؛ فإن مادة التاريخ كلها تستقبلني بقضها وقَضيضها، وتتذاءَبُ بين يديَّ أصنافُ الطبائع البشرية التي فطر الله الناسَ عليها - علىٰ ما علمَ هو سبحانه من اختلاف نفوسهم وساعاتهم وأيامهم وأجيالهم وعصورهم. وطبيعةُ رجُلٍ واحدٍ حيّ، تعرفه وتعاشرهُ من ولد أبينا آدم صلىٰ الله عليه، مشكلةٌ تعجز الفارس(٢) البصيرَ أن يهتدي إلىٰ ما يختبئ فيها من التناقض والتخَفي والتسرُّب. فما ظنُّك بإنسان لم يستبقِ لك الله منه ما تعرفه به إلا نبذًا يسيرًا من أخبار تُروىٰ، لا تستغرقُ سوىٰ صفحة أو صفحاتٍ، ولقد قضىٰ في الدنيا عُمُرًا من قبلُ، لو هو قيَّد وكتب بجميع ما أحدث فيه؛ لما وسعته المجلدات الضخمة؟ فانظر إذنْ أين ينتهي بك توهمك وأنت تتحرَّىٰ أن تتعرَّفَ خبءَ مؤلّفه من مثل هذا الإنسان، عاشت أعمارًا طوالًا وقصارًا في طوايا الغيب الماضي، استنفدتها بأعمالها وخواطرها ساعة بعد ساعةً، ويومًا بعد يوم، وعامًا بعد عام - في تاريخ متقادمٍ متطاول يمتدُّ في غيب الماضي سبعين سنة، وثلاثمائة سنة، وألف سنة، أو تزيد! !

هذا تصوُّرٌ مثبطٌ للفكر، ولكنه ضرورة لا غِنىٰ عنها للمؤرخ، وهو أشد ضرورة لمؤرخ يكتب تاريخ أهل الإسلام، ثم هو أفدح ضرورة؛ لأنه تاريخ - ما علمتُ - يختلف اختلافًا مبينًا صارخًا عن كل تاريخ عهده البشر في سائر تواريخهم، ثم هو

---

(١) المسلمون، العدد الثاني، ١٣٧١ هـ/ ١٩٥١، ص: ١٣٨ - ١٤٥.

(٢) الفارس هنا: صاحب الفراسة.

الضرورة الراسخة لمنْ ورَّط نفسه في تأريخ أهل القرون الأولىٰ من الإسلام.

بيد أنّ المؤرخ المسلم وحده هو القادر علىٰ أن يكتب تاريخ أهل الإسلام وغيرهم إن شاءَ، علىٰ وجه يمكن أن يوصف بالنبل والفهمِ والصدق والأمانة والثقة - إذا هو حرَصَ علىٰ أن يتأدّب بما أدَّبه به ربه من أخلاق تَلزمه في معاملته، كما تصحبهُ في تفكيره وبحثه، وإذا هو مكن في قلبه ونفسه الطاعة لما تركه لنا رسول الله ﷺ من أدب كان يؤدب به أصحابه ممسكا بحُجُزِهم أنْ: هلموا عن النار!

وعلمُ ضمائر خلق الله علم قد استأثر به ربنا سبحانه علامُ الغيوب. ومع ذلك، فلست أغالي شيئًا إذا زعمتُ لك أن أكثر من ثلاثة أرباع تاريخ الدنيا لم يجتمع ولم يتكوَّن ولم يصبح عملًا في الأرض، إلا من خفيات هذه الضمائر. ونحن حينَ نرىٰ نتائج أعمال البشر، والتي نزعمها أو نسميها تاريخًا، لا نرىٰ إلا أثرًا شاحبًا متهافتًا مما استسرّ في جوانح خلق الله. وهذه الآثار ربما تشابهتْ عندنا تشابهًا غريبًا، مع أن الأسباب التي أحدثتها تختلف في حقيقتها وطبيعتها كل الاختلاف. فإذا خفيت الأسبابُ وتشابهت الآثار، فإجراءُ حكم واحد علىٰ هذه الآثار المتشابهة خطلٌ، وسوء رأي، وإعظامٌ في الفرية علىٰ الناس الماضين، وإغراق في التضليل بالناس الحاضرين. وأنا لا أحيلك في معرفة مصداقِ ما أقول إلىٰ التاريخ الماضي، بل إلىٰ ما تشهدهُ بعينيك، وتسمعهُ بأذنيك، وتدركهُ ببصيرتك وفكرك من أحوال الناس الذين تعاشر، والتاريخ الذي يصنع الآن بمرأىٰ منك ومسمع، ساعةً بعد ساعة، ويومًا بعد يوم. فانظر كيف يحكم الناس بعضهم علىٰ بعض، وكيف يفسر بعضُهم أعمالَ بعض، فإذا صح هذا عندك وتأملته، علمت لم أوثر أن أدعوك إلىٰ تصوّر أزمنة التاريخ وخلائقه، تصوُّرًا طويلًا عريضًا متراحبًا، يكاد يثبط الفكر الإنساني عن العناية به والإلحاح عليه.

وهذا الأصلُ الذي يكادُ يبلغُ مبلغَ البديهيِّ، أصلٌ متروك في التأريخ الحديث؛

وذلك لأن حضارة هذا القرن العشرين المتحدّرةَ من عصور المدنية الأوربية الوثنية والمسيحية، قد انبثقت من ضرورات اجتماعية وأخلاقية ودينية، لا يمكنُ أن تدع لمثل هذا الأصل مكانًا في التصوُّر، إلا شعاعًا ميتَ النور، ربما انبثَّ في بعض ما يؤلفون، محاطًا بظلمات شديدة من الجرأة والتهجم والافتراء والرجم بالغيب، والمبالغة في اعتداد المؤرخ منهم بنفسه، والإفراط في ثقته بقدرة عقله، والغلو في تحكيم ما يدَّعيه وما يفرضه علىٰ مادَّة التاريخ ورواياته، بغير بينة ولا حجة.

ثم زاد هذا كله بشاعة حين نجمت طائفة المستشرقين، بأحقادها وضغائنها وسفاهة ألسنتها وسرائرها، وبدأوا يكتبون تاريخ الإسلام علىٰ أصولهم الفاسدة، ثم قام في الشرق العربي والإسلامي طائفة أخرىٰ من أصحاب الأهواء، من بين مسلم وغير مسلم، فاتبعوهم وناصروهم، وأذاعوا بعلمهم، وأشادوا بمقدرتهم في التقصِّي، وكمال مناهجهم في البحث، فنقلوا إلىٰ العربية ثمرة هذه الأحقاد والضغائن، في كتب ألفوها، ونشرُوها وطارت بين عامة المثقفين، يتلقفها الإعجاب بها، والافتتانُ بأسلوب قصصها وحكايتها وتحقيقها! وجاء هذا مع غلبة الحضارة المسيحية الأوربية حين تم لها سلطانها في أرض الشرق والإسلام، بالغزو الحربي والسياسي والأدبي والعلمي والاجتماعي والأخلاقي والثقافي عامة، فعشش في القلوب ثم باض ثم فرَّخ كما يقول الجاحظ. وانتهىٰ الأمر بالعرب والمسلمين أخيرًا إلىٰ أن يكون مصدرُ ثقافتهم وفكرهم عدوًّا لهم من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون - تجد ذلك في كتبهم، ومجلاتهم، وصحفهم، ومدارسهم ومعاهدهم، وفي معاقل دينهم كالأزهر وغيره. فسادَ من يومئذ الافتراء الكاذبُ سيادة تامة في الحياة العقلية والأدبية، وأصبح تاريخ الإسلام وأدبه وعلمه، منظورًا إليه من صميم أهله المتحمسين بعين تبغضُ، وقلب يعرض، ونفس تزورُّ عنه، ولم ينج من غائلة هذا الفساد إلا من عصم الله، وهي قلة قليلة هي اليوم في

طريقها إلىٰ الفناء، إلىٰ الانقراض، إلىٰ مصارع الأولين من أهل العلم والفقه والمعرفة.

من أجل ذلك البلاء المستفيض في حياتنا، وفي عقولنا، وفي دراستنا، أقول دائمًا: إنه لا يغرني من أحد دينه، ولا تقواه، ولا علمه، ولا جهاده، ولا فضله، ولا عقله، إذا لم يكن ذلك كله نابعًا من كتاب الله، ومن الحياة الإسلامية المهتدية بهدىٰ الله ورسوله، غير مختلط ما استطاع بذلك الوباء الجائح الذي فرض علينا في صورة مدنية أو حضارة أو علم أو ثقافة.

ومن أجل ذلك لم أزل أثور عند كل بثق ينبثق من هذا الشر في شأن أبي بكر ﷺ قديمًا، وفي شأن عثمان ﷺ، وفي شأن صحابة رسول الله في أيام فتنة عثمان؛ لأن استشراء ضغائن المستشرقين، واستفحال منهج الحضارة الأوربية في الجرأة علىٰ عباد الله بالكذب المتهجم، وادعاء كل مدع ممن يحاول أن يكتب في التاريخ أو يقول: إن هذا هو حق الأسلوب التاريخي - كل ذلك قد مس النفوس والعقول، وأوقع فيها معاني لم تكن لتقع فيها، لو أن حضارة الإسلام وأخلاقه وآدابه وما نبع من هذه الأخلاق والآداب من أساليب العلم والبحث والفكر - بقيت هي السائدة في حياتنا الأدبية والعقلية والعلمية والاجتماعية.

إن المؤرخين الأوربيين، ثم المستشرقين خاصّة، ثم من لفّ لفّهم من المتخطفين من فُتَات موائدهم من أهل هذا الشرق العربي والإسلاميّ - يزعمون أنّ للتاريخ منهاجًا أو منهاجين أو ثلاثة أو عشرة، هي كلّ ما يستطيع الباحثُ أن يعتمد عليه في دراسة كلّ تاريخ. وأنا أحبُّ أن أزعمَ أيضًا أن ليس فيها منهاج واحدٌ يصلح لدراسة تاريخ الإسلام، بل أشكُّ كل الشكّ في صلاحه لدراسة تاريخ أيّ الناس كانَ من غير المسلمين. وإذا احتاج المسلمون إلىٰ إعادة كتابة تاريخهم، فحاجتهم لا تنتهي - أو ينبغي ألا تنتهي - إلىٰ الشعور بفقرهم إلىٰ إمام يقتدون به مقلدين، ثم يكونُ هذا الإمامُ منهجًا

فاسدًا نشأ في تربة غريبة، ودعتْ إلىٰ نشأته أسبابٌ اجتماعية محدودة، وعلل أخلاقية وعقلية معينة. كلا، فإن تحكيم مثل هذا المنهاج، وفي هذا العصر الذي لوثت ثقافته منابع الفكر كلها وكدرتها، لا يؤدي إلا إلىٰ شيء واحد: هو إفسادُ تاريخ أهل الإسلام إفسادًا يشقُّ إصلاحه. وفي الكتب الحديثة التي كتبها مسلمون متحمسون في هذا العصر، برهانٌ لمن تطلب البرهان، علىٰ مقدار ما ينجمُ من الضرر والفساد والعبث والتبديل والتحريف والافتراء، والجهل إن شئت - إذا انطلق كلّ حامل قلم؛ ليكتب تاريخ أهل الإسلام علىٰ مثل هذه المناهج، وبمثل هذا القصور عن معرفة الحقائق الصريحة في الحياة الإسلامية، وبمثل هذا التقليد البشع للمستشرقين، وأكثرهم من اليهود، وبمثل هذا الإغفالِ الشديد للفرق بين الأصول التي قامت عليها حضارة هذا الإسلام وانفردت بها دون سائر الحضارات، والأصول التي قامت عليها حضارة سائر أمم الأرض؛ وتناولها المؤرخون بالبحث والتنقيب والكتابة والتصوير.

وإذا كان الهاتف الذي هتف بالناس أنْ: «افهموا الإسلام فهمًا جديدًا» قذف بالمسلمين وبعقولهم وأهوائهم في متاهة لا يعلم غايتها إلا الله وحده؛ فإنه حين هتف أيضًا بهم أن: «افهموا تاريخ الإسلام فهمًا جديدًا»، أوشك - كما قلتُ - أن يهوي بتاريخ أهل الإسلام وأئمته في ظلمات مطبقة لا يطلع علىٰ خبئها إلا عالم غيب السموات والأرض. وقد مارستُ دعوَىٰ من اتبعوا هذا الهاتف سنين، ولا أزال أمارسها وأتتبعها، فأدركتُ أن شيمة هذا العصر الوبيء، هي الغالبةُ دائمًا علىٰ أصحاب هذا الهاتف: من تحطيم، وتدمير، وغلو، وجرأة، وإصرار علىٰ التحكم، وضراوة في التهجم، وإغراق في الرجم بالغيب، وإفراط في ثقة المرء بقدرة عقله واعتداده بنفسه. ومن أجل ذلك كرهتُ كلمة التجديد هٰذه، وأنفتُ لنفسي أن أثق بالألفاظ التي يلقيها كثيرٌ من المتحمسين للإسلام، إذا لم أجد عمل أحدهم وتطبيقه وسيرته ونهجهُ، تؤيد

دائمًا دلالة هذه الألفاظ علىٰ معانيها. هذا، إذا صحّ عندي أن منبع هذه الألفاظ هو دين الله نفسه، كما نزل في كتابه، بسياقه وبيانه وعربيته، غير مؤَوَّل ولا مصروف عن وجهه، وكما أوحىٰ إلىٰ نبيه ﷺ في سيرته وعمله وتأديبه وحديثه، وكما جرت به سيرة أصحاب رسول الله الذين أقاموا دين الله في الأرض، ولزموا طاعة الله ورسوله، وارتضاهم ربهم خلفاء في أرضه، وألزمهم كلمة التقوىٰ، وكانوا أحق بها وأهلها.

ولعلك تراني شديد الحرص علىٰ أن أجعل أخلاقَ الإسلام وآدابَه وسننه وسائر ما يكون به الإسلام إسلامًا، هي الأصلُ الذي لا غنىٰ عَنْه لمن يتعرَّض لكتابة تاريخ أهل الإسلام. وتراني أكادُ أقطع بأن هذا هو المنهجُ لا غيرُه من مناهج البحث، كما تعرف مناهج البحث في العصر الحديث. وأقول لك: نَعَمْ، ونِعمة عين[1]، فأنا أنكر أن يكون في الدنيا شيءٌ يسمَّىٰ منهاجًا للبحث والفكر أو أسلوبًا أو طريقة إلا وهو منبثق من سرّ النفس الإنسانية، من تصوُّراتها ومآلفها، من عِشرتها وعهدها بما يحيط بها، من أسباب تصرُّفها في خواطرها، من دوافع نقدها للأشياء وتقديرها، من استحسانها واستقباحها، من دَواعي حبها وبغضها، من كلّ ما تعيش به في دخيلتها، وتعاشر به ما يتصل بها، بل إن العقل المجرّد نفسه لا يستطيع أن يدرك الحق وحده، ولا أن يستقلّ بمعرفته وبالبيان عنه، ولا أن ينفرد بشيء يسمىٰ تفكيرًا، متخليًا عن جاراته من الطبائع والغرائز والسلائق، ومن العادات والآداب، ومما تسخطه النفس أو تحمدُه، ومما تحبه وتكرهه، بل إن أكثر علم الناس في هذه الدنيا لا ينشق لهم طريقه إلا بما استقرَّ فيهم من أخلاقٍ وآدابٍ وسننٍ متبعة، بل إنّ اختلاف الأخلاق والآداب والسنن أصلٌ أصيل في اختلاف العلم، ومفهوم العلم، وطبيعة العلم، بل إنّ الحضارات المتباينة، بعلمها وفنونها وصناعتها وآدابها، لم تتباين كل هذا التباين، إلا من جراءِ تباين الآداب

---

(١) تقول: نَعَمْ ونعْمَة (مثلثة النون) عَيْنٍ: أي أفعلُ ذلك كرامةً لك.

والأخلاق والسنن في كل حضارة. فإذا أنا حرصتُ علىٰ أنْ أجعل أخلاقَ الإسلام وآدابه وَسننه هي الأصلُ الذي لا ينفك منه مؤرخ الإسلام؛ فذلك لأن المنهاجَ الذي يتبعه الباحث، لا يمكن إلا أن يكونَ صَدًىٰ لما تقوم به حياته التي يعانيها في دخيلة نفسه بالليل والنهار، وفي السرّ والعلن، وفي المنشطِ والمكره، وفي الرضا والغضب.

والتاريخ، في زماننا، ليس علمًا علىٰ الحقيقة، كما ترىٰ في الكيمياء والحساب والهندسة، بل هو تفسيرٌ لحوادث خفية الأسباب، مطمورة الجذور، متعدّدَةِ الدوافع، كثيرة المحامل والوجوه، متعلقة كل التعلق بحياة كل فرد عاش في الفترة التي تريدُ أن تؤرخها، شديدةِ الخضوع لعوامل لا يحصيها إلا الله وحده سبحانه. فما كان هذا شأنه وتعقيده، واختلاف أسبابه، وخفاء علله ودوافعه، فإنّ منهاجَ دراسته لا يقوم أبدًا علىٰ مقاييس لا تختلُّ كمقاييس الرياضة أو التجربة؛ بل هو يلقىٰ المؤرخ بقدر هائل من الطبائع الإنسانية المتآلفة والمتنافرة، والمتآخية والمتناحرة، والمتفقة والمتناقضة، والظاهرة والغامضة، فلا معدَىٰ له عن لقائها بقدر مثله من نفسٍ تراحبَ إدراكها للطبائع والسجايا والأخلاق. وما دامَ الأمرُ قد انتقل من المقاييس المحدَّدة الضابطة، إلىٰ إدراك الطبائع الإنسانية البعيدة الغوْر، الخفية السرِّ، المتباينة الصور، بقدْر تباين صور البشر وألوانهم وأشكالهم وألسنتهم وأصواتهم وأهوائهم ونوازعهم - فقد انتقل المنهاج كله من التحديد الضابط إلىٰ التشتت المفزع الذي لا تدْري ماذا تأخذُ منه أو تَدع. فلا مناص إذن لأي عاقل بعض العقل من الرجوع إلىٰ شيء لا يختلف، يقومُ علىٰ أصل صحيح من هذا التقدير المخيف لاختلاف الطبائع، ومهما التمس الإنسان شيئًا يَفي بضبط هذا القدْر من التباين المتفجر، فهو خليقٌ ألا يجده. فإذا أثبته العجز عنه، فآثر أن يغفله لمجرد شهوة يشتهيها، وهي أن يكتب للناس ويؤرخ لهم، فهو عندئذ خليقٌ أن يضلَّ في تقديره، وفي تصوّره، وفي حكمه، وصار كل ما يأتي به رجمًا وظنونًا وأهواءً

وعبثًا وافتراءً وتكذبًا واقتفاءً لما ليس له به علم، وهذا الذي كان.

وليس علىٰ الأرض العاقلة شيء يمكنُ أن يعدَّ ميزانًا عادلا لهذه الطبائع البشرية التي وصفنا، إلا ميزانٌ واحدٌ لا غير، هو الذي أنزلهُ ربُّ العالمين إذ يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

واهتداء البشر بالكتاب، وفقههم لمعانيه، واتخاذهم الميزان الذي أنزله الله علىٰ أنبيائه ورُسله أصلًا يتعايشون به في حياتهم، ويتحاكمون إليه في النظر والفكر، وفي العلم والفقه، وفي المعرفة والتقدير، وفي القياس والاستنباط، هو الوسيلة الوحيدة التي تضمن لصاحب الرأي أن يكون رأيه قريبًا من الحقّ، ويكون منهاجه قادرًا بعضَ القدرة علىٰ لقاء هذه الكثرة الجياشة من الاختلاف. فإن منزّل الميزان للناس ليقوموا بالقسط، هو الذي خلق الناس مختلفين، وجعل لهم هذا الميزان بإزاء هذا الاختلاف.

ولم يبق علىٰ الأرض العاقلة تنزيلٌ لا يأتيه الباطلُ من يديه ولا من خلفه، سوىٰ كتاب واحد لا غير، هو كتاب الله تبارك اسمه، ثم بيان هذا الكتاب، وهو سنة رسوله ﷺ. فهما بجميع ما نزل فيهما وما يستنبطُ منهما، غير مؤول عن حقه، ولا مصروف عن وجهه، ولا مضروب بعضه ببعض: أخرجا الذين آمنوا بمحمد ﷺ من الظلمات إلىٰ النور، فجعلهم أمة وسطًا ليكونوا شهداء علىٰ الناس ويكون الرسول عليهم شهيدًا. فلما أطاعوا الله وأطاعوا رسوله، واتبعوا ما أنزل إليهم، وساروا بما استطاعوا مما أوحي إليهم من البينات والكتاب والحكمة، أثنىٰ عليهم ربهم بأفضل ثنائه سبحانه فقال لهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: ١١٠]، ثم نبأهم بعد بما نعتهم به فيما نزل علىٰ موسىٰ ﷺ، وفيما نزل علىٰ عيسىٰ بن مريم ﷺ، من قبل أن يكونوا هم شيئًا مذكورًا، فقال لهم فيما يتلىٰ عليهم: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ

فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الفتح: ٢٩]. صدق الله وكذب القوّالون.

فهؤلاء الذين زكّاهم ربهم وعلّمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، وبشّرهم في أواخر ما نزل علىٰ نبيهم: بآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم، من سائر التابعين ومن تبعهم بإحسان، هم الذين كان بهم تاريخ الإسلام تاريخًا، وبما اتبعوا من آدابه وأخلاقه وسننه، وبما كانوا به بشرًا يتعاشرونَ فيتآلفون ويتنافَرون، وبما أخطئوا وأصابوا، وبما عدلوا وأسرفوا، وبما استغفروا إلىٰ ربهم وتابوا، وبما اجتهدوا فأحسنوا أو اجتهدوا فأساءوا، وبكلّ ما تكون به الحياة الإنسانية حياةً مختلفة الأبدان والوجوه والصور والأعمار، مختلفة الطبائع والغرائز والنوازع، مختلفة الحاجات والدوافع، مختلفة المساخط والمحامد، مختلفة فيما يحبُّ وما يكره مختلفةً فيما يغضبُ ويُرضي، معدَّلة في كل ذلك بضابط لم يوجد مثله في تاريخ البشر: تقوىٰ الله والتوبة إلىٰ رّب العالمين. فقاموا بذلك كله، إذ ألزمهم ربهم كلمة التقوىٰ في السر والعلن، وعادوا إليه من عند زلاتهم توابين مستغفرين بالأسحار، وعاشت هذه الأمة المنفردة في تاريخ الجنس البشريّ، وأنشأت تاريخها برضىٰ الله عن بعض عملها، وغضبه علىٰ بعض، وبعقابه لبعض أهلها ومغفرته لبعضٍ، ولم يجعلهم ربهم أمة معصومةً من خطإ، ولكنهم يخطئون ويتوبون ما انفسحت آجالهم، يومًا بعد يوم، وساعة بعد ساعة، فيرحمهم ربُّهم ويتوب عليهم، ويعاقبهم ببعض ذنوبهم ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ [سورة فاطر: ٤٥].

فمن غير الممكن، وأكادُ أقول إنه المستحيل، أن يطيق إنسانٌ لم يتأدَّبْ بما تـأدبوا بـه

في أنفسهم، وبما صار به تاريخهم تاريخًا فيه مشابه من تواريخ الأمم، ولكنه مختلفٌ عنها كلّ الاختلاف - أن يكون مصيبًا أو مقاربًا للصواب، أو خليقًا بأن يدرك بعض الصواب، إذا هو أرادَ أن يكتب تاريخهم علىٰ النهج الذي نعرفه اليوم من كتابة التاريخ، والذي تُرمىٰ فيه الأحكام جزافًا بلا تقوىٰ ولا ورع، ولا مخافةٍ من ظنّ السوء، ولا هيبة من بهت الناسِ بما ليس فيهم، ولا تأثم من الاجتراء علىٰ غيب لا يعلمه إلّا العليم الخبير. والذي لم يجرّبْ هذه الآداب في سريرة نفسه، غير مستطيع أن يدرك مأتىٰ أعمال هؤلاء الناس، ولا مقاطع أحكامهم، ولا سيرة حكامهم، ولا طبيعة حياتهم، بل هو خليق أن يخلط ما جرىٰ في حياتهم وأيامهم، بما جرىٰ في حياة غيرهم وأيامهم، وأن يحكم علىٰ الذي كان يجري بينهم سهلًا يسيرًا منظورًا إليه بما ينظر به إلىٰ مجرد الاختلاف في الرأي، حكما جازمًا قاطعًا مدمرًا، كأن الله وَكَّلَ إليه الاطلاع علىٰ سرائر خلقه، وفوض إليه أن يقضي فيهم بقضائه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢٩﴾ [سورة آل عمران: ١٢٩].

❋ ❋ ❋

«لا تسبُّوا أصحَابي»(١)
بقلم العلامة/ محمود شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ

حسبُ امرئ مسلم لله أن يبلغه قول رسول الله ﷺ: «لا تسبُّوا أصحابي! لا تسبُّوا أصحابي! فوالذي نفسي بيده لو أنّ أحدكم أنفقَ مثل أُحُد ذهبًا؛ ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نصيفه»(٢)، حتىٰ يخشع لربّ العالمين، ويسمع لنبيّ الله ويطيعُ، فيكفّ غَرْب(٣) لسانه وضراوة فكره عن أصحاب محمد ﷺ، ثم يعلم علمًا لا يشوبه شكٌّ ولا ريبةٌ، أن لا سبيل لأحد من أهل الأرض، ماضيهم وحاضرهم، أن يلحق أقلّ أصحابه درجة، مهما جهد في عبادته، ومهما تورّع في دينه، ومهما أخلص قلبه من خواطر السوء في سرّه وعلانيته. ومن أين يشك وكيف يطمعُ، ورسول الله لا ينطقُ عن هَوَىٰ، ولا يداهنُ في دينٍ، ولا يأمرُ الناس بما يعلم أن الحقّ في خلافه، ولا يحدّث بخبر، ولا ينعتُ أحدًا بصفة، إلا بما علمه ربه وبما نبأه؟ وربه الذي يقول له ولأصحابه: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة الزمر: ٣٣ - ٣٥].

ثم يبين ﷺ عن كتاب ربه، فيقول: «خير الناس قَرْني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»(٤). ثم يزيد الأمر بيانًا ﷺ، فيدل المؤمنين علىٰ المنزلة التي أنزلها الله أصحاب محمد رسول الله، فيقول:

---

(١) المسلمون، العدد الثالث، ١٣٧١ هـ/ ١٩٥٢، ص: ٢٤٦ - ٢٥٥.

(٢) المُدّ: رُبع الصاع، وإنما قدّره به ﷺ؛ لأنه أقلّ ما كانوا يتصدّقون به. والنَّصِيف والنِّصف بمعنىٰ.

(٣) غرب اللسان: حَدُّه.

(٤) رواه البخاري (٣٦٥١).

«يأتي علىٰ الناس زمانٌ، فيغزو فئامٌ من[1] الناس فيقولون: فيكم مَن صاحب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم! فيفتح لهم. ثم يأتي علىٰ الناس زمانٌ فيغزو فئامٌ من الناس فيقال: هل فيكم مَن صاحبَ أصحاب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم! فيفتح لهم. ثم يأتي علىٰ الناس زمانٌ فيغزو فِئَامٌ من الناس فيقال: هل فيكم من صاحبَ من صاحب أصحابَ رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم! فيفتح لهم»[2]. فإذا كان هذا مبلغ صحبة رسول الله، فأي مسلم يطيق بعد هذا أن يبسط لسانه في أحد من صحابة محمد رسول الله؟ وبأي لسان يعتذر يوم يخاصمونه بين يدي ربهم؟ وما يقول وقد قامت عليه الحجة من كتاب الله ومن خبر نبيه؟ وأين يفر امرؤ من عذاب ربه؟

وليس معنىٰ هذا أن أصحاب محمد رسول الله معصومون عصمة الأنبياء، ولا أنهم لم يخطئوا قط ولم يسيئوا، فهم لم يدّعوا هذا، وليس يدّعيه أحدٌ لهم؛ فهم يخطئون ويصيبون، ولكنّ الله فضّلهم بصحبة رسوله، فتأدبوا بما أدَّبهم به، وحرصوا علىٰ أن يأتوا من الحق ما استطاعوا، وذلك حسبهم، وهو الذي أمروا به، وكانوا بعدُ توَّابين أوَّابين كما وصفهم في محكم كتابه. فإذا أخطأ أحدهم، فليس يحِلُّ لهم، ولا لأحد ممن بعدهم، أن يجعل الخطأ ذريعةً إلىٰ سبهم والطعن عليهم. هذا مجمل ما أدبنا به الله ورسوله. بيد أن هذا المجمل أصبح مجهولا مطروحًا عند أكثر من يتصدىٰ لكتابة تاريخ الإسلام من أهل زماننا، فإذا قرأ أحدهم شيئًا فيه مطعنٌ علىٰ رجل من أصحاب رسول الله سارع إلىٰ التوغل في الطعن والسبِّ، بلا تقوىٰ ولا ورع. كلا، بل تراهم ينسوْن كل ما تقضي به الفطرة من التثبت من الأخبار المروية، علىٰ كثرة ما يحيط بها من الريب والشكوك، ومن الأسباب الداعية إلىٰ الكذب في الأخبار، ومن العلل الدافعة

---

(١) الفئام: الجماعة الكثيرة.

(٢) رواه البخاري (٣٦٤٩).

إلىٰ وضع الأحاديث المكذوبة علىٰ هؤلاء الصحابة.

ولن أضرب المثل بما يكتبه المستشرقون ومن لف لفهم؛ فهُمْ كما نعلم. ولا بأهل الزيغ والضلال والضغينة علىٰ أهل الإسلام؛ كصاحب كتاب «الفتنة الكبرىٰ»[1] وأشباهه من المؤلفين. بل سآتيك بالمثل من كلام بعض المتحمسين[2] لدين ربهم، المعلنين بالذبّ عنه والجهاد في سبيله؛ لتعلم أن أخلاق المسلم هي الأصل في تفكيره وفي مناهجه وفي علمه، وأن سمة الحضارة الوثنية الأوربية تنفجر أحيانًا في قلب من لم يحذر ولم يتق، بكل ضغائن القرن العشرين وبأسوأ سخائم هذه الحضارة المتعدية لحدود الله التي كتب علىٰ عباده - مسلمهم وكافرهم - أن لا يتعداها.

أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ: هم أبو سفيان بن حرب، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وهند بنت عتبة بن ربيعة، أم معاوية ﷺ، كيف يتكلم أحد الناس عنهم.

١ - «فلما جاء معاوية، وصيَّر الخلافة الإسلامية مُلكًا عضوضًا في بني أميّة، لم يكن ذلك من وحي الإسلام، إنما كان من وَحْي الجاهلية».

ولم يكتفِ بهذا، بل شمل بني أمية جميعًا فقال: «فأمية بصفة عامة لم يَعْمر الإيمان قلوبَها، وما كان الإسلام لها إلا رداء تخلعه وتلبَسُه حسب المصالح والملابسات».

٢- ثم يذكر يزيد بن معاوية بأسوأ الذكر، ثم يقول: «وهذا هو «الخليفة» الذي يفرضه معاوية علىٰ الناس، مدفوعًا إلىٰ ذلك بدافع لا يعرفه الإسلام؛ دافع العصبية العائلية القبلية، وما هي بكثيرة علىٰ معاوية ولا بغريبة عليه؛ فمعاوية هو ابن أبي سفيان، وابن هند بنت عتبة، وهو وريث قومه جميعًا وأشبه شيء بهم في بُعد روحه عن

---

(١) يقصد: طه حسين.

(٢) يعني: سيد قطب في كتابه العدالة الاجتماعية.

حقيقة الإسلام، فلا يأخذ أحدٌ الإسلام بمعاوية أو بني أمية، فهو منه ومنهم بريء».

٣- «ولسنا ننكر علىٰ معاوية في سياسة الحكم ابتداعه نظام الوراثة وقهر الناس عليها فحسب، إنما ننكر عليه أولًا وقبل كل شيء إقصاءه العنصر الأخلاقي في صراعه مع علي، وفي سيرته في الحكم بعد ذلك، إقصاءً كاملًا لأول مرة في تاريخ الإسلام... فكانت جريمة معاوية الأولىٰ التي حطمت روح الإسلام في أوائل عهده هي نفي العنصر الأخلاقي من سياسته نفيًا باتًّا. ومما ضاعف الجريمة أن هذه الكارثة باكرت الإسلام ولم تنقض إلا ثلاثون سنة علىٰ سُننه الرفيعة... ولكي ندرك عمق هذه الحقيقة يجب أن نستعرض صورًا من سياسة الحكم في العهود المختلفة علىٰ أيدي أبي بكر وعمر، وعلىٰ أيدي عثمان ومروان... ثم علىٰ أيدي الملوك من أمية... ومن بعدهم من بني العباس، بعد أن خُنقت روح الإسلام خنقًا علىٰ أيدي معاوية وبني أبيه».

٤- «ومضىٰ علي إلىٰ رحمة ربه، وجاء معاوية ابن هند وابن أبي سفيان!» (وأنا أستغفر الله من نقل هذا الكلام، بمثل هذه العبارة النابية، فإنه أبشع ما رأيته!)، ثم يقول: «فلئن كان إيمان عثمان وورعه ورقته، كانت تقف حاجزًا أمام أمية... لقد انهار هذا الحاجز، وانساح ذلك السد، وارتدّت أمية طليقة حرة إلىٰ وراثاتها في الجاهلية والإسلام. وجاء معاوية، تعاونه العصبة التي علىٰ شاكلته، وعلىٰ رأسها عمرو بن العاص. قوم تجمعهم المطامع والمآرب، وتدفعهم المطامح والرغائب، ولا يمسكهم خلق ولا دين ولا ضمير» (وأنا أستغفر الله وأبرأ إليه). ثم قال: «ولا حاجة بنا للحديث عن معاوية؛ فنحن لا نؤرخ له هنا، وبحسبنا تصرفه في توريث يزيد الملك؛ لنعلم أي رجل هو. ثم بحسبنا سيرة يزيد، لنقدّر أية جريمة كانت تعيش في أسلاخ أمية علىٰ الإسلام والمسلمين».

٥- ثم ينقل خطبة يزعم أنها لمعاوية في أهل الكوفة بعد الصلح، يجيء فيها قول

معاوية: «وكل شرط شرطته، فتحت قدميّ هاتين»، ثم يعقب عليه مستدركًا: «والله تعالىٰ يقول: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء: ٣٤]، والله يقول ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢] فيؤثر الوفاء بالميثاق للمشركين المعاهدين، علىٰ نصرة المسلمين لإخوانهم في الدين. أما معاوية فيخيس بعهده للمسلمين، ويجهر بهذه الكبيرة جهرة المتبجحين! .. إنه من أمية، التي أبت نحيزتها أن تدخل في حلف الفضول!».

٦- ثم يذكر خطبة أخرىٰ لمعاوية في أهل المدينة: «أما بعد، فإني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم»، ثم يعلق عليها فيقول: «أجل ما وليها بمحبة منهم، وإنه ليعلم أن الخلافة بيعة الرضا في دين الإسلام. ولكن ما لمعاوية وهذا الإسلام. وهو ابن هند وابن أبي سفيان!».

٧- «وأما معاوية بعد عليّ، فقد سار في سياسة المال سيرته التي ينتفي منها العنصر الأخلاقيّ، فجعله للرُّشىٰ واللهىٰ وشراء الذمم في البيعة ليزيد، وما أشبه هذه الأغراض، بجانب مطالب الدولة والأجناد والفتوح بطبيعة الحال».

٨- ثم قال شاملًا لبني أمية: «هذا هو الإسلام علىٰ الرغم مما اعترض خطواته العملية الأولىٰ، من غلبة أسرة لم تعمرْ روح الإسلام نفوسها، فآمنت علىٰ حرف حين غَلَب الإسلام، وظلّت تحلم بالملك الموروث العضوض حتىٰ نالته، فسارت بالأمر سيرة لا يعرفها الإسلام».

هذا ما جاء في ذكر معاوية، وما أضفىٰ الكاتب من ذيوله علىٰ بني أمية، وعلىٰ عمرو بن العاص.

وأما ما جاء عن أبي سفيان بن حرب، فانظر ماذا يقول:

٩- «أبو سفيان هو ذلك الرجل الذي لقي الإسلام منه والمسلمون ما حفلت به

صفحات التاريخ، والذي لم يسلم إلا وقد تقررت غلبة الإسلام. فهو إسلام الشفة واللسان، ولا إيمان القلب والوجدان. وما نفذ الإسلام إلىٰ قلب ذلك الرجل قطّ، فلقد ظلّ يتمنىٰ هزيمة المسلمين ويستبشر لها في يوم حنين، وفي قتال المسلمين والروم فيما بعد، بينما يتظاهر بالإسلام. ولقد ظلت العصبية الجاهلية تسيطر علىٰ فؤاده... وقد كان أبو سفيان يحقد علىٰ الإسلام والمسلمين، فما تعرض فرصة للفتنة إلا انتهزها...».

١٠ - «ولقد كان أبو سفيان يحلم بملك وراثي في بني أمية منذ تولىٰ الخلافة عثمان؛ فهو يقول: «يا بني أمية... تلقفوها تلقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم، ولتصيرنَّ إلىٰ صبيانكم وراثة!». وما كان يتصوَّر حكم المسلمين إلا ملكًا حتىٰ في أيام محمد، (وأظن أنا أنه من الأدب أن أقول: ﷺ)، فقد وقف ينظر إلىٰ جيوش الإسلام يوم فتح مكة، ويقول للعباس بن عبدالمطلب: «والله ياأبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيمًا»، فلما قال له العباس: إنها النبوّة! قال: نعم إذن! ...

«نعم إذن! وإنها لكلمة يسمعها بأذنه فلا يفقهها قلبه، فما كان مثل هذا القلب ليفقه إلا معنىٰ الملك والسلطان».

ثم يقول عن هند بنت عتبة أم معاوية:

١١ - «ذلك أبو معاوية، فأما أمه هند بنت عتبة، فهي تلك التي وقفت يوم أحد، تلغ في الدم إذ تنهش كبد حمزة كاللبؤة المتوحشة، لا يشفع لها في هذه الفعلة الشنيعة حق الثأر علىٰ حمزة، فقد كان قد مات. وهي التي وقفت بعد إسلام زوجها كرهًا بعد إذ تقررت غلبة الإسلام، تصيح: «اقتلوا الخبيث الدنس الذي لا خيرَ فيه. قُبّح من طليعة قوم! هلا قاتلتم ودفعتم عن أنفسكم وبلادكم؟».

هؤلاء أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ، يذكرهم كاتب مسلم، بمثل هذه العبارات الغريبة النابية! بل زاد، فلم يعصم كثرة بني أمية من قلمه، فطرح عليهم كلّ

ما استطاع من صفات تجعلهم جملة واحدة، برآء من دين الله؛ ينافقون في إسلامهم، وينفون من حياتهم كل عنصر أخلاقي! كما سماه. وأنا لن أناقش الآن هذا المنهج التاريخي، فإن كلّ مدّعٍ يستطيع أن يقول: هذا منهجي، وهذه دراستي. بل غاية ما أنا فاعل أن أنظر كيف كان أهل هذا الدين، ينظرون إلىٰ هؤلاء الأربعة بأعيانهم، وكيف كانوا - هؤلاء الأربعة - عند من عاصرهم ومن جاء بعدهم من أئمة المسلمين وعلمائهم. وأيضًا فإني لن أحقق في هذه الكلمة فساد ما بُني عليه الحكم التاريخيّ العجيبُ، الذي استحدثه لنا هذا الكاتب، بل أدعه إلىٰ حينه.

فمعاوية بن أبي سفيان ﵄، أسلم عام القضية؛ ولقي رسول الله ﷺ مسلمًا؛ وكتم إسلامه من أبيه وأمه. ولما جاءت الردة الكبرىٰ؛ خرج معاوية في هذه القلة المؤمنة التي قاتلت المرتدّين؛ فلما استقر أمرُ الإسلام وسير أبو بكر الجيوش إلىٰ الشام سار معاوية مع أخيه يزيد بن أبي سفيان ﵄. فلما مات يزيد في زمن عمر بن الخطاب ﵁، قال لأبي سفيان: أحسن الله عزاءك في يزيد. فقال أبو سفيان: من ولّيت مكانه؟ قال: أخاه معاوية. قال: وصلتك رحم يا أمير المؤمنين. وبقىٰ معاوية واليًا لعمر علىٰ عمل دمشق. ثم ولاه عثمان الشام كلها؛ حتىٰ جاءت فتنة مقتل عثمان؛ فولي معاوية دم عثمان لقرابته؛ ثم كان بينه وبين علي ما كان.

ويروي البخاري (٥: ٢٨) أن معاوية أوتر بعد العشاء بركعة وعنده مولىٰ لابن عباس، فأتىٰ ابن عباس، فقال: دعه؛ فإنه صحب رسول الله ﷺ. وقال في خبر آخر: هل لك في أمير المؤمنين معاوية؛ فإنه أوتر بواحدة؟ فقال ابن عباس: إنه فقيه. وروي أحمد في «مسنده» (٤: ١٠٢) عن مجاهد وعطاء، عن ابن عباس أن معاوية أخبره أن رسول الله ﷺ قصر شعره بمشقص[1]. فقلت لابن عباس: ما بلغنا هذا الأمر إلا عن

---

(١) المشقص: نصل طويل عريض (المقص).

معاوية! فقال: ما كان معاوية علىٰ رسول الله ﷺ متهمًا. وعن أبي الدرداء: ما رأيت أحدًا بعد رسول الله ﷺ أشبه صلاة برسول الله ﷺ من أميركم هذا، يعني معاوية «مجمع الزوائد» (٩: ٣٥٧). وروىٰ أحمد في «مسنده» (٤: ١٠١) عن أبي أمية عمرو بن يحيي بن سعيد، عن جده أن معاوية أخذ الإداوة[1] بعد أبي هريرة يتبع رسول الله ﷺ بها، واشتكىٰ أبو هريرة، فبينا هو يوضئ رسول الله ﷺ رفع رأسه إليه مرة أو مرتين فقال: «يا معاوية؛ إن وليت أمرًا فاتق الله ﷻ واعدل». قال معاوية: فما زلت أظن أني مبتلىٰ بعمل لقول النبي ﷺ، حتىٰ ابتُليتُ. وروىٰ أحمد في «مسنده» (٤: ١٢٧) عن العرباض بن سارية السلمي قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يدعونا إلىٰ السحور في شهر رمضان: «هلموا إلىٰ الغداء المبارك!»، ثم سمعته يقول: «اللهمّ علم معاوية الكتاب والحساب وقِه العذاب». وروىٰ أحمد في «مسنده» (٤: ٢١٦) عن عبد الرحمن بن أبي عميرة، عن النبي ﷺ أنه ذكر معاوية فقال: «اللهم اجعله هاديًا مهديًّا واهد به».

هذا بعض ما قيل في معاوية ﷺ، وفي دينه وإسلامه. فإن كان هذا الكاتب قد عرف واستيقن أن الروايات المتلقّفة من أطراف الكتب تنقض هذا نقضًا حتىٰ يقول: إنّ الإسلام بريء منه، فهو وما عرف!

وإن كان يعلم أنه أحسنُ نظرًا ومعرفة بقريش من أبي بكر حين ولّىٰ يزيد بن أبي سفيان، وهو من بني أمية، وأنفذ بصرًا من عُمرَ حين ولّىٰ معاوية، فهو وما علم!

وإن كان يعلم أنّ معاوية لم يُقاتل في حروب الردّة، إلّا وهو يضمر النفاق والغدر، فله ما علم!

وإن كان يرىٰ ما هو أعظمُ من ذلك؛ أنه أعرف بصحابة رسول الله ﷺ من رسول الله الذي كان يأتيه الخبر من السماء بأسماء المنافقين بأعيانهم، فذلك ما أعيذه مِنهُ

(١) الإداوة: إناء من جلد صغير كالقربة.

أن يعتقده أو يقوله.

ولكن لينظر فرق ما بين كلامه وكلام أصحاب رسول الله عن رجل آخر من أصحابه، ثم ليقطع لنَفسه ما شاء من رحمة الله أو من عذابه.

ولينظر أيهما أقوىٰ برهانًا في الرواية هذا الذي حدثنا به أئمة ديننا، أم ما انضمَّت عليه دفَّتا كتاب من عُرْض كتب التاريخ، كما يزعمون.

ولينظر لنفسه حتىٰ يرجّح رواية علىٰ رواية، وحديثًا علىٰ حديث، وخبرًا علىٰ خبر، وليعلم أن الله تعالىٰ أدّب المسلمين أدبًا لم يزالوا عليه منذ كانت لدين الله الغلبة، حتىٰ ضرب الله علىٰ أهل الإسلام الذّلة بمعاصيهم وخروجهم عن حدّ دينهم، واتباعهم الأمم في أخلاقها، وفي فكرها، وفي تصوّرها للحياة الإنسانية. يقول ربُّنا سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾ [الحجرات: ٦] ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ [الحجرات: ١٢]، ويقول: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ۝٣٦﴾ [الإسراء: ٣٦].

ولينظر أنّىٰ له أن يعرف أن معاوية كان يعمل «بوحي الجاهلية لا الإسلام»، وأنه بعيد الروح عن حقيقة الإسلام، وأن الإسلام لم يَعمُر قلبه، وأنه خنق روح الإسلام هو وبنو أبيه، وأنه هو وعمرو بن العاص ومن علىٰ شاكلتهم لا يمسكهم خُلق ولا دين ولا ضمير، وأن في أسلاخ معاوية وبني أمية جريمة أي جريمة علىٰ الإسلام والمسلمين، وأنه يخيس بالعَهد ويجهر بالكبيرة جهرة المتبجحين، وأنه ما لمعاوية وهذا الإسلام؟ وأنه ينفي العنصر الأخلاقي من سيرته ويجعل مال الله للرشىٰ واللهىٰ وشراء الذمم، وأنه هو وبنو أمية آمنوا علىٰ حرف حين غَلب الإسلام.

أما أبو سفيان ﷺ، فقد أسلم ليلة الفتح، وأعطاه رسول الله من غنائم حنين كما أعطىٰ سائر المؤلفة قلوبهم فقال له: والله إنك لكريم، فداك أبي وأمي، والله لقد حاربتك،

فلنعم المحارب كنت، ولقد سالمتك، فنعم المسالم أنت، جزاك الله خيرًا. ثم شهد الطائف مع رسول الله، وفقئت عينه في القتال، ولاّه رسول الله ﷺ نجران، ورسول الله لا يولي منافقًا علىٰ المسلمين، وشهد اليرموك، وكان هو الذي يحرض الناس ويحثهم علىٰ القتال. وقد ذكر الكاتب فيما استدلّ به علىٰ إبطان أبي سفيان النفاق والكفر أنه كان يستبشر بهزيمة المسلمين في يوم حنين، وفي قتال المسلمين والروم فيما بعد، وهذا باطل مكذوب. وسأذكر بعدُ تفصيل ذلك.

أما قول أبي سفيان للعباس: لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيمًا! فقال العباس: إنها النبوة. فقال أبو سفيان: فنعم إذن. فهذا خبر طويل في فتح مكة، قبل إسلامه، وكانت هذه الكلمة «نعم إذن» أول إيذان باستجابته لداعي الله، فأسلم رضي الله عنه، وليست كما أولها الكاتب: «نعم إذن. وإنها كلمة يسمعها بأذنه فلا يفقهها قلبه، فما كان مثل هذا القلب ليفقه إلا معنىٰ الملك والسلطان»، إلّا أن يكون الله كشف له ما لم يكشف للعباس ولا لأبي بكر ولا لعمر، ولا لأصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار. وأعوذ بالله من أن أقول: ما لم يكشف لرسول الله ونبيه ﷺ.

وعن ابن عباس، أن أبا سفيان قال: يا رسول الله، ثلاثًا أعطنيهنّ. قال: «نعم»، قال: تؤمرني حتىٰ أقاتل الكافر كما قاتلتُ المسلمين. قال: «نعم». قال: ومعاوية تجعلُه كاتبًا بين يديك. قال: «نعم». وذكر الثالثة، وهو أنه أراد أن يزوّج رسول الله ﷺ بابنته الأخرىٰ عزّة بنت أبي سفيان، واستعان علىٰ ذلك بأختها أم حبيبة، فقال: «إن ذلك لا يحلُّ لي»[1].

وأما هند بنت عتبة أم معاوية رضي الله عنها، فقد روي عن عبد الله بن الزبير (ابن سعد ٨: ١٧١)[2] قال: لما كانَ يوم الفتح أسلمت هند بنت عتبة ونساء معها، وأتين رسول الله

---

(١) رواه مسلم: ولفظه «يا نبي الله، ثلاث أعطنيهن، قال...

(٢) طبعة دار صادر (١٣٧٧هـ).

وهو بالأبطح فبايعنه، فتكلمت هند فقالت: يا رسول الله، الحمد لله الذي أظهر الدين الذي اختاره لنفسه. لتنفعني رحمُك يامحمد! إني امرأةٌ مؤمنة بالله، مصدقةٌ برسوله. ثم كشفت عن نقابها وقالت: أنا هند بنت عتبة. فقال رسول الله: «مرحبًا بك». فقالت: والله ما كان علىٰ الأرض أهل خباء أحبّ إليّ من أن يذلُّوا من خبائك، ولقد أصبحتُ وما علىٰ الأرض أهل خباء أحبّ إليّ من أن يعزّوا من خبائك. فقال رسول الله: «وزيادة». قال محمد بن عمر الواقدي: لما أسلمتْ هندُ جعلتْ تضربُ صَنمًا في بيتها بالقدوم حتىٰ فلّذته فلذة فلذة وهي تقول: كنّا منك في غرور. وروىٰ البخاري هذا الخبر عن أم المؤمنين عائشة (٥: ٤٠).

فهل يعلم عالمٌ أن إسلام أبي سفيان وهند كان نفاقًا وكذبًا وضغينة؟

لا أدري، ولكن أئمتنا من أهل هذا الدين لم يطعنوا فيهم، وارتضاهم رسول الله ﷺ وارتضىٰ إسلامهم. وأمّا ما كان من شأن الجاهلية، فقلّ رجُلٌ أو امرأةٌ من المسلمين لم يكنْ له في جاهليته مثل ما فعل أبو سفيان، أو شبيهٌ بما يروىٰ عن هندٍ إن صحَّ.

وأما عمرو بن العاص، فقد أسلم عام خيبر، قدم مهاجرًا إلىٰ الله ورسوله، ثم أمّره رسول الله ﷺ علىٰ سرية إلىٰ ذات السلاسل يدعو بليًّا إلىٰ الإسلام، ثم استعمله رسول الله علىٰ عمان، فلم يزل واليًا عليها إلىٰ أن توفي رسول الله ﷺ، ثم أقره عليها أبو بكر رضي الله عنه، ثم استعمله عمر. وروىٰ الإمامُ أحمد في «مسنده» (٢: ٣٢٧، ٣٥٣، ٣٥٤) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ابنا العاص مؤمنان»، يعني هشامًا وعمرًا. وروىٰ الترمذي وأحمد في «مسنده» (٤: ١٥٥) عن عقبة بن عامر الجهني: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص». وروىٰ أحمد في «مسنده» (١: ١٦١) عن طلحة بن عبيد الله قال: ألا أخبركم عن رسول الله بشيء؟ ألا إني سمعته يقول: «عمرو بن العاص من صالحي قريش، ونعم أهل البيت أبو

عبد الله، وأم عبد الله، وعبد الله».

فإذا كان جهاد عمرو، وشهادة أصحاب رسول الله ﷺ، وتولية رسول الله ثم أبي بكر ثم عمر، لا تدل علىٰ شيء من فضل عمرو بن العاص، ولا تدل علىٰ نفي النفاق في دين الله عنه، فلا ندري بعدُ ما الذي ينفع عمرًا في دنياه وآخرته؟! ولست أتصدىٰ هنا لتزييف ما كتبه الكاتب من جهة التاريخ، ولا من جهة المنهاج، ولكني أردت - كما قلت - أن أبين أن الأصل في ديننا هو تقوىٰ الله وتصديق خبر رسول الله وأن أصحاب محمد ﷺ ليسوا لعانين ولا طعانين ولا أهل إفحاش، ولا أصحاب جرأة وتهجم علىٰ غيب الضمائر، وأن هذا الذي كانوا عليه أصل لا يمكن الخروج منه، لا بحجة التاريخ، ولا بحجة النظر في أعمال السابقين للعبرة واتقاء ما وقعوا فيه من الخطإ.

ولو صح كل ما يذكر مما اعتمد عليه الكاتب في تمييز صفات هؤلاء الأربعة، وصفة بني أمية عامة، لكان طريق أهل الإسلام أن يحملوه علىٰ الخطإ في الاجتهاد من الصحابي المخطئ، ولا يدفعهم داء العصر أن يوغلوا من أجل خبر أو خبرين في نفي الدين والخلق والضمير عن قوم هم لقرب زمانهم وصحبتهم لرسول الله ﷺ، أولىٰ أهل الإسلام بأن يعرفوا حق الله وحق رسوله، وأن يعلموا من دين الله ما لم يعلمه مجترئ عليهم طعان فيهم.

وأختم كلمتي هذه بقول النووي في «شرح مسلم» (١٦: ٩٣): «اعلم أن سبَّ الصحابة رضي الله عنهم حرام من فواحش المحرمات، سواء مَن لابَسَ الفتن منهم وغيره؛ لأنهم مجتهدون في تلك الحروب متأولون. وقال القاضي: سب أحدهم من المعاصي الكبائر. ومذهبنا ومذهب الجمهور أن يعزر ولا يقتل. وقال بعض المالكية: يقتل».

وأسدي النصيحة لمن كتب هذا وشبهه أن يبرأ إلىٰ الله علانية مما كتب، وأن يتوب توبة المؤمنين مما فرط منه، وأن ينزه لسانه، ويعصم نفسه، ويطهر قلبه، وأن يدعو بدعاء

أهل الإيمان ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الحشر: ١٠].

من أجل هذا أقول: إن خلق الإسلام، هو أصل كل منهاج في العلم والفهم، سواء كان العلم تاريخًا أو أدبًا أو اجتماعًا أو سياسة. وإلا فنحن صائرون إلىٰ الخروج عن هذا الدين، وصائرون إلىٰ تهديم ما بناه أصحاب رسول الله ﷺ، وإلىٰ جعل تاريخ الإسلام حشدًا من الأكاذيب الملفقة، والأهواء المتناقضة، والعبث بكل شيء شريف ورثتنا إياه رحمة الله لهم، وفتح الله عليهم، ورضاه عن أعمالهم الصالحة، ومغفرته لهم ما أساءوا، رضي الله عنهم، وغفر لهم، وأثابهم بما جاهدوا وصبروا، وعلموا وعلّموا. وأستغفر الله وأتوب إليه.

❁❁❁

ألسنةُ المفترين(١)

بقلم العلامة/ محمود شاكر رحمه الله

مِمَّا يُسْتخرَج به الضَّحِك أن يحدّثك المحدّث أو الكاتب بشيءٍ سخيفٍ لا يُعْقَل، وهو يُبْدي لكَ الجدّ كل الجدّ فيما يحدِّثُ أو يكتب. ولكنه عندئذٍ لا يريدُ إلّا إضحاكك. فإذا جاءَ امرؤ يفعَل ذَلك وهو لا يريدُ إلا الجدّ؛ لأنّه قد بَنَىٰ حديثَه عليه عند نفسه وعند سامعه أو قارئه، فهذا هو المضحك المحزنُ معًا. ولكن من العجيب أن يَكون هذا السَّمْتُ الأخيرُ، هو سمْت أكثر الذين يكتبون اليوم في تاريخ الإسلام. ومن البلْوىٰ أن يأتي هذا في زمنٍ أصبحنا فيه وأصبح الناس، وكلّ حرف مكتوبٍ يُعدُّ عندهم كأنه تنزيلٌ يتلقوْنه بالثقة والتسليم، لا يكادُ امرؤ مِنهم ينظر في مأتاهُ من أين أتىٰ، ولا في منتهاهُ إلىٰ أين ينتهي. فإذا اجتمع إلىٰ هذه البلوىٰ بلْوىٰ الهوىٰ المخلوط بالغلوِّ؛ خرجَ الأمرُ كله من الضَّحِك والحزنِ، إلىٰ الهلاكِ المطبق الذي يغتال العقول والنفوس جميعًا.

يرىٰ الكاتب ذو الهوىٰ خبرًا أو أخبارًا، فلا يدفعه هواهُ إلا إلىٰ أخذ أقربها موافقة لهواه، ويمنعُه الهوىٰ من التمييز، ويحمله التعبُّد للحرف المكتوب أن يغمِض كلَّ بصيرةٍ عن مواضع الدَّخل والغشّ والزَّيْف فيما كُتِب، وتشتدُّ البلوىٰ حين ينتصب لهذا التزوير المدمِّر رجالٌ يلبسون للناس ثيابَ الغيرة علىٰ دين ربهم، والحمية لماضي أمتهم، والجهادِ في سبيل إعزاز هذا الدين بأنفسهم وألسنتهم. وتجتمع عليهم وعلىٰ الناس صواعق الهلاك، حين يخدع عامة الناس أمرُهم، فيلتقوْن عنهم معاني وأحكامًا وأخبارًا، وما شئتَ من حصائد الألسنة، علىٰ غير هُدًىٰ ولا بيِّنةٍ. فيوشك أمر الناسِ أن ينتهي إلىٰ الردَّةِ الماحقة، والكفر المستعلِن. كما مضىٰ مثل الأوَّلين، الذين اتخذوا أحبارهم

(١) المسلمون، العدد الرابع، ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢، ص: ٣٥١- ٣٥٩.

ورهبانهم أربابًا من دون الله، حين استنصحوا الأحبار والرهبان، فأطاعوهم علىٰ غير هدًىٰ ولا بينة ولا كتاب منير.

وقبل أن أفضي إلىٰ الأمثلة التي تبين عن الفساد والضلال، أحبُّ أن يعلم من لم يكن يعلم، أن أسلافنا رحمهم الله وغفر لهم، منذ ألفوا كتبهم، وضعوا لها قواعد يعرفها أهل هذا العلم، ويجهلها من جنح عن أصولهم وعمي عليه طريقهم. فهم منذ بدأوا يكتبون أسسوا كتبهم علىٰ إسناد الأخبار إلىٰ رواتها، وبَرِئوا من عهدة الرواية بهذا الإسناد، ولم يبالوا بعد ذلك أن يكون الخبرُ صحيحًا أو ضعيفًا أو زائدًا أو ناقصًا أو موضوعًا مكذوبًا؛ لأنهم كانوا يعلمون حال الرُّواة ومنازلهم من الصدق والكذب، ومن الورَع والاستخفاف، ومن الأمانة والهوىٰ. وكأنهم أرادوا بهذا أن يجعلوا كتبهم في التاريخ وغير التاريخ سجلًّا لما قد قيل في زَمانهم وما قبل زمانهم، وما كان يقوله قومٌ، وما كان يقوله آخرون، مهما تعارض القولان أو اختلفا أو تناقضا. وتركوا للعلماء تمييز الحق من الباطل، والصدق من الكذب، علىٰ أساسهم المشهور، وهو معرفة الرجال الذين رووا هذه الأخبار أو تكذّبوها. هذا الطبري مثلًا (توفي سنة ٣١٠) يقول في فاتحة كتابه في التاريخ: «فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناهُ عن بعض الماضين، مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهًا صحيحًا، ولا معنًىٰ في الحقيقة، فليعلم أنه لم يُؤت في ذلك من قِبَلنا، وإنما أُتي من بعض ناقليه إلينا، وإنما أدينا لذلك علىٰ نحو ما أُدِّي إلينا». ومن عرف كتابه وكتب القوم؛ علم يقينًا صدق ما يقول، فإنه يأتي بالخبر لا يصحُّ أبدًا، وبالخبر الصحيح الذي لا شك فيه، ولا يعرض لهما بتصديق أو تكذيب، ثم تراه في موضع آخر قد احتاج إلىٰ البيان عن حال هذين الخبرين، فعندئذ يميز لك ما هو صحيح عنده وما هو باطلٌ من هذين الخبرين. فهو كما قال، إنما يؤدّي إلىٰ الناس ما أُدّي إليه. وكان الناسُ علىٰ عهدهم أهل دين وتقوىٰ، لا يستحل امرؤ

منهم - إلا من ضلَّ - أن يحتج في دين الله، ولا في تاريخ الناس والحكم عليهم، بخبر لا يدري أصدق قائله فيما روىٰ أم كذب. ثم جاء من بعدهم قوم خلطوا عامة الأخبار بلا إسناد إلىٰ رواتها، فاجتمع الغث والسمين، والصحيح والسقيم، والصادق والمكذوب. ولكن لم يزل دين الناس يعصمهم من شر هذا الخلط المضل، فأمسكوا ألسنتهم عن الخوض في المطاعن والمثالب بلا بينة ولا حجة. فلما جاء زماننا هذا، بَشِع الأمر وقبُح؛ فإن الناس قد هجروا أدب دينهم، ومروءة أسلافهم، وعلم كتبهم، واقتحموا بالجهالة علىٰ الظنون المردية، واستخفهم الهوىٰ حتىٰ أخذوا الباطل وعارضوا به الحق بلا تمحيص ولا روية ولا فهم، وشابهوا زمن هذه الحضارة الغالبة عليهم؛ فاجترؤوا وتهوروا واستغلظوا معاني وألفاظًا يتقاذفونها في ألسنتهم وكُتبهم، وقد نفىٰ الشيطان من قلوبهم كلّ معاني الوَرَع ومخافة العذاب يوم القيامة، حتىٰ قذفوا بالغيب من مكانٍ بعيدٍ، واجترأوا علىٰ أصحاب رسول الله ﷺ بأوهامهم وأهوائهم، فأفحشوا القالة فيهم وفيمن تبعهم، بلا معرفة ولا تخوّفٍ، وربُّ العالمين ينذرهم فيما يتلون من كتابه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٥٨].

أفتراهم يحسبون أنَّ الله حرَّم عليهم أعراض عبادِه الأحياءِ، وأباحَ لهم أعراض عباده الموتَىٰ، بعد أن أفضوا إلىٰ ربهم بأعمالهم وغيبهم وما قدَّموا من حسنات وسيئات؟! ألا فليعلموا أن الميت أولىٰ بأن تكفَّ عنه ألسنة المفترين مِنَ الحيّ؛ فإنه لا يدفع عن نفسه، وليتقوا عذاب ربهم؛ فإنّ الذي لا يملك أن يدفع عن نفسه، يدفع عنه ربُّ العالمين الذي أحصىٰ كل شيء خلَقه ثم يحكم بينهم بالعدل وهو العليم القدير.

وأعود إلىٰ هذا الكاتب الذي طرح لسانه في معاوية بن أبي سفيان وأبيه وأمه، وفي عمرو بن العاص، وفي عامة بني أمية، ووصفهم وصفًا آذاهم بغير ما اكتسبوا. وأنا لن

أجادله في صواب ما يدَّعي أو خطئه، ولن أتعرض لتزييف أحكامه وأحكام أشباهه من الطاعنين بألسنتهم في أعراض المؤمنين حتىٰ يخرجوهم من الدين، وينسبوهم إلىٰ التغيير والتبديل. بل أريد أن أعرض علىٰ الناس بعض ما يروي حتىٰ أعرف لم ترك خبرًا وأخذ آخر؟ ولم صدق رواية وأعرض عن أخرىٰ؟ ولم وضع قاعدة في أمر ثم أغفلها في مثله؟

كان مما جعله من سيئات معاوية ﷺ في سياسة الحكم توليته يزيد بن معاوية، فروىٰ أن يزيد «كان فتىٰ شراب ولهو يبلغ فيه إلىٰ حدِّ التفاهة، فيعنىٰ بتدليل القرود وتربيتها، أكثر مما يعنىٰ بسياسة الحكم ومصالح الرعية... إلىٰ نزق وطيش وفتون». ومن المفيد أن أنقل مع هذا أيضا قول قائل آخر في صفة يزيد: «ويزيد هذا شاب خليع لا يصلح أن يلي أمر مدرسة ابتدائية، بله أن يقف علىٰ منبر الرسول، ويحل مكان أبي بكر وصحبه».

وما كنت أظن قط أن عاقلًا يرتضي لنفسه مثل هذا الزلل، فإن معاوية عند هؤلاء إنما دبر الأمر تدبيرًا هو وعمرو بن العاص وأشباههما (كما يقول)، حتىٰ يأخذ الخلافة فيجعلها ملكًا عضوضًا لبني أمية أو بني عبد شمس. فالذي يفعل ذلك، ويستخلص الملك لنفسه وأهله من جمهور أصحاب رسول الله ﷺ، ليقيم عرش بني أمية علىٰ أكبر رقعة من الأرض متباعدة الأطراف، لا يفعل ذلك إلا وهو يريد المحافظة علىٰ هذا العرش وحياطته وتدبيره حتىٰ يصبح ملكًا متوارثًا فيما يزعمون. هذا صريح العقل فيما أظن. فهب أن معاوية ﷺ كان فاسد الدين مبدلًا مغيرًا مفتاتًا علىٰ أهل الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، أفكان أيضًا فاسد العقل والتدبير؟ ولو كان فاسد العقل والتدبير، فكيف استطاع أن يصل إلىٰ حكم أهل الشام عشرين عامًا في ولايته وعشرين أخرىٰ في خلافته؟ وأي فساد في عقل إنسان يجاهد بسوء نيته عشرين عامًا لإقامة ملك عضوض، ثم يورث هذا الملك شابًا يصفه واصف بأنه فتىٰ لهو وشراب يبلغ إلىٰ حد

التفاهة، يعنىٰ بتربية القرود وتدليلها أكثر مما يعنىٰ بسياسة الحكم ومصالح الرعية، إلىٰ نزق وطيش! ! ويصفه آخر مثله بأنه شاب خليع لا يصلح أن يلي مدرسة ابتدائية بله أن يقف علىٰ منبر الرسول ﷺ، ويحل محل أبي بكر وصحبه ﷺ! ! أليس هذا عجبًا عاجبًا؟ ولكن لا عجب في زماننا مع الأسف! ولا عجب مع اللجاجة والهوىٰ وافتراء الألسنة وتهور الأقلام! ومن العبث عندي أن يجادل المرء أمثال هؤلاء. وسأتناول الآن كتابًا للبلاذُرِي (توفي في نحو سنة ٢٨٠)، ويقول عنه مؤرخوه إنه كان «عالمًا فاضلًا شاعرًا راوية نسابة متقنًا، وكان مع ذلك كثير الهجاء بذيء اللسان أخِذ الأعراض». فإذا البلاذري هذا الذي وصفوه بما وصفوه، يروي في أول ترجمته ليزيد بن معاوية عن رواة وصفهم علماء الرجال بأنهم من الكذابين والوضاعين ومن المتشيعين الغلاة فيقول:

«كان يزيد بن معاوية أول من أظهر شرب الشراب، والاستهتار بالغناء والصيد، واتخاذ القيان والغلمان، والتفكه بما يضحك منه المترفون، من القرود والمعاقرة بالكلاب والديكة. ثم جرىٰ علىٰ يده قتل الحسين وقتل أهل الحرة، ورمي البيت وإحراقه. وكان مع هذا صحيح العقدة فيما يُروىٰ، ماضي العزيمة، لا يهم بشيء إلا ركبه»، ثم ذكر أخبارًا في لعبه بالقرود وشربه الخمر. ثم ذكر بعد ذلك بإسناده قال: «قال رجل لسعيد بن المسيَّب: أخبرني عن خطباء قريش، قال: معاوية وابنه يزيد...». ثم روىٰ بعد أسطر عن المدائني، عن عبد الرحمن بن معاوية، قال: قال عامر بن مسعود الجمحي: إنا لبمكة إذ مر بنا بريد ينعي معاوية، فنهضنا إلىٰ ابن عباس وهو بمكة وعنده جماعة، وقد وضعت المائدة ولم يؤت بالطعام، فقلنا له: يا أبا العباس، جاء البريد بموت معاوية. فوجم طويلًا ثم قال: اللهم أوسع لمعاوية. أما والله ما كان مثل من قبله ولا يأتي بعده مثله، وإن ابنه يزيد لمن صالحي أهله. فالزموا مجالسكم، وأعطوا طاعتكم وبيعتكم، هات طعامك يا غلام». ويروي أيضًا: «أن سبب وفاة يزيد أنه حمل قردة علىٰ

الأتان وهو سكران، ثم ركض خلفها، فسقط، فاندقت عنقه، أو انقطع في جوفه شيء»، ثم يعود بعد ستين صحيفة يروي أيضًا «وكان سبب موت يزيد أنه ركض فرسه، فسقط عنه، وأنه أصابه قطع، ويقال: إن عنقه اندقت».

هذا ضرب من الرواية لا يشك شاك أن بعضه يناقض بعضًا في كتاب واحد، فابن عباس، وهو أعلم قريش بقريش، يقول عن يزيد إنه من صالحي أهله، والذي يروي خبر استهتاره بالغناء والخمر والقرود، يختم كلامه بأنه «كان مع هذا صحيح العقدة فيما يرویٰ»، أي صحيح الاعتقاد والإيمان، وأنه كان «ماضي العزيمة لا يهم بشيء إلا رَكِبه»، فأين هذا من الذي استباح لنفسه أن يجعله بالغًا حد التفاهة والنزق والطيش، ومن الذي جعله «لا يصلح أن يلي أمر مدرسة ابتدائية»؟ وأين هذان من سعيد بن المسيب الذي عده هو وأباه من خطباء قريش؟ أفيكون الفتىٰ التافه الخليع الطياش، خطيبًا معدودًا في خطباء العرب، إلا إذا كان سعيد يَعُد من الخطباء أولئك المتشدقين الثرثارين كخطباء عصرنا هذا!

ثم يكون ماذا إذا وجدنا من يروي كلام من يصف يزيد بما زعموه من شرب الخمر واللعب بالقرود، ثم يعقب فيروي أن أهل المدينة لما رجعوا من عند يزيد: «مشىٰ عبد الله بن مطيع وأصحابه إلىٰ محمد بن الحنفية (وهو محمد بن علي بن أبي طالب ﵁)، فأرادوه علىٰ خلع يزيد، فأبىٰ عليهم، فقال ابن مطيع: إن يزيد يشربُ الخمر، ويترك الصلاة، ويتعدّىٰ حكم الكتاب. فقال: ما رأيتُ منه ما تذكرون، وقد حضرته وأقمت عنده فرأيته مواظبًا علىٰ الصلاة، متحرِّيًا للخير، يسأل عن الفقه، ملازمًا للسنة. قالوا: فإن ذلك كان منه تصنعًا لك. فقال: وما الذي خاف مني أو رجا حتىٰ يظهر إليَّ الخشوع؟ أفأطلعكم علىٰ ما تذكرون من شرب الخمر؟ فلئن كان أطلعكم علىٰ ذلك إنكم لشركاؤه، وإن لم يكن أطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا. قالوا: إنه

عندنا لحقٌّ وإن لم نكن رأيناه! فقال لهم: أبىٰ الله ذلك علىٰ أهل الشهادة، فقال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [سورة الزخرف: ٨٦]، ولست من أمركم في شيء. قالوا: فلعلك تكره أن يتولىٰ الأمر غيرك، فنحن نوليك أمرنا. قال: ما أستحل القتالَ علىٰ ما تريدونني عليه تابعًا ولا متبوعًا. قالوا: فقد قاتلتَ مع أبيك؟ قال: جيئوني بمثل أبي؛ أقاتل علىٰ مثل ما قاتل عليه. فقالوا: فمر ابنيك أبا القاسم والقاسم بالقتال معنا. قال: لو أمرتهما قاتلت. قالوا: فقم معنا مقامًا تحضُّ الناسَ فيه علىٰ القتال. قال: سبحان الله! آمر الناس بما لا أفعله ولا أرضاه! إذنْ ما نصحتُ لله في عباده. قالوا: إذن نُكرهك! قال: إذنْ آمُر الناسَ بتقوىٰ الله ولا يُرضون المخلوق بسُخْط الخالق. وخرج إلىٰ مكة».

فهذه شهادة رُجل قاتل معاوية نفسه، وخليق أن يُعدّ عدوًّا له ولملكه فيما يزعمون.

فما الذي جعل هؤلاء يرجحون هذه الروايات عن فسق يزيد وفجوره، علىٰ صلاح أمره وتستُّره؟

لا أدري! فهذه الأخبارُ كلها موجودة مذكورة مروية في كتب التاريخ، فبأي حجة يحتجُّ الآخذ فيما أخذ، والتارك فيما ترك؟ لست أدري أيضًا. فإما أن يفعل هؤلاء المتدسّسون إلىٰ التاريخ ما فعل أوائلهم من جمع الغث والسمين والصحيح والسقيم، ثم يكفوا ألسنتهم عن المعابة والإقذاع وسوء الأدب، وإما أن يأتوا الناس بحجة أو بيان يُرجّح أقوالهم فيما قالوا وما اختاروا من الروايات. وإلّا فإنَّ الله ربهم آخذهم فمحاسِبهم فمعطيهم نَصيبهم من العذاب الذي أنذر به من آذىٰ المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا.

وأنا أكتب هذا لقوم وصفتهم بأنهم يلبسون للناس ثياب الغيرة علىٰ الدين، والحمية لماضي سلفهم. ولو كنتُ أعلم أني أكتب للزنادقة أو للمتبرئين من دين ربهم؛ لكان لما أكتب شأن آخر، وطريق غير هذا الطريق. ومع ذلك، فإني سوف أرتكبُ لهم فيما بعد طريقًا أنفي به الدَّخل والفساد والتزوير في تاريخ سلفي ﷺ وغفر لهم ما

قدموا من سيئ وأثابهم بما فعلوا من صالح. ولستُ أكتب هذا دفاعًا عن يزيد؛ فإن يزيد نفسه دافع يومًا ما عن نفسه فيما ترويه كتب التاريخ التي ينقلون عنها، أو قُلْ: يدلسون بالنقل عنها؛ إذ سمع قالة الخارجين عليه والكارهين لخلافته أو ولايته، إذ قالوا: «إنه رجل ليس له دين، يشرب الخمر، ويعزف بالطنابير، ويضرب عنده القيان، ويعلبُ بالكلاب، ويُسامر الخرَّاب والفتيان». ويلغه أن المنذر بن الزبير انطلق من عنده بعد أن أكرمه وأحسن إليه، فانحاز إليهم، فقال بمثل قولهم فأكثر وقال: «إنه يشربُ الخمرَ ويسكرُ، حتىٰ يدع الصلاة». فقال يزيد: «اللهمَّ إني آثرته وأكرمته، ففعل ما قد رأيتَ، فاذكره بالكذبِ والقطيعة». لم يملك يَزيدُ إلّا أن يلجأ إلىٰ ربه، ليذكر هؤلاء بالكذب وقطيعة الأرحام. وماذا ينفع الدفاعُ عن النفس مع منْ لا يتورّعُ من كذب، ولا يتجافىٰ عن قذفِ الناس بما يعلم أنه ليس فيهم؟

وأقول مرة أخرىٰ أن ليس همي أن أدفع عن يزيد، ولا أن أصحح كتابة التاريخ. ولكني أكشف عن أصحابِ الأهواء الذين يتغلغلون بين الناس، وينفثونَ فيهم داءَ الهوىٰ والعصبية، حتىٰ يقعوا في أعراض عبادِ الله بالمذمَّة والإقذاع وبسطة اللسان، فاتبعوا بذلك طريق الرافضة أهل الغلوّ والعداوة لأصحاب محمد رسول الله ﷺ. فلو شاء هذا الكاتب أن يحقق معنىٰ العدل والدينِ فيما يكتبُ؛ لوجد الطريق واضحًا لا يضطربُ عليه، ولكنه ركب أهواءِ الرافضة حيث رَكِبوا، فأخذ ما حمله له الهَوىٰ من الطعن في يزيد؛ ليطعن أباه ﵁ وغفر له، وهو يعلم أنه أحدُ أصحاب رسول الله ﷺ. نعم ليس من أدب أهل المروءة، ولا أقول الدين، أن يؤخذ الوالد بجريرة ولده، إلا ببينة لا تردُّ، ولكنه فعل. لا بل فعل أيضًا ما هو أكبر من ذلك في سبيل الطعن علىٰ رجل كان ينبغي أن يمسك لسانه عنه في الخطإ الظاهر؛ لأنه أحد أصحاب رسول رب العالمين، فإن لم يستطع أن يمسك لسانه؛ فليطلقه بالاستغفار له كما أمره ربه أن يستغفر

لأصحاب رسول الله ﷺ.

نعم ليس من أمانة التاريخ في شيء، بل ليس من أمانة العقل في شيء، بل ليس من أمانة الإنسان مجردًا من كل دين يتبعُه، أن يرفُضَ الروايات الصحيحة والأخبار المحكمة، لخبر مجهول لم يوجد إلا في كتاب طعَّان معروف بثلب عدوٍّ له، ويرفضها كلها لقاعدة أقامَ عليها رفضه، هي أن هذه الروايات الصحيحة والأخبار المحكمة إنما أشيعت بعد الظفر بالملك، أشاعها الأنصارُ والأتباع، كما يفعل سائر الدعاة. ثم لا يتوقىٰ أن يكون الطعن والسلب من العدو، هو أيضًا من إشاعة الأعداء والمفترين، كما يفعلُ سائر الدعاة حين يريدون التشنيع علىٰ أعدائهم والوقيعة فيهم، وصرْف الناس عنهم، وهاك المثل.

يقول هذا الكاتب: «بَقِي ما اشتهر خطأ من أن معاوية كان كاتب الوَحْي لرسول الله. فالصحيح أن أبا سفيان حين أسلم، وجَا النبيّ ﷺ في أن يسند إلىٰ معاوية شيئًا يعتزُّ به أمام العرب، ويعوّض عن سُبّة التأخّر في الإسلام، وأنه من الطلقاء الذين لا سابقة لهم في الإسلام، فاستخدمه النبيُّ ﷺ في الرسائل والحوائج والصدقات. ولم يقل أحدٌ من الثقات: إنهٔ كتب للنبي شيئًا من الوحي، كما أشاعَ أنصارُه بعد استقرار الملك، كما يصنَعُ سائر الدعاة!».

سبحان الله! «لم يَقُل أحدٌ من الثِّقات»؟ فأين الثقات الذين قالوا إنّ النبي ﷺ استخدمه «في الرسائل والحوائج والصَّدقات»؟!! وأنا لا أتعرّضُ هُنَا لفسادِ معنىٰ هذا الكَلامِ من حيث هو كلامٌ عربيٌّ له دلالةٌ علىٰ معانيه، بالألفاظ التي ذكرها هذا الكاتب، بل أكشفُ له ولغيره من أين أخذَ كلامَه، ومن هو هذا «الثّقات» الذي يروي عَنْه؟ فهذا «الثقات» رجلٌ من الرافضة كان في زمن ابن تيمية، ألف كتابًا سمّاه «منهاج الكرامة»، فانبرىٰ له ابن تيمية يردّ عليه في كتابٍ سماه «منهاج السنة»، فكان ممّا نقله من

نصّ كلامه (٢: ٢٠١): «وسمّوه (معني معاوية) كاتب الوحي، ولم يكتب له كلمة واحدة من الوحي، بل كان يكتب له رسائل (وزاد كاتبنا هذا ما لا نعرف معناه: الحوائج والصدقات! !). وقد كان بين يدي النبي ﷺ، أربعة عشر نفسًا يكتبون الوحي، أولهم وأخَصُّهم وأقربهم إليه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، مع أن معاوية لم يزلْ مشركًا بالله تعالىٰ في مدة كون النبيّ مبعوثًا يكذّب بالوحي ويهزأ بالشرع». ولستُ أدري لم ترك هذا الكاتبُ سائرَ ما ذكره الرافضيّ، فيزعم أيضًا أنّ معاوية ظل مشركًا لم يؤمِنْ مدّة بعثة رسول الله ﷺ؟ كلّا كلّا فلعلّه استغنىٰ عَنْه بأن جَعَله بطريق آخر «بريئًا من الإسلام، والإسلامُ بريء منه»!

وقد ردّ ابن تيمية في صـ ٢١٤ بقوله: «هذا قول بلا حجة ولا علم، فما الدليل علىٰ أنه لم يكتب له ولا كلمة واحدة من الوحي، وإنما كان يكتب له رسائل». وأزيد أنا فأقول: أوَ من الهين عند هذا الكاتب وأشباهه أن يكتب امرؤ لرسول الله ﷺ رسائله؟! أكان رسول الله ﷺ يملي رسائل لشغل فراغه، وقضاء حوائجه، ومجاذبة أصدقائه، والتلهي بإملاء صغائر الأمور التي يتعايش بها الناس في شئون دنياهم! ! عجيب! ولكن لا عجب في زماننا، ومن أين يأتي العجب، بل كيف يطيق إنسان أن يعجب بعد أن تبلد حسه بالعجائب تترىٰ لا تنقطع، حتىٰ صار المعروف منكرًا والمنكر معروفًا! وأنا لن أدلّ الكاتب علىٰ حيث قيل إن معاوية كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ. ولكني أحب أن يأتي هو الناس «بثقات» آخر ينفي أن يكون معاوية كتب الوحي لرسول الله، وأنه إنما كان يكتب له في الرسائل... والحوائج والصدقات أيضًا!

وإذا كان قد استطاع بالأمانة والذمة أن يزيف قول من قال إنه كان يكتب الوحي لرسول الله، بأن ذلك من قول أنصار معاوية أشاعوه وأذاعوا به، أفلا يستطيع أن يزيف ولو مرة واحدة كل ما رواه في كتابه عن معاوية وعن أبيه، وعن أمه، وعن يزيد

وعن بني أمية، وعن عمرو بن العاص، بأنه مما أشاعه وأذاع به أعداؤهم وأعداء بني أمية؟ أو ليس صريح العقل يقتضي أن يكون المهزوم المقهور، أحرص علىٰ ذكر مثالب عدوه ومعايبه، من الغالب المنصور علىٰ ذكر مناقبه وفضائله!

ألا إن هذا الكاتب وأشباهه من أصحاب الألسنة الجريئة علىٰ الحق، يرتكب كل صعب وذلول في سبيل تحقيق معان تدور في نفوسهم، لا يجدون لها متنفسًا إلا في الهالكين الذين لا يدفعون عن أنفسهم، وهم لا يبالون في سبيل ذلك بتحقيق ولا علم، ولا بتمييز صَحيح من سقيم، ولا يتخطفون من الكلام إلا ما قارب ما يريدون في أنفسهم أن يقولوه، ولا يعرفون للحجة حرمة، ولا للبرهان كرامة. وهم يتناولون ما يعرضون له من تاريخ أسلافهم، بل من أمر صحابة نبيهم ﷺ بنفس الأسلوب الذي انحدر علينا من حضارة هذا القرن، في أدب منازعات الصحف والأحزاب. أسلوب يراد به تحقيق معاني العداوة وتقريرها في النفوس، لا أسلوب تحقيق مواطن الخلاف والكشف عنها بالبيان والبرهان. وهم يريدون أن يجعلوا هذا الأسلوب علمًا وتاريخًا. بل يريدون أيضا أن يجعلون دينًا يتدين به الناس ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل؟ ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ٦٧﴾ [الزخرف: ٦٧].



بين شاكر وقطب: «لا تسبوا أصحابي»[(١)]

بقلم الدكتور/ محمد رجب البيومي

للأستاذ محمود محمد شاكر منزلة كبيرة لدي، فأنا أعهده كاتبًا قوي الأسلوب، رصين العبارة، وأعرفه أبيًّا مخلصًا يتدفق غيرة علىٰ الإسلام، وتعصبًا لأفذاذه الأبطال، لذلك أقبل علىٰ قراءة ما يدبجه يراعه المؤمن في شوق واهتمام. وقد طالعت أخيرًا ما كتبه بمجلة (المسلمون - العدد الثالث ص ٣٨ - جمادىٰ الأولىٰ سنة ١٣٧١) تحت عنوان «لا تسبوا أصحابي»، فوجدت المجال واسعًا للخلاف بيني وبينه، ولم أشأ أن أطوي ما دار بخلدي عن القراء، فرأيت أن أناقش الكاتب الكبير فيما سطره راجيًا أن يحق الله الحق بكلمته، فالحق وحده هدف الكرام الكاتبين، وفي طليعتهم الأستاذ الجليل.

ولعل من الأوفق أن أبدأ بتلخيص الفكرة التي يدور حولها مقال الأستاذ شاكر، فأعلن أن الكاتب الفاضل ينحىٰ باللائمة علىٰ المجاهد الداعية الأستاذ سيد قطب - وإن لم يصرح باسمه - إذ تعرض في كتابه «العدالة الاجتماعية في الإسلام» إلىٰ أناس عدهم الأستاذ شاكر من أفاضل الصحابة، وقد خصهم صاحب الكتاب بما لا يليق في مذهب الأستاذ شاكر من النقد والتجريح، وهو بذلك يخالف ما اجتمع عليه الرأي السائد من تقديس أصحاب الرسول «إذ لا سبيل لأحد من أهل الأرض، ماضيهم وحاضرهم، أن يلحق أقل أصحاب محمد، مهما عهد في عبادته، ومهما تورع في دينه، ومهما أخلص قلبه من خواطر السوء في سره وعلانيته»، كما قال الأستاذ الجليل.

وقد بدأ الأستاذ شاكر مقاله بحديث الرسول: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أُحُد ذهبًا، ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه»، واندفع في

---

(١) نشر بمجلة الرسالة، العدد (٩٧٣)، سنة ١٩٥٢م.

سياق منبري في سرد الأدلة الخطابية، ويستثير النوازع العاطفية، ويستشهد بقول الرسول: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»، كما ذكر حديثًا يدور حول هذا المعنىٰ، محاولًا أن يؤيد بذلك كله دعواه الخطيرة إلىٰ تقديس أناس بعدوا عن الحق فيما سجله عليهم التاريخ من أعمال. ومما نحمد الله عليه أن الحق - في هذه الناحية - واضح أبلج لا يحتاج إلىٰ برهان.

وقبل أن نعرض ما ذكره الأستاذ قطب في شأن معاوية وأصحابه، نذكر أن الأستاذ شاكر قد أثار هذه العاصفة وحجته الوحيدة أن كل صحابي رأىٰ الرسول وسمع عنه قد اكتسب مكانة تحرم علىٰ كل إنسان أن ينقد أخطاءه، أو يظهر أغلاطه، «فإذا أخطأ أحدهم فليس يحل لهم ولا لأحد ممن بعدهم أن يجعل الخطأ ذريعة إلىٰ الطعن عليهم...» كما ذكر الكاتب.

وحسمًا للنزاع من أقرب طرقه، نبدأ بتحديد معنىٰ الصحابي، وهو - في أبسط حدوده - يطلق علىٰ كل إنسان حصلت له رؤية الرسول أو مجالسته، فجميع من سعدوا بمشاهدته ﷺ في حياته بعد الإسلام صحابة يشرفون بهذه الصفة المباركة، حتىٰ عبد الله بن أبي رأس النفاق بالمدينة، فقد قال الرسول لمن هم بقتله: «معاذ الله أن يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»[1]، فعبد الله من أصحاب محمد كما ينطق الحديث، فليت شعري أينطبق الحديث القائل: «لا تسبوا أصحابي» علىٰ جميع من سعد بالصحبة، أم يخص من باعوا أرواحهم وأموالهم لله من المؤمنين الصادقين؟

لا بد أن تكون الطائفة الأخيرة هي المقصودة دون أدنىٰ تردد أو نزاع، فكل من تمسك بأخلاق الإسلام من أصحاب الرسول وشهد تاريخه بمروءته وصدقه؛ فهو

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٩٠٧)، ومسلم (٢٥٨٤).

موضع التجلة والتبجيل، ولا يجوز لمسلم يدين بالإسلام أن ينتقصه في شيء، وكل من حامت الشبهات فوق تاريخه؛ فهو موضع الملامة والنقد؛ لأن الناس سواسية أمام الإسلام، ولا فضل لعربي علىٰ أعجمي بغير تقواه، والإسلام لا يقدس غير البررة المخلصين.

ومعلوم أن الصحابة - رضوان الله عليهم - لم يكونوا من الدين والجهاد بمنزلة واحدة، ففيهم من أسلم في فجر الدعوة منذ أعلنها الرسول، وقطع السنوات المتتابعة في الجهاد والجلاد، وفيهم من أسلم قبيل الفتح أو بعده والسيف مصلت علىٰ رأسه، وفيهم من بذل الكثير من الدم والمال وادخر القليل، وفيهم من تقاعس ولم يبذل شيئًا من دمه وماله، ومن الظلم البين أن نرتفع بهؤلاء جميعًا إلىٰ منزلة واحدة، بل علىٰ التاريخ أن يهيء لكل إنسان منزلته وفق ما أسلف من أعمال ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ [النساء: ٩٥].

وإذا كان الأستاذ شاكر يرىٰ أنه لا يجوز لأحد من الناس أو من الصحابة أن يجعل الخطأ ذريعة إلىٰ الطعن في المخطئين، فماذا يفعل في الصحابة إذ أحلوا لأنفسهم ما حرمه عليهم الآن، فخطأ بعضهم بعضًا، وطعن فريق منهم علىٰ فريق آخر يناوئه، أفيكونون بذلك قد خالفوا الحديث النبوي كما فهمه الأستاذ شاكر... أم عرفوا أن الصحبة وحدها لا تعصم من النقد والملام؟

لقد اتضح بجلاء أن الحديث الذي عنون به الأستاذ مقاله لا يندرج علىٰ جميع من سعد بالصحبة، بل يختص الطائفة المناضلة التي لم تترك أخلاق القرآن في موقف، أو تنبذ روح النبوة في صنيع، وجميع من سار علىٰ النهج القويم كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود موضع القدوة والاحتذاء من المسلمين، وحرام علىٰ كل مؤمن أن يحوم علىٰ أحد منهم بطعن أو تجريح، أما الذين تأخر بهم الركب عن اللحاق بالإسلام

في مشرق شمسه، فيجب أن ننظر إلىٰ صحف أعمالهم ومواقفهم في الحياة، ثم نحكم عليها في ضوء القرآن والنبوة، وهذا ما فعله الأستاذ سيد قطب، فقد نظر إلىٰ أعمال معاوية وطائفة من بني أمية نظرة إسلامية صادقة، فوجد خليفة المسلمين قد بعد عن روح الإسلام في أكثر أعماله، وساعده في هذا السبيل فريق باع آخرته بدنياه، فرأىٰ أن يقول كلمة الحق في أناس تجاوزوا حدود الله في أعمالهم، والأستاذ قطب لم يرد بكتابه أن يكون مؤرخًا راويًا، فالرسالة التي يضطلع بها الآن أعظم من أن تنحصر في حدود التاريخ، ولكنه ينادي بالرجوع إلىٰ أحكام القرآن، وهدي النبوة، وتعاليم الإسلام، وقد عرف أن الخلافة الإسلامية قد فقدت معناها الديني بعد مصرع علي، وجاء من الخلفاء من أحالها إلىٰ ملك عضوض، تبعد عنه روح الإسلام في أكثر نواحيه، وقد ظن كثير من الناس أن هؤلاء الخلفاء الرسميين من لدن معاوية يمثلون الخلافة الدينية التي تتقيد بالقرآن وتهتدي بالسماء، ورأوا من جرائرهم الخلقية، وترفهم المقيت، ولهوهم الماجن ما يبغضهم في الخلافة والإسلام، فقام الأستاذ سيد قطب يدافع عن دينه، ويبين أن الإسلام لا يعترف بخلافة بعد علي، وقد نطق بالحق المؤيد بالتاريخ حين أعلن أن معاوية أول خليفة تحلل من قيود الإسلام، أفنقول له بعد ذلك: لقد تهجمت علىٰ أصحاب الرسول وخالفت هدي النبوة، أم يريد الأستاذ شاكر أن يفهم الناس ان معاوية وأشياعه يمثلون الإسلام بما ارتكبوه من رشوة وخداع وممالأة؟ لو أن الأمر كذلك؛ لبعد الناس عن الإسلام، ولبرئ المسلمون من دين يبيح لخلفائه الخديعة والمكر والإرهاب وإقامة القصور واحتكار الأموال والضياع؟

ولقد كان الأحرىٰ بالأستاذ شاكر أن ينقد ما ذكره الأستاذ قطب عن معاوية نقدًا تاريخيًّا، فيبين أن الوقائع التي ذكرها في كتابه الخالد غير صحيحة، ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا من ذلك؛ إذ إن الأستاذ قطبًا قد نقل وقائعه عن كتب التاريخ، ولم يخترعها

من عنده اختراعًا، وهي - رغم ثورة الأستاذ شاكر - معروفة لدىٰ الكبير والصغير.

فمن ذا الذي ينكر أن معاوية حين سير الخلافة ملكًا عضوضًا في بني أمية لم يكن ذلك من وحي الإسلام، إنما كان من وحي الجاهلية؟

ومن الذي ينكر أن أمية بصفة عامة لم يعمر الإيمان قلوبها، وما كان الإسلام لها إلا رداءً تلبسه وتخلعه حسب المصالح والملابسات! ! وهذا باستثناء عمر بن عبد العزيز الذي أحاطه الأستاذ قطب في كتابه بسياج من المحبة والإجلال، وجعل عهده بقية من عهود الخلافة الراشدة، وإشعاعة مضيئة تنير الطريق، وقد بسط الكلام عن هذا الخليفة العظيم في أربع صفحات طوال! !

ومن الذي ينكر أن يزيد بن معاوية قد فرضه أبوه علىٰ المسلمين مدفوعًا إلىٰ ذلك بدافع لا يعرفه الإسلام؟

ومن الذي ينكر أن معاوية قد أقصىٰ العنصر الأخلاقي في صراعه مع علي وفي سيرته في الحكم بعد ذلك إقصاءً كاملًا لأول مرة في تاريخ الإسلام، وقد سار في سياسة المال سيرة غير عادلة، فجعله للرشوة واللهو وشراء الضمائر في البيعة ليزيد بجانب مطالب الدولة والفتوح بطبيعة الحال؟

هذه وأمثالها أمور مسلمة في التاريخ لا يستطيع الأستاذ شاكر أن ينكرها بحال.

ونحن نعجب كثيرًا حين نجده في مقاله يلبس مسوح الوعظ والإرشاد فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ [الحجرات: ١٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]، ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ [الإسراء: ٣٦]. أفبهذه الآيات وأمثالها يستطيع الأستاذ شاكر أن يسكت لسان التاريخ؟

كنا ننتظر من الأستاذ أن ينقد هذه الحوادث التاريخية نقدًا موضوعيًا يحدد علىٰ

ضوئه موقف معاوية من تعاليم الإسلام، ولكن الأستاذ لا يستطيع أن يأتي لمعاوية بتاريخ جديد، فذهب يدافع عنه من باب آخر، فنقل عدة روايات تدل علىٰ أنه حسن الصلاة! ! وأنه أوتر بواحدة! فقال ابن عباس إنه فقيه! ! وأن الرسول قد قال: «اللهم علم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب»! !، وسار في هذا المضمار خطوات أتعبته كثيرًا. والعجيب أنه يجعل ما ذكره الأستاذ قطب عن تاريخ معاوية روايات متلقفة من أطراف الكتب! وهي ما تنطق به جميع كتب التاريخ، أما ما ذكره الآن من فضائل معاوية فليس من قبيل الروايات المصنوعة، وإن اصطيد من «مجمع الزوائد» وأمثاله من مراجع الأستاذ، أفهذا منطق يقنع الباحثين؟!

وقد تعجبت كثيرًا وأنا أقرأ قول الأستاذ شاكر عن قطب: «إن كان يعلم أنه أحسن نظرًا ومعرفة بقريش من أبي بكر حين ولىٰ يزيد بن أبي سفيان وهو من بني أمية، وأنه أنفذ بصرًا من عمر حين ولىٰ معاوية، فهو وما علم!». كأن تولية عمر لمعاوية كافية لأن تمحو أخطاءه، فلا يأخذه مؤرخ بملام! ونحن نقر أن معاوية كان حسن السيرة علىٰ عهد عمر، فولاه أعمال دمشق، ولكنه قلب المجنّ للتعاليم الإسلامية بعد مصرع عثمان، فلم تنفعه تزكية الفاروق في شيء، وعمر ﷺ لا يعلم الغيب حتىٰ تكون تزكيته لإنسان ما في عهده ممتدة إلىٰ جميع أعماله مدىٰ الحياة!

هذا هو معاوية، أما أبو سفيان وهند زوجته وعمرو بن العاص؛ فلا أعلم أن الأستاذ قطبًا قد تجاوز الحق فيما كتب عنهم من تاريخ؛ فجميع المسلمين يعرفون أن أبا سفيان حارب الإسلام حربًا لا هوادة فيها، ولم يدخل في حظيرته إلا بعد أن تقررت غلبة الإسلام، وأن زوجته هند قد ولغت في الدم حين أخذت كبد حمزة بين فكيها، ولاكتها لتأكلها فلم تستطع، وأنها قالت عن زوجها حين أسلم: اقتلوا الخبيث الدنس الذي لا خير فيه، قبح من طليعة قوم، هلا قاتلتم ودافعتم عن أموالكم، ثم أسلمت بعد ذلك أيضًا! وأن ابن العاص قد عاون معاوية في خصامه مع علي جريًا وراء مآرب

يدخرها لنفسه دون نظر إلىٰ صالح الإسلام والمسلمين. هذا كله ما ذكرته كتب التاريخ، أفيلام الأستاذ قطب إذا ذكره في معرض الدفاع عن الإسلام وتبرئته من آثام المذنبين؟! أم يريد الأستاذ شاكر أن يؤخذ الإسلام بجرم أبنائه ومدعيه، حين يحتضن أناسًا لم يتمسكوا بأهدابه وقواعده، ما يكون لنا أن نتكلم بهذا في ذلك الشأن.

ولقد تعمدت أن أكون واضحًا صريحًا حين تكلمت عن المراد «بالصحابي»؛ فتحدثت عما يفهم من مادة الكلمة دون نظر إلىٰ ما دار حولها من اختلاف لدىٰ الأصوليين؛ إذ هم يذكرون عدة تعاريف تتقارب وتتباعد دون أن نلتقي في ناحية واحدة، ولو تمسك كل إنسان بتعريف معين؛ لتضارب القول، واتسعت شقة الخلاف. علىٰ أن الصحبة بمدلولها اللغوي تدل علىٰ الملازمة، فصاحبك هو الذي يطيل المكث معك أكثر من سواه، وصحابة الرسول بالمعنىٰ الشرعي واللغوي معًا هم أكثر الناس ملازمة له، وليس منهم معاوية وأبوه وأمه ونجله علىٰ أي حال، ولن أطيل هنا القول فيما ذكره المحدثون في قول الرسول: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم»- وقد سبق في صدر هذا المقال - إذ إن مفسري الحديث قد أجمعوا علىٰ أن العبرة بالمجموع لا بالجميع، فقد يوجد في القرن العشرين من هم أفضل بكثير من بعض من عاصروا الرسول العظيم، وإذن فليس للأستاذ شاكر أن يتمسك بهذا وأمثاله كدليل يستند إليه في دعواه، وهو من البداهة بمكان لا يحتمل الترديد والإسهاب.

إن من القسوة العنيفة أن يقول قائل عن الأستاذ سيد قطب: إنه قد بعد في كتابه عن منهج الإسلام، وهو الداعية البصير الذي تشرب روح الإسلام، وفهم دقائق التشريع، ورسم خطوطًا واضحة يترسمها الشباب المتوثب للنهوض والعزة في ظلال الدين الحنيف، وكان بجهاده الميمون رائد جيل، ومنقذ نفوس، وداعية إصلاح.

أعلمت أشرف أو أجل من الذي ... يبني وينشئ أنفسًا وعقولًا

ذو العقل يشقى[1]

بقلم العلامة/ محمود محمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ

لولا أني أكره خلائق السوء؛ لما حملت هذا القلم لأرد به علىٰ هذا الذي تكلف مؤونة الجدال عن صاحبه، ولولا أنه كتب ما كتب في «الرسالة»، وهي مألف قديم يحن إليه هذا القلم، لما غلبني علىٰ ما أدبت به نفسي من هجر صغائر الأمور، ومن خلائق السوء عندي أن يجهد كاتب قلمه في نقد ما أكتب، ثم أغفل رده إلىٰ الحق إن أخطأ، أو متابعته علىٰ الصواب إذا أصاب. ومهما يكن رأيي فيما كتب الأستاذ، فإني أجد الحق يلزمني أن أعود إليه بالتذكير والإبانة، غير متلجلج في استنقاذه مما تورط فيه، ولا مستنكف أن يكون في بعض كلامي هذا تكرار لما قلت، مما أرجو أن يكون إنما غفل عنه غير متعمد إن شاء الله.

وأنا أقدم بين يدي الأستاذ الفاضل، معذرتي في أن أسامحه فيما وصف به ما كتبت، وما وقر في نفسه وأبان عنه بقوله: إني اندفعت في سياق منبري، أسرد الأدلة الخطابية، وأستثير النوازع العاطفية. وكان خليقًا به قبل أن يقول ما قال، أن يعرف أسلوبي فيما أكتب، ثم ينظر إليّ بعيني مبصر يتحقق: أصحيح أني ألجأ إلىٰ الخطب المنبرية، والأدلة الخطابية، والنوازع العاطفية، أم الحق أني أتحرىٰ أمرًا أنا مسئول عنه بين يدي ربي، أو علىٰ الأقل: أعتقد أنا أني مسئول عنه بين يديه سبحانه؟! وإذا كان كثير من الناس قد نسوا أنهم محاسبون يوم القيامة، فإني لم أنس بعد، وأسأل الله أن يعينني علىٰ أن لا أنسىٰ، وإن عد الأستاذ الفاضل هذا الكلام أيضًا خطبة منبرية، أو استثارة عاطفية! ولعل قراء «الرسالة» لم يقرءوا ما كتبت في مجلة «المسلمون»، ولست أحب أن أعيد

---

(١) نشر المقال بمجلة «الرسالة»، العدد (٩٧٤)، سنة ١٩٥٢م.

عليهم ما كتبت هناك، ولكني أحب أن أبين لهم عن أصل هذا النزاع الذي نازعنيه الأستاذ الفاضل.

وذلك أني رأيت كاتبًا بسط لسانه بسطًا عريضًا في دين جماعة صحبوا رسول الله ﷺ، هم: معاوية بن أبي سفيان، وأبوه أبو سفيان، وأمه هند بنت عتبة، وعمرو بن العاص، ثم أدخل معهم سائر بني أمية. وزعمت في هذه المقالة أيضًا أني لن أناقش منهجه التاريخي؛ «لأن كل مدع يستطيع أن يقول: هذا منهجي، وهذه دراستي»، وقلت: «وأيضًا فإني لن أحقق في هذه الكلمة فساد ما بني عليه الحكم التاريخي العجيب، الذي استحدثه لنا هذا الكاتب، بل أدعه إلىٰ حينه»، وقلت: «بل غاية ما أنا فاعل: أن أنظر كيف كان أهل هذا الدين، ينظرون إلىٰ هؤلاء الأربعة بأعيانهم، وكيف كانوا - هؤلاء الأربعة - عند من عاصرهم ومن جاء بعدهم من أئمة المسلمين وعلمائهم».

وأظن أني بهذه الكلمات قد حددت كل التحديد غايتي فيما أكتب. أظن ذلك، وأظن أيضًا أن لكل كاتب بعض الحرية! ! في أن يحدد ما يريد لنفسه في سياق ما يريد أن يكتب. وبخاصة إذا كان يريد أن يعرف الناس بشيء هم قد غفلوا عنه، وبخاصة في زمن أصبح العلم فيه لجاجات تكتب كما تكتب مقالات الصحف اليومية في المنازعات الحزبية! وبخاصة في أمر فيه نذير شديد من الله سبحانه! وبخاصة إذا كان هذا الكاتب يؤمن بأن الانسان مسئول بين يدي ربه عن كل ما يقول، وكل ما يكتب، وكل ما يفعل!

بيد أن الأستاذ الفاضل ظن أنه كان يجب عليّ أولًا غير هذا، إذ ظن أن صاحبه نقد معاوية نقدًا تاريخيًّا، فطالبني أن أبين الوقائع التي ذكرها في كتابه غير صحيحة، ثم زاد شيئًا آخر عجل إليه فزعم أني لا أستطيع أن أفعل شيئًا من ذلك؛ لأن صاحبه نقلها من كتب التاريخ ولم يخترعها اختراعًا؛ ولأنها معروفة لدىٰ الصغير والكبير؟! فأظن أنا أيضًا أني بينت عن طريقي في الكلمات التي نقلتها آنفًا، وأني سوف أترك هذا إلىٰ حينه،

فلست أدري لم يعجل الأستاذ الفاضل كل هذه العجلة علىٰ امرئ مثلي، فيضرب بالعجز عن ذلك قبل أن يبين عن حجته؟ فهذه العجلة هي التي أنكرها علىٰ صاحبه، وأنكر أن تكون أدبًا يتأدب به العالم أو المتعلم، ومن الحق علىٰ كل عاقل أن ينهىٰ نفسه عنها، وأن ينهىٰ من يرتكبها؛ لأنها مخالفة لكل أصل من أصول العلم والتعلم؛ ولأنها تورث مرتكبها نفس الداء الذي أتي منه صاحبه الذي تهجم علىٰ ضمائر خلق الله، فكاد يقطع قطعًا جازمًا بنفاق معاوية وأبي سفيان وهند وعمرو بن العاص وسائر بني أمية! من أين يعلم أني عجزت أو أني سوف أعجز؟ لا أدري!

ومثل هذا في الجراءة ما أتبعه من أسئلة، إذ يقول: «من الذي ينكر أن معاوية حين سير الخلافة ملكًا عضوضًا لم يكن ذلك من وحي الإسلام، إنما كان من وحي الجاهلية؟

ومن الذي ينكر أن أمية بصفة عامة لم يعمر الإيمان قلوبها، وما كان الإسلام لها إلا رداء تلبسه وتخلعه حسب المصالح والملابسات؟

ومن الذي ينكر أن يزيد بن معاوية قد فرضه أبوه علىٰ المسلمين مدفوعًا إلىٰ ذلك بدافع لا يعرفه الإسلام؟

ومن الذي ينكر أن معاوية قد أقصىٰ العنصر الأخلاقي في صراعه مع علي، وفي سيرته في الحكم بعد ذلك، إقصاءً كاملًا لأول مرة في تاريخ الإسلام، وقد سار في سياسة المال سيرة غير عادلة، فجعله للرشوة واللهو وشراء الضمائر في البيعة ليزيد؟

هذه وأمثالها أمور مسلمة في التاريخ، لا يستطيع الأستاذ شاكر أن ينكرها بحال، ونحن نعجب كثيرًا حين نجده في مقاله يلبس مسوح الوعظ والارشاد..».

نعم يا سيدي الشيخ، نعم! فإني لمحدثك عمن ينكرها: أنا أنكر هذا كله، وينكره المؤمنون من قبلي، وإذا كنت أنت وصاحبك تسلمان بها، فأنا لا أستطيع أن أسلم بها. وتقول: هذه دعوىٰ ليس عليها بينة! فأقول: نعم، هي في هذا السياق وليس عليها بينة،

إلا أن آتيك بالدليل علىٰ بطلان ما ذهب إليه صاحبك الذي توليت الدفاع عنه. بيد أنك أسأت حين عجلت إلىٰ شيء لم تعرف ماذا أقول فيه، وكيف أستطيع أن أتناوله بالنقد والتمحيص.

ولو أنت صبرت حتىٰ تعرف؛ لأتاك البيان عما أنكرت وما عرفت من أخبار صاحبك، التي وصفتها بأنها متلقفة من أطراف الكتب، لا أقول بلا تمحيص وحسب، بل أقول أيضًا بالحرص الشديد علىٰ تتبع المثالب القبيحة، وبالحرص المتلهف علىٰ اجتناب المناقب الفاضلة، وبالغلو الأرعن في سياق المثالب وفي تفسيرها، وفي تجليتها، وفي استخراج النتائج من مقدمات لا تنتجها، كما يقول أصحاب المنطق.

وأنا أحب أن أخلع معك مسوح الوعظ والإرشاد خلعًا لا رجعة بعده! فتعال أيها الشيخ إلىٰ غير واعظ ولا مرشد! تعال حدثني وأحدثك، ودعني ودعك من: «قال الله تعالىٰ» و«قال رسول الله ﷺ»؛ فإنهما في زماننا هذا من مسوح المتدينين بلا دين! دعنا نعرف الكتب التي بين أيدينا لا نرفع بعضًا ولا نضع بعضًا؛ لأن هذه كتب تاريخ لا يوثق بها؛ ولأن هذه كتب أصحاب دين ووعظ وإرشاد يوثق بها! ثم ننظر بعدئذ بالعقل المجرد ماذا يكون؟!

ودعني أيها السيد، أعيد عليك ما قلت في مقالك: «ونحن نقر أن معاوية كان حسن السيرة علىٰ عهد عمر، فولاه أعمال دمشق، ولكنه قلب المجن للتعاليم الإسلامية بعد مصرع عثمان..»، ولا أسألك من أين علمت أنه كان حسن السيرة علىٰ عهد عمر؟

ولكني أسألك: ألست تعلم أنه قد نشب الخلاف بينه وبين علي؟

فتقول: نعم، ولا بد.

ثم أسألك: ألست تعلم أنه كان لهذا شيعة ولذاك شيعة؟

فتقول: نعم، ولا بد.

فأسألك: ألست تعلم أن كل شيعة قد غلت في صاحبها وتعصبت له؟

فتقول: نعم، ولا بد.

فأسألك: ألست تعلم أن الأمر حين انتهىٰ إلىٰ معاوية واجتمع عليه الناس في عام الجماعة؛ إذ أسلم إليه الحسن أمر الخلافة، لم تزل شيعة علي باقية في الناس كشيعة معاوية؟

فتقول: نعم، ولا بد.

فأسألك: ألست تعلم أن الخلاف بين الشيعتين ظل مستمرًّا مدة بقاء معاوية ومن بعده؟

فتقول: نعم، ولا بد.

فأسألك: ألست تعلم أن الحسين بن علي قتل في عهد يزيد بن معاوية؟

فتقول: نعم، ولا بد.

فأسألك: ألست تعلم أن مقتل الحسين وما تبعه من الحوادث في عهد يزيد بن معاوية قد أوقد نار العداوة بين شيعة علي وشيعة معاوية؟

فتقول: نعم، ولا بد.

فأسألك: ألست تعلم أن شيعة كل منهما قد انتشرت في الناس بما بينهما من العداوة؟

فتقول: نعم، ولا بد.

فأسألك: ألست تعلم أن من هاتين الشيعتين العالم والجاهل؟

فتقول: نعم، ولا بد.

فأسألك: ألست تعلم أن كل عالم أو جاهل كان يحدث عن خبر شيعته وخبر شيعة عدوه؟

فتقول: نعم، ولا بد.

فأسألك: ألست تعلم أن هذه الأخبار ربما كان فيها الصحيح والسقيم والصادق والمكذوب كما يكون في كل شيعتين متنابزتين؟

فتقول: نعم، ولا بد.

فأسألك: ألست تعلم أن الأمر سار علىٰ ذلك إلىٰ ما بعد انقضاء دولة بني أمية؟

فتقول: نعم، ولا بد.

فأسألك: ألست تعلم أنها استمرت إذن علىٰ ذلك منذ سنة ٤٠ من الهجرة إلىٰ وقت تدوين الكتب، أي في أواخر القرن الأول؟

فتقول: نعم، ولا بد.

فأسألك: ألست تعلم أنه ليس في أيدي الناس كتاب مكتوب قبل ذلك العهد؟

فتقول: نعم، ولا بد.

فأسألك: ألست تعلم أن طريق القوم كان هو الرواية فحسب؟

فتقول: نعم، ولا بد.

فأسألك: ألست تعلم عندئذ أن العقل يوجب أن تعرف راوي كل خبر حتىٰ تتبين من أي الشيعتين هو؟

فتقول: نعم، ولا بد.

فأسألك: ألست تعلم أنه ظلم قبيح أن تأخذ الخبر لا تدري من رواه، فتطعن به في أحد الرجلين، معاوية أو علي، وأنت لا تأمن أن يكون كذبًا صرفًا؟

فتقول: نعم، ولا بد.

فإذا صح كل هذا عندك، ولم تشغب عليّ فيه، فإني أراك رجلًا صالحًا، فهل تظن، ولا أقول هل تحقق عندك، أن هذا الطعَّان في معاوية وأهله، قد ميز هذا كله قبل أن يكتب ما كتب؟

فإن كان قد صح لك، فأنا أحب أن أعلم كيف صح لك، حتىٰ أتبعك علىٰ الحق. وإن لم يكن صح عندك، وهو لم يصح عندي بعد، فدعني عند قولي لك: أنا أنكر هذا

كله وينكره المؤمنون من قبلي، واذكرني دائمًا بأني لا أعد أمثال هذه الروايات - المجردة من رواتها، وفي مثل هذا الموضع المشتبه من العداوات - شيئًا يمكن أن أسلم به؛ فإني لا أحب أن أستهلك عقلي في العبث والجهالات. واعلم أني لا أنقاد لما لا بينة عليه، وأن للعقل شرفًا لا يرضىٰ معه بالتدهور في مواطن الغفلة وسوء الأدب، ولو أنت لم تعجل؛ لكان البيان آتيك بعد قليل عن الذي أستطيعه من ذلك وما لا أستطيعه، غفر الله لك، أقولها خالصة من قلبي، بلا مسوح وعظ وإرشاد!

وأنا آخذتك من أهون المآخذ في طريق العقل، فهناك طرق أخرىٰ أشق وأصعب في تمييز هذا العبث لم أدفعك إليها، وأرجو أن تصبر حتىٰ تعرفها يومًا، أو أن تحاول أنت أن تصل إليها بما أوتيت من حسن العقل؛ فإن المحاولة خليقة أن تفضي بك إليها. ولكن شرطها أن تدع العصبية لآراء الرجال، وبخاصة إذا كان هؤلاء الرجال ممن يبنون أقوالهم علىٰ الغلو، والتسرع، وسوء الفهم، وقبح المقصد، ومعاندة الحق، لهوًىٰ في النفوس يعلمه الله وحده، ولكن يدل مطلعه علىٰ أنه هوىٰ. فإذا فعلت؛ استطعت أن توفر علىٰ نفسك مطالبتي بنقد الحوادث التاريخية التي رواها صاحبك «نقدًا موضوعيًّا»! ومع ذلك فسأفعل حيث كتبت كلامي ما يرضيك.

ولكن علىٰ شرط أن أجد عندك ما أحب لك من حسن الظن فيك أن تعرف أن النقد الموضوعي الذي زعمت، ينبغي أن يسبقه التحقق من صحة هذه الحوادث تحققًا ينفي كل ظنه. وأستطيع أن أظن أني قدمت لك في هذه الكلمة ما يجعلك تقف من هذه الروايات التاريخية! موقف المتردد علىٰ الأقل، أنفة لعقلك وأدبك أن يزلا حيث زل من دافعت عنه.

أما الموضوع الذي نصبت له كلامي في مجلة «المسلمون» فهو سب الصحابة، وأظن أن الأستاذ يوافقني علىٰ أن كلام صاحبك خرج أولًا عن أن يكون تخطئة لمعاوية، ثم خرج عن أن يكون طعنًا فيه، ثم خرج عن أن يكون سبًّا. خرج من هذه المراتب الثلاث

إلىٰ مرتبة رابعة، هي أن معاوية بريء من الإسلام، والإسلام بريء منه. فأدنىٰ مراتب هذا القول أن يكون منافقًا، وآخرها أن يكون كافرًا بما جاء به الرجل الذي آمن به المسلمون وأمروا أن يسموه «رسول الله ﷺ».

ومن العسير أن أكتب في هذا الموضوع الآن دون أن أتوشح بذيل من ذيول «مسوح الوعظ والإرشاد»، فليأذن لي الأستاذ قليلًا أن أرد فضلة من الثوب الذي خلعت حتىٰ أستطيع أن أوضح له:

زعمت يا سيدي أن لي رأيًا، فقلت إني أثرت هذه العاصفة وحجتي الوحيدة: «أن كل صحابي رأىٰ الرسول وسمع عنه، قد اكتسب مكانة تحرم علىٰ كل إنسان أن ينقد أخطاءه أو يظهر أغلاطه».

ويلك! أنسبت إليّ شيئًا لم أقله قط كما ستعلم بعد، فلا تنس إذن أن مثل هذا جائز أيضًا أن يكون وقع من مثلك قديمًا، فنسب إلىٰ معاوية شيئًا لم يقله كما نسبت أنت إليَّ شيئًا لم أقله، ولكني كنت أحسن حظًّا من معاوية ﷺ، فإن كلامي مكتوب منشور، أما معاوية، فقد روىٰ الناس عنه شيئًا ذهب أصله؛ لأنه لم يكتبه كما كتبت. صدقني، فلست أدري من أين فهمت هذا الكلام الذي ترجمته؟

ولكن عذرك باد ظاهر؛ فإن دفاعك عن صاحبك دليل علىٰ أنك علىٰ الأقل تفكر كما يفكر، وهذه الطريقة هي نفسها طريقته التي أدعوك إلىٰ فراقها؛ حتىٰ لا تهلك عقلك فيما لا يجدي. والذي قلته بعد الخطبة المنبرية التي زعمتها، والتي بدأتها بقول رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي...»، هذا نصه: «وليس معنىٰ هذا أن أصحاب محمد رسول الله معصومون عصمة الأنبياء، ولا أنهم لم يخطئوا قط ولم يسيئوا، فهم لم يدعوا هذا، وليس يدعيه أحد لهم؛ فهم يخطئون ويصيبون، ولكن الله فضلهم بصحبة رسوله، فتأدبوا بما أدبهم به، وحرصوا علىٰ أن يأتوا من الحق ما استطاعوا، وذلك حسبهم، وهو

الذي أمروا به، وكانوا بعد توابين أوابين كما وصفهم في محكم كتابه. فإذا اخطأ أحدهم، فليس يحل لهم، ولا لأحد ممن بعدهم، أن يجعل الخطأ ذريعة إلىٰ سبهم والطعن عليهم. هذا مجمل ما أدبنا به الله ورسوله، بيد أن هذا المجمل أصبح مجهولًا مطروحًا عند أكثر من يتصدىٰ لكتابة تاريخ الإسلام من أهل زماننا، فإذا قرأ أحدهم شيئًا فيه مطعن علىٰ رجل من أصحاب رسول الله؛ سارع إلىٰ التوغل في الطعن والسب بلا تقوىٰ ولا ورع، كلا، بل تراهم ينسون ما تقضي به الفطرة من التثبت من الأخبار المروية، علىٰ كثرة ما يحيط بها من الريب والشكوك ومن الأسباب الداعية إلىٰ الكذب في الأخبار، ومن العلل الدافعة إلىٰ وضع الأحاديث المكذوبة علىٰ هؤلاء الصحابة (مجلة «المسلمون»، عدد ٣، ص ٢٤٧).

وأنا أكره أن أنقل كلامًا لي من مكان إلىٰ مكان، ولكنك استكرهتني علىٰ نقله، حتىٰ لا يقع في عقل أحد من قراء «الرسالة»، أني مستطيع أن أقول هذه المقالة المنكرة القبيحة بكل مسلم: إن للصحابة مكانة تحرم علىٰ كل إنسان أن ينقد أخطاءهم أو يظهر أغلاطهم، هذه يا سيدي، كلمة قبيحة جدًّا، وأقبح منها أن تجعلها ترجمة لكلام مكتوب باللغة العربية التي تكتب بها وتقرأ فيها أظن، ثم تنسبها إلىٰ امرئ يعرف حق الكلام ويلتزم مقاطعه ومطالعه وحدوده، وما يوجبه اللفظ من المعاني، وما يتناوله من دقيق الاستنباط. وأنا أشهد كل قارئ أني لم أقل ما قولتنيه، وأدع له حق الحكم بيني وبينك، أن يكون في كلامي حرف واحد يدل علىٰ أني أردت بعض هذا المعنىٰ الذي ترجمته كما ترجم صاحبك تاريخ معاوية ومن معه من الصحابة وتاريخ سائر بني أمية.

أفتظن أن قولي: إنه لا يحل لأحد أن يجعل «خطأهم» ذريعة إلىٰ سبهم والطعن فيهم معناه أنهم لا يخطئون أو أن أخطاءهم لا تنقد؟ وأين ذهب عمري إذن، إذا كنت لا أعلم أن الصحابة أخطئوا، وأن علماءنا رحمهم الله قد بينوا أخطاءهم حتىٰ فيما هو من أمور

دينهم؟ ولكن فرقًا كبيرًا بين أن تذكر عمل الصحابي أو قوله، وتأتي بالبرهان علىٰ أنه مما أخطأ فيه، وبين أن تجاوز ذلك إلىٰ الطعن فيه، ثم إلىٰ سبه، ثم إلىٰ إخراجه عن الدين، كما فعل صاحبك، وهذا فرق ليس بالخفي فيما أظن، ولا أظنك إلا تورطت فيه من شدة أثر صاحبك عليك، حتىٰ خدعك عما أنت خليق أن تكون من أهله. هذه واحدة أرجو أن تكون راجعًا عنها، منتفيًا من سوء أثر صاحبك عليك فيها.

وأخرىٰ تبين فيها سوء أثر صاحبك عليك، وهي تحديدك، فيما تزعم، لمعنىٰ «الصحابي»، واستدلالك بالكلمة التي جاءت في الخبر عن عبد الله بن أُبي «معاذ الله أن يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه». فهذه كلمة ذكرها، يخشىٰ أن تدور علىٰ ألسنة المشركين الذين لا يميزون مؤمنًا عن منافق، وكلهم عندهم من أصحاب محمد ﷺ، لا أن رسول الله يسمي المنافقين أصحابًا له!! وكيف وقد نزل عليه من ربه نفاقهم وكفرهم، ونهاه أن يصلي عليهم، وبينهم له بأعيانهم، فمعاذ الله أن يسمي رسول الله أحدًا من المنافقين الذين يعلمهم «صاحبًا». فمن سوء الأدب أن يقول مسلم: «فعبد الله بن أُبي من أصحاب محمد كما ينطق الحديث»، ومن قلة المعرفة بالعربية أن يقولها قائل، ومن التسرع البغيض أن يلجأ إليها باحث، ومن ضعف المنطق والفهم أن يحتج بها محتج؛ فهي حكاية قول يخشىٰ أن يقولوه، لا تسمية له باسم الصحبة. أعوذ بالله من الخطل! ورحم الله العرب ولسانهم!

أما ما حاول الأستاذ أن يجعله تحديدًا لمعنىٰ الصحابي، وهو ثلاثة أرباع مقاله، فأظنني لم أفهمه، ولم أدر ماذا كان يريد أن يقول ثم أخطأه، وأظن أنه أراد أن يقول في كل ما كتب: إن الصحابي هو الذي رأىٰ رسول الله ﷺ، وسمعه، وآمن به، ولازمه، ومات علىٰ إيمانه، ولم يرتد، ولم يشهد له رسول الله بنفاق، أو لم يذكر فيه حكم خاص من رسول الله، وهذا حق، إلا أن الأستاذ أدخل شرط الملازمة، وهو باطل من وجوه

كثيرة، لا أطيل بذكرها، ومع ذلك فإني أؤكد أن معاوية ممن صاحب رسول الله منذ رمضان سنة ثماني من الهجرة إلىٰ أن توفي بأبي هو وأمي ﷺ في ربيع الأول من السنة الثانية عشرة من مهاجره إلىٰ المدينة. وأما أبوه أبو سفيان؛ فقد ولاه ﷺ نجران وصدقات الطائف، ورسول الله لا يولي منافقًا!! وأما عمرو بن العاص؛ فلا أظن الأستاذ يستطيع أن ينكر هجرته ومصاحبته وبلاءه في الإسلام، وأما هند؛ فأسلمت يوم أسلم زوجها أو بعده بيوم في سنة ثماني من الهجرة. وهجران الأستاذ لمعرفة تاريخ هؤلاء الأربعة، عادة اكتسبها من الكتب التي يقرؤها، كتب تكتب بلا بينة ولا حذر ولا معرفة.

ولا أظن أني قرأت كلامًا لم أفهمه، كالذي قرأته في مسألة الصحابة، وإن كان الأستاذ بالطبع يظن بكلامه غير ما أظن، ولكني أنصحه مرة أخرىٰ أن يلتمس العلم في كتب من يلتمس عندهم العلم. وإذا كان يخشىٰ علىٰ دينه - ومعذرة ارتداء مسوح الوعظ والإرشاد -، فليأخذ أمر دينه عن ثقة في تمييز الصحيح من الزيف والحق من الباطل، وليدع أصحاب الأهواء حيث رضوا لأنفسهم منازلهم من مزالق الهوىٰ، وليستغفر ربه من الكلمة الكبيرة التي قالها حمية لصاحبه وغضبًا، أنه «قد يوجد في القرن العشرين من هم أفضل بكثير من بعض من عاصروا الرسول العظيم». والظاهر أن الأستاذ لا يعيش في هذا القرن العشرين عيشة العارف البصير، والظاهر أيضًا أنه يحتاج إلىٰ معرفة كثير مما خفي عليه من شئون أصحاب رسول الله ﷺ، ومن أمر دين الله الذي أكمله للمؤمنين، وأتم عليهم نعمته، ورضيه لهم ولنا دينًا، ونصيحة أخرىٰ إلىٰ الأستاذ أن يضع عن يده عبء القلم؛ فإنه ثقيل ثقيل. ولولا الحياء من أن أترك كلامه ومنطقه في الكتابة، بلا مجيب، لخففت عنه ثقل الكتابة وثقل الفكر وثقل القلم جميعًا، بالصمت عما جاء به ودخوله في أمور قلت معرفته بها، ويعجز فكره عن معاناتها، والسلام».

❊ ❊ ❊

رد على رد: أجل، ذو العقل يشقى[1]
بقلم الدكتور/ محمد رجب البيومي

حين يكتب القارئ نقدًا لمقال قرأه، يود من أعماق نفسه أن يصل إلىٰ الحقيقة علىٰ ضوء ما يعقب المقال من حوار وحديث، وواجب المنقود أن يواجه الحقائق سافرة واضحة، ثم يجيب عنها واحدة واحدة، إذ إن القراء يتتبعون النقاش فقرة فقرة، ويوازنون بين الطيب والخبيث في دقة بالغة، ويصدرون الرأي عن ثقة واقتناع.

وقد ناقشت الأستاذ شاكرًا، بما لا أستطيع أن أحيد عنه من الأدب والذوق، راجيًا أن أجد لديه الإجابة الشافية المقنعة، فماذا وجدت؟! وجدت أن الأستاذ المهذب قد خصني بكثير من الزراية والجهل وقلة المعرفة وضعف المنطق وسوء الأدب، وليته وقف عندي بشتائمه وسبابه، بل انتقل إلىٰ الأستاذ الكبير سيد قطب، فرماه ظالمًا بسوء الفهم، وولج إلىٰ ضميره، فاتهمه بقبح المقصد وخبث الطوية ومعاندة الحق لهوًىٰ في النفوس يعلمه الله، وبالحرص علىٰ تتبع المثالب القبيحة واجتناب المناقب الفاضلة وبالغلو الأرعن في سياق المثالب وتفسيرها، ثم ينضح إناؤه بهذه التهم الجاحدة ملقيًا بها في عنف وحدة إلىٰ قراء «الرسالة»، وهم جميعًا يعرفون فضائل قطب، فأين ذهبت عنه الحصافة والاتزان؟

وقد حاولت أن أجد لدىٰ الأستاذ في رده الطويل العريض شيئًا يقنع المنصفين، فما وجدت غير التنقص والسباب!! وقد دعوته في مقالي السالف إلىٰ هجر الوعظ والإرشاد في الجدل العلمي، فصاح يقول علىٰ رؤوس الأشهاد: «من العسير أن أكتب في هذا الموضوع دون أن أتوشح بذيل من ذيول الوعظ والإرشاد»، واندفع مع ذيوله

(١) نشر بمجلة الرسالة، العدد (٩٧٥)، سنة ١٩٥٢.

الضافية إلىٰ أبعد مدًىٰ وأقصاه، وهكذا ضاعت الحقائق التاريخية لدىٰ كاتب يزهىٰ بنفسه، فيقول: إنه (يعرف حق الكلام، ويلتزم مقاطعه ومطالعه وحدوده، وأن للعقل شرفًا لا يرضىٰ معه بالتدهور في مواطن الغفلة وسوء الأدب والخوض في العبث والجهالات).

ولا أريد أن أكيل للأستاذ صاعًا بصاع، ضنًّا بكرامتي، ولكني أحاول أن أجمع من مقاله العريض فقرات مبعثرة مضطربة في أنحائه، ساقها مساقًا مهلهلًا لا يعرف الدقة والحدود! لأستطيع دحضها بالرأي الموجز الصريح، جزعًا علىٰ الحقيقة العلمية من الغرق في أطناب المنابر وإسهاب الخطباء.

لقد سطر الكاتب خمسين سطرًا من مقاله تبدأ من قوله: «دعني أيها السيد، أعيد عليك، إلىٰ قوله: خالصة من قلبي بلا مسوح وعظ وإرشاد»! سطر هذه السطور؛ ليقول: «إن أخبار معاوية وعلي جاءت عن طريق الرواية فحسب، ولكلا الرجلين شيعته التي تنسج الحوادث وتلفق الأخبار»، وقد كنت أقرأ سطوره الطويلة وأنا أسأل نفسي: أذلك نقاش أم مجرد كلام؟ ولو كانت النتيجة التي وصل إليها الكاتب صحيحة؛ لعذرناه وسكتنا عنه، ولكنها باطلة كل البطلان، ولو جاز لإنسان أن يأخذ بها في شيء؛ لمزقنا جميع صحف التاريخ الإسلامي من أول عام في حياته إلىٰ مائة عام أتت عليه، فلا نتكلم عن أبي بكر وعمر وعلي ومعاوية ويزيد والحسين وعمر بن عبد العزيز!! حتىٰ يعرف الأستاذ شاكر، اسم الراوي وأباه وأمه، ولحسن الحظ أن كتاب التاريخ ورواته لم يستمعوا لهذه الضجة وقدموا إلينا مددًا وفيرًا من الأحداث التاريخية!! ولم تسجل حوادث معاوية وأضرابه عند مؤرخ واحد حتىٰ يتهمه الأستاذ بالافتراء والهوىٰ، ولكنها أنباء متواترة، رواها جميع المؤرخين دون استثناء، ولو أن شيعة علي وحدهم الذين اختلقوا مثالب معاوية، لسكت عنها بعض المؤرخين، ولكن هيهات... هيهات!

فهل وجد من المؤرخين من أنكر أن معاوية قد أحال الخلافة إلىٰ ملك عضوض

مخالفًا بذلك تعاليم الإسلام؟ وهل وجد من المؤرخين من أنكر أن يزيد بن معاوية قد فرضه أبوه مدفوعًا إلىٰ ذلك بدافع لا يعرفه الإسلام؟ وهل وجد من المؤرخين من أنكر أن معاوية قد جعل جزءًا من بيت المال للرشوة وشراء الضمائر في بيعة يزيد؟

لم يوجد من أنكر ذلك من المؤرخين، ولكن الأستاذ شاكرًا ينكره ويدعي أن المؤمنين قبله قد أنكروه، وهو بحمد الله لم يكن مؤرخًا، ولا نعلم أنه خط كتابًا في التاريخ، فلم ينسب نفسه إلىٰ قوم ليس معهم؟

ويدعي الأستاذ أنه لم يفهم شيئًا مما كتبته في تحديد معنىٰ الصحابي، فإذا وجدني أستدل بحديث الرسول عن عبد الله بن أُبي؛ لجأ إلىٰ مخرج ينقذه مما واجهته به، فذكر أن الرسول قال: «**معاذ الله أن يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**»، خشية أن تدور علىٰ ألسنة المشركين الذين لا يميزون مؤمنًا عن منافق، وكلهم عندهم من أصحاب محمد ﷺ! !

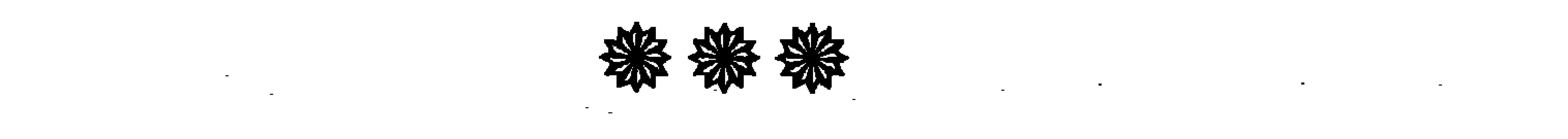
وأنا أقول للأستاذ: إن المشركين كانوا يميزون المؤمن عن المنافق، ويعرفون نفاق ابن أُبي كما يعرفه المؤمنون سواء بسواء، بل إنه تعاهد معهم علىٰ التنكيل بالدعوة المحمدية، ولمسوا من نفاقه ما شجعهم علىٰ التعاون معه، وكان إذا خلا إليهم يقول: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، فليس هناك مشركون لا يميزون مؤمنًا عن منافق، وعلىٰ الأستاذ أن يبحث له عن مخرج آخر، لو يستطيع! !

وإذا كان الأستاذ يصمني بالجهل وسوء الفهم وقلة المعرفة، ثم ينقل فقرات طويلة من مقاله ليبين لقراء «الرسالة» حقيقة ما قال، ومن هذه الفقرات قوله: «فإذا أخطأ أحدهم، فليس يحل لهم ولا لأحد ممن بعدهم أن يجعل الخطأ ذريعة إلىٰ سبهم والطعن عليهم». إذا كان الأستاذ ينقل ذلك، فلم لم يجب عما وجهته إليه بشأن هذه الفقرة، فقد قلت: إن الصحابة قد طعن بعضهم بعضًا واستباحوا ما حرمه عليهم، أفيكونون بذلك قد خرجوا عن منهج الإسلام أم أن الأستاذ شاكرًا يرسل كلامه في الهواء، فإذا ناقشه

كاتب متواضع مثلي لجأ إلىٰ الشتائم والسباب!!

ولقد دعوت الأستاذ إلىٰ النقد الموضوعي، فقال في الرد علىٰ ذلك: «إن النقد الموضوعي ينبغي أن يسبقه التحقق من صحة هذه الأحداث تحققًا ينفي كل ظنة»، وأنا أقول له: ما دمت تنكر هذه الأحداث المتواترة لدىٰ المؤرخين، فلن تقدم للقارئ ما يقنعه ويشفيه، وأنا أعلم أن الطعن في رواية الآثار الفردية سائغ ومقبول، أما الوقوف في وجه التاريخ وتفنيد ما أجمع عليه المؤرخون بلا دليل، فلم يجد من يصغي إليه في كثير أو قليل.

ولقد نصحني الأستاذ شاكر أن أضع عن يدي عبء القلم؛ فإنه ثقيل ثقيل، وذكر أن الحياء يمنعه أن يترك كلامي بلا مجيب! ! وأنا أعجب للحياء الذي يمنع صاحبه من الصمت المريح، ثم يدفعه إلىٰ السب المقذع والطعن الجارح في كاتب كبير كالأستاذ سيد قطب! ! فضلًا عما وجهه إليَّ من قذائف ظالمة، ثم ما الفرق بيني وبينه حتىٰ يطلب إليَّ أن أكف عن الكتابة؟ وما هي مؤلفاته التي تبيح له أن يتقدم إليّ بمثل هذا الأمر؛ لأحفظ له حقه في الإرشاد والتوجيه؟! أخشىٰ أن يكون استياؤه المفزع من نشاط الأستاذ قطب وإنتاجه قد دفعه إلىٰ الهجوم عليَّ بألفاظه الحداد! ! وإني لأستغفر الله له رغم ما أصابني من كلوم.



أعتذر إليك![1]
بقلم العلامة/ محمود محمد شاكر

أكتب هذه الكلمة محزون النفس لشيء اجترحته، كان أولىٰ بي أن أصبر؛ حتىٰ لا أزل عليه. وذلك أني قرأت كلمة في بعض المجلات يقول فيها كاتبها: «فإذا مُنع الفقير حقه، فله أن يقاتل عليه؛ لأن الله يأمر بقتال الباغين: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

ولا شك أن مانع الحق باغ، فاحتملتني العجلة وسوء الظن أن أرىٰ الكاتب قد استدل بالآية في غير مكان الاستدلال بها، فساء قولي في الرجل بين جماعات من الناس؛ إذ لم يقع لي إلا أن الآية في اقتتال طائفتين من المؤمنين، ثم بغي إحدىٰ الطائفتين علىٰ الأخرىٰ.

ولما سكن بي الليل أمس (السبت ١٢ جمادىٰ الآخرة سنة ١٣٧١هـ)، حاك في قلبي شيء لم أدر ما هو، وألح عليَّ أن اكتسبت في أيامي هذه إثمًا أخشىٰ أن لا أفلت من عقابه، وارتفعت لعيني هذه الآية بختامها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ [الحجرات: ٩]، فرأيت من العدل والقسط أن أرجع إلىٰ تفسيرها وإلىٰ أقوال الأئمة في قتال أهل البغي، فعرفت ما لم أكن أعرف، أن بعضهم قد استدل بها في مثل ما استدل عليه الكاتب الفاضل، وإن كان لطريقة الاستدلال عندهم نهج غير نهجه وقيد فيما أطلقه. وإذا أنا قد ظلمته ظلمًا لا ينبغي، فلم أزل منذ تلك الساعة أستغفر الله لما فرط مني وما جرىٰ من لساني من الكلم السيئ، واستغفرت له بما أسأت إليه بظهر الغيب.

فلما قرأت «الرسالة» في صباح ليلتي (الأحد ١٣ جمادىٰ الآخرة)، كنت أوشك أن لا أحمل القلم مرة أخرىٰ للرد علىٰ الكاتب الفاضل في مقاله: «أجل... ذو العقل

---

(١) مجلة الرسالة، العدد (٩٧٦)، لسنة ١٩٥٢.

يشقىٰ». ولكني وجدت السبيل قد تيسر لي أن أعتذر من سيئة اكتسبتها في الإساءة إلىٰ رجل بظهر الغيب، لنفس الداء الذي نهيت الأستاذ عنه، وهو العجلة، وأنا لم أقصد نهيه إلا لما فيه خير له ولي إن شاء الله.

وقد تبين لي بعد قراءة كلمته أني أخطأت أيضًا في الذي كتبت به إليه، فوقعت بما كتبت في نفس ما نهيته عنه، وما كان أغناني عن هذه الخصلة السيئة التي تجلب عليَّ غضب أستاذ فاضل، لم أسمع به ولم أعرفه ولا أظنه يعرفني، والأستاذ الفاضل بلا ريب هو عندي أكبر مما ظن في نفسه، وإذا كان هو قادرًا علىٰ أن يضن بكرامته، فالواجب عليَّ أنا من قبله أن أضن بكرامته، وإذا كانت كرامته تأبىٰ أن تنزل منزلة يوجه إليه من أجلها شيء يقدح فيها، فأنا أيضًا أنزهه عما ظن في كلامي من «الشتائم والتنقص والسباب»، وإذا كان كلامي الطويل العريض، كما وصف، ليس فيه شيء يقنع المنصفين، وليس هو إلا فقرات مبعثرة مضطربة أسوقها مساقًا مهلهلًا لا يعرف الدقة ولا الحدود، وإذا كان كل ما أقوله لا أبغي منه إلا إرسال الكلام في الهواء، وإذا كنت عنده لست مؤرخًا ولم أخط كتابًا في التاريخ، وأني أدخلت نفسي في قوم لست منهم؛ فأظن أن واجبه علىٰ الأقل أن يلغي كل ما أقول بمرة؛ فإن من الشقاء له أن يتعقب كلام كاتب هذا شأنه.

وأنا لا أستطيع صادقًا أن أفهم الأستاذ الفاضل شيئًا مما أقول، فقد عرفت هذا بالتجربة، وإذا كان مما يرضيه أن أقول له إني مخطئ في كل ما قلت قديمًا، وما أقوله الآن، وما سوف أقوله، إلىٰ أن يكف لساني وقلمي عن اللجاجة وإرسال الكلام، فأنا أقول له: إني أخطأت، وسوف أخطئ، ولن يسمع مني إلا ما أنا مقر علىٰ نفسي بأنه خطأ محض، وأزيده أني عاجز كل العجز عن مقاومة حجته وعن دفع براهينه وعن التصدي لما يحسنه من العلم.

ويبد أني أعود فأسأله أن يتغمد سوء أدبي بفضله، وإذا كان قد استخرج من كلامي سبابًا وشتائم، فأنا أعيذه أن يكون غرضًا لها، وأعتذر إليه، وأستغفر الله مما أزلفت إليه من إساءة، وله أحسن الأسوة في أصحاب رسول الله ﷺ، فإن بعض السفهاء لم يتورعوا قط عن سبهم والطعن فيهم بأقبح اللفظ. فأين يقع مثلي من هؤلاء، فأنا مهما ملكت من السباب والشتائم والبذاءة وسوء الأدب، فلن أبلغ بعض ما بلغوا من هؤلاء الصحابة، فلا عليه مني ومن سبابي وشتائمي.

وليعلم الأستاذ الفاضل إن كان لا يعلم، أن هؤلاء السفهاء في الدنيا كثير، فإذا كان يغضب لكل سفاهة من سفيه، فإن شقاءه سيطول بغضبه، فدع السفهاء وليقولوا ما شاءوا، وكن أنت ضنينًا بكرامتك؛ فإنها أعز وأغلىٰ من أن تبذل علىٰ الألسنة. وتقبل إن تفضلت عذري وشكري واحترامي وتقديري، وعجزي عن مخالفتك، وحبي لرضاك، وقد بلغت مني في مقالك ما شئت، وناصيتي بيدك، وفي المثل: «ملكت فأسجح». فافعل مؤيدًا منصورًا، والسلام.

❁ ❁ ❁

بيان إعراض سيد قطب عن الحق
إلى أخي الأستاذ محمد رجب البيومي[1]
بقلم الأستاذ/ سيد قطب

السلام عليكم ورحمة الله؛ وبعد، فإنني لم أرد أن أدخل بينك وبين الأستاذ شاكر فيما شجر بينكما من خلاف، حتىٰ ينتهي إلىٰ غايته، كما انتهىٰ. ذلك أنني كنت حريصًا علىٰ أن أدعك ورأيك، وألا أبدأ تعارفي بك في زحمة الجدل، وإن ظن أخونا شاكر أن بيننا صحبة وثيقة هي التي تدفعك إلىٰ رد تهجمه أو تقحمه، حتىٰ لقد أنذرنا معًا عداوة يوم القيامة: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف: ٦٧]؛ لأن مألوف الناس قد جرىٰ في هذا الزمن الصغير، علىٰ أن الحق وحده، أو الرأي وحده، لا يكفي لأن يدفع كاتبًا فيكتب، دون هوًىٰ من صداقة أو علاقة!

ولو كانت بيننا معرفة سابقة، ولو استشرتني قبل أن تدخل مع صاحبنا في جدل، حول ما أثاره من صخب، وما نفضه من غبار؛ لأشرت عليك ألا تدخل، ولآثرت لك ما آثرته لنفسي من إغضاء وإغفال؛ ذلك أنني لم أستشعر في هذا الصخب الصاخب أثرًا من صفاء نية، ولا رغبة في تجلية حقيقة، ولو استشعرت شيئًا من هذا؛ ما تركت صاحبي دون أن أجيبه - علىٰ الأقل من باب الأدب واللياقة -، ولكنني اطلعت علىٰ أشياء، ما كان يسرني والله أن أطلع عليها في نفس رجل ربطتني به مودة أصفيتها له في نفسي، بعدما كان بيننا من جدل قديم يعرفه قراء «الرسالة» عام ١٩٣٨، وما أزال أرجو أن أكون مخطئًا فيما أحسست به، وأن تبقىٰ لي عقيدتي في ضمائر الناس، وفي الخير الذي تحتويه فطرتهم.

---

(١) مجلة الرسالة، العدد (٩٧٧)، لسنة ١٩٥٢.

ولو كانت الحقائق هي المقصودة، لما احتاج الكاتب الفاضل إلىٰ اصطناع مثل هذا الأسلوب الصاخب المفرقع، ولما لجأ منذ مقاله الأول في «المسلمون» إلىٰ الشتم والسب والاتهام بسوء النية وسوء الخلق والنفاق والافتراء والسفاهة والرعونة. إلىٰ آخر ما خاضه - ويغفر الله له فيه -، فدون هذا تعالج أمور النقد العلمي، وبغير هذا الأسلوب يمكن تمحيص الحقائق.

إنه لا معاوية ولا يزيد، ولا أحد من ملوك بني أمية قد اغتصب مال أبي أو جدي، أو قدم إلىٰ شخصي مساءة ولا إلىٰ أحد من عشيرتي الأقربين أو الأبعدين.. فإذا أنا سلكت في بيان خطة معاوية في سياسة الحكم وسياسة المال، وخطة الملوك من بعده (فيما عدا الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ﷺ) مسلكًا غير الذي سلكته في بيان خطة أبي بكر وعمر وعلي رضوان الله عليهم جميعًا[1]؛ فليس أول ما يتبادر إلىٰ الذهن المستقيم، والنية السليمة، أن ما بي هو سب صحابة الرسول ﷺ، لا عن خطإ، ولكن عن رغبة قاصدة في إفساد الإسلام، وسوء نية في تدنيس المسلمين!!

وكتاب «العدالة الاجتماعية» مطبوع متداول منذ أربع سنوات، وطبعته الثالثة في المطبعة، والصخب حوله الآن فقط، قد يشي بشيء لا أرضاه للصديق. وقد قرأه الناس في أنحاء العالم الإسلامي، فلم يستشعر أحد من موضوعه ولا من سياقه، أن النية السيئة المبيتة لهذا الإسلام وأهله هي التي تعمر سطوره!

إنما أحس الألوف الذين قرءوه - أو علىٰ الأقل المئات الذين أبدوا رأيهم فيه - أن كل ما كان يعنيني هو أن أبرئ الإسلام من تهمة يلصقها به أعداؤه، وشبهة تحيك في نفوس أصدقائه؛ إذ يحسبون أن سياسة بني أمية في الحكم وسياستهم في المال، تحسب علىٰ الإسلام، والإسلام بريء من هذا الاتهام.

---

(١) انظر إلىٰ إسقاطه لخلافة عثمان بن عفان ﷺ.

روىٰ سعيد بن جمهان، عن سفينة مولىٰ رسول الله ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك». ثم قال سفينة: أمسك؛ خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي. فوجدناها ثلاثين سنة. قال سعيد: قلت له: إن بني أمية يزعمون أن الخلافة فيهم: قال: كذبوا بنو الزرقاء، بل هم ملوك من شر الملوك. رواه أصحاب السنن بسند حسن[١].

وأحسب لقد كان بنفسي - وأنا أعرض النظام الاجتماعي في الإسلام - أن أقول شيئًا كالذي قاله مولىٰ رسول الله ﷺ - لا عداء شخصيًّا لبني أمية، ولكن تبرئة للإسلام من أن تحسب عليه سياسة لا يعرفها، لا في الحكم ولا في المال، والإسلام منها بريء، فيجب أن يعرف الناس براءته، وأن يعرض عليهم في صورته التي عرفتها الخلافة السمحة، وأن ينفىٰ عنه ما لحقه في عهود الظلام والاستبداد[٢].

وما كان لي بعد هذا، وأنا مالك زمام أعصابي، مطمئن إلىٰ الحق الذي أحاوله، أن ألقي بالًا إلىٰ صخب مفتعل، وتشنج مصطنع.. وما كان لي إلا أن أدعو الله لصديقنا شاكر بالشفاء والعافية والراحة مما يعاني، والله لطيف بعباده الأشقياء.

أما أنا فما أحب أن يكون لي مع قوم خرجوا علىٰ خليفة رسول الله، وقتلوا ابن بنت رسول الله، ورموا وحرقوا بيت الله، وساءوا في سياسة الحكم وفي سياسة المال علىٰ غير هدىٰ الله... أدب أرفع من أدب مولىٰ رسول الله، الذي أدبه ورباه.

نشر المقال في باب «البريد الأدبي» بمجلة «الرسالة»، العدد (٩٧٧)، سنة ١٩٥٢.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٤٢١)، والترمذي (٢٢٢٦)، وأبو داود (٤٦٤٦)، وصححه العلامة الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٥٩) دون قوله: (قال سعيد: فقلت له: إن بني أمية...) إلخ فقال: قلت: وهذه الزيادة تفرد بها حشرج بن نباتة عن سعيد بن جمهان، فهي ضعيفة.

(٢) انظر إلىٰ طعنه في معاوية ﷺ وما بعده من الخلفاء، والنبي ﷺ يقول: «لا يزال الإسلام عزيزًا إلىٰ اثني عشر خليفة» رواه مسلم (١٨٢١) وهو يشمل خلفاء بني أمية.

أنا مع سيد قطب[1]

بقلم الأستاذ/ علي الطنطاوي[2]

لما كانت المعركة الأولىٰ (سنة ١٩٣٨) كنت مع الأستاذ شاكر علىٰ الأستاذ سيد قطب، فكيف أكون الآن مع قطب علىٰ شاكر؟

ذلك لأني دائمًا مع ما أرىٰ أنه الحق. والأستاذ شاكر صديق من ربع قرن، والأستاذ قطب رفيقي علىٰ مقاعد الدرس في دار العلوم من ربع قرن، وليس بي الآن مدح ولا هجاء، ولا إغضاب ولا إرضاء، ولكن بيان الحق الذي أراه، ولعلي مخطئ في ما أرىٰ.

وأنا أعلم أن للصحابة منزلة لا يدنو منها أحد منا، وأننا مهما سعىٰ الصالحون منا فإنهم لا يلحقون غبار أحدهم، فضلًا عن أن يحاذوه أو يسبقوه. وإن لبني أمية في نشر الإسلام وفي فتح الفتوح فضلًا لا ينكره أحد، وأنه كان منهم عظماء حقًّا إن عد عظماء الرجال، ولكن هل كانت دولة بني أمية دولة إسلامية؟

لقد هدم معاوية أكبر ركن في صرح الدولة الإسلامية حين أبطل الانتخاب الصحيح، وجعله انتخابًا شكليًّا مزيفًا، وترك الشورىٰ، وعطل الكفايات، وسن هذه السنن السيئة، بل هذه الجناية التي جرت أكثر البلايا، والطامات التي تملأ تاريخنا السياسي، فهل نقول لمعاوية: أحسنت في هذا؟ بل إني لأسأل، هل يقول هذا محمد رسول الله ﷺ لو كان حيًّا؟

إن معاوية صحابي جليل، وله مناقبه وفضائله، ولكن حكم الدين علىٰ الجميع، ومقاييس الإسلام يقاس بها كل كبير، فهل كان معاوية في عمله هذا متبعًا أحكام

---

(١) مجلة الرسالة،(٩٧٨)، لسنة ١٩٥٢.

(٢) الأستاذ/ علي الطنطاوي من كبار الإخوان ببلاد الشام.

الإسلام؟ هذه واحدة وإن كانت بألف.

وهذا الاستبداد، والحكم الفردي، الذي سار عليه ملوك بني أمية، وتحكيم آرائهم وشهواتهم في مصلحة الأمة، ودماء أفرادها وأموالهم، دون تقيد بكتاب أو سنة، أو رجوع إلىٰ علم أو فقه، هل هو من الإسلام؟ واختيارهم شر الولاة، من الطغاة الظالمين وتحكيمهم في رقاب الناس، هل هو من الإسلام؟ هل يقر الإسلام تولية مثل الحجاج علىٰ رجولته وعظمة نفسه، وخالد القسري، وأمثالهما من الجبارين؟ وإثارتهم العصابات والخلافات بين القبائل وبين الشعراء، وتمهيدهم سبيل اللهو والاستهتار، لأنفسهم وللناس، لا سيما جيران بيت الله وأهل مدينة رسول الله؟ وعدوانهم علىٰ الحريات، وعلىٰ المقدسات، وقتلهم العلماء من أمثال الحسين وسعيد بن جبير، وإيذاؤهم سعيد بن المسيب، وضربهم الكعبة بالحجارة وبالنار، هل هو من الإسلام؟

إن هذه كلها أشياء ثابتة، لم يفترها عدو، ولم يضعها خصم، وهذه كلها تناقض الإسلام أشد التناقض، بل إن بعضها لم تأت بمثله الجاهلية الأولىٰ.

وما كان عليه العباسيون ومن جاء بعدهم، من الطغيان والعدوان علىٰ الأنفس والأموال واتباع غير سبيل الهدىٰ، كل ذلك يُسأل عنه بنو أمية؛ لأن من سن سنة سيئة؛ كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلىٰ يوم القيامة.

وأنا أُكبر بني أمية، وأمجد آثارهم، وأرفع أقدارهم، لكن لا أستطيع أن أقول: إن دولتهم كانت دولة إسلامية؛ لأني أكون قد مدحتهم بذم الإسلام، والإسلام أحب إليّ وأعز عليّ من بني أمية، وبني هاشم، وأهل الأرض جميعًا.

نشر التعليق في باب «البريد الأدبي»، بمجلة «الرسالة»، العدد (٩٧٨)، سنة ١٩٥٢.

كلمة تقال!![1]

بقلم العلامة: محمود محمد شاكر رحمه الله

سلام عليك، يقال في المثل: (كرهًا تركب الإبل السفر). وقد استطعت أنت أن تكره العلم إلىٰ ما أردت أن أنزهه عنه.

فلولا ما أضمرت من قديم المودة لك، ولولا ما عرفت من صدقك، ولولا أنني أجلك عن أن تكون عجولًا إلىٰ غير صواب، ولولا أني أكره أن تأخذ عني شيئًا لم أقله بلساني، لولا ذلك كله، لكان أبغض شيء إليّ أن أستكره نفسي علىٰ غير ما رأيت أنه أجمل بي وأصون. وإنك لتعلم، أيها الصديق القديم، أني أكره أن أزداد من الشر، أو أن أتزود من لجاجة الباطل، والكتابة في زماننا هذا شر مستحكم، وباطل لجوج متوقح. وقد اقتحم وعرها من لا يحسن المشي في سهولها، وتشهاها من لو أنصف نفسه؛ لحال بينها وبين ما تشتهي، واتخذها صداعة من لو عقل؛ لأعفىٰ نفسه من مزاولتها، ولكن هكذا كان، ورحم الله الطائي إذ يقول لمحمد بن عبد الملك الزيات:

أبـا جعفـر، إن الجهالـة أمهـا ... ولـود، وأم العلـم جـداء حائـل

أرىٰ الحشو والدهماء أضحوا كأنهم ... شعوب تلاقت دوننا وقبائل

غدوا، وكأن الجهل يجمعهم بـه ... أب، وذوو الآداب فـيهم نواقـل

وأنت تعلم أن من أنصب النصب أن تتصدىٰ لإفهام من لا يفهم عنك، فإذا بلغ الأمر أن تراه يتصعب لجدالك، فاذكر قول من قال: إذا أردت أن تفحم عالمًا فأحضره جاهلًا. وقد لقيت أنا من شر ذلك ما لقيت، فآثرت أن أسلك سبيلي لا يشغلني عنه

---

[1] مجلة الرسالة، (٩٧٩)، لسنة ١٩٥٢.

بأذيالي، إرادة أن يصرفني عن الوجه الذي أردت.

ولقد قرأت كلمتك في «الرسالة»، فأسفت أشد الأسف؛ لأني عرفت منها أنك لم تقرأ ما كتبته في مجلة «المسلمون» وفي أربعة أعداد منها. ولو كنت قرأتها؛ لما كتبت ما كتبت؛ لأني لا أشك في ذكائك وحسن فهمك. فأنا لم أتعرض في شيء منها لبني أمية أو بني العباس، ولا لحكمهم، ولا لسياستهم، فعجبت أشد العجب كيف يمكن أن تكون معي أو علي في أمر لم أقل فيه كلمة، ولا يعلم أحد ممن كتب رأيي فيه، ولا كيف أقول إذا أنا تعرضت للبيان عنه؟ فمن أجل ذلك عجبت؛ لأنك لم تنصف علىٰ عادتك من الإنصاف. وأنا محدثك باختصار عن هذا الذي كتبته.

أصل ذلك كله أني رأيت من كتب المحدثين في شأن تاريخ الماضين من أسلافنا، يكتب أو يتحدث بأسلوب أقل ما يقال فيه: إنه مشوب بالحماقة الشديدة، مختلط بالجهالة المتراكبة، في معرفة أصول التاريخ، مغموس في حمأة من الافتراء والتطاول، مستنقع في أهواء سيئة ورديئة. وزعمت أن للناس أدبًا وأسلوبًا في كتابة التاريخ، وأن للمسلمين خاصة أدبًا وأسلوبًا في التاريخ ينبع من أصل دينهم، في العدل، وفي حسن النظر، وفي الأناة في طلب الحق، وفي كف اللسان عن التهجم بالقول السيئ علىٰ عباد الله بلا بينة، وفي التناهي عن اقتفاء المرء ما ليس له به علم، وفي التثبت من الأخبار قبل تصديقها، وهو أدب كما تعلم كان قديمًا في كتبنا.

ولكن حضارة هذا القرن قد نشرت وباءً شديد الفتك، ذهب بأكثر هذا الأدب، وأخذت في طريقي أضرب المثل علىٰ هذا بكاتب رأيته لم يتورع عن سلب الناس دينهم، ولم يخش الله في نفي الإسلام عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ، وفي تصوير أعمالهم بصورة أعمال المنافقين، وفي أخذ الروايات الباطلة وجعلها دليلًا علىٰ الغميزة في إيمانهم، وفي رد الروايات الثابتة الصادقة بروايات كاذبة ادعاها مدع من الرافضة، إلىٰ

غير ذلك مما سأبينه فيما أكتب في مجلة «المسلمون»، وزعمت أن هذا ليس ديدن هذا الكاتب وحده، بل صار ديدنًا لأكثر من يكتب الآن في شيء من تاريخ هذه الأمة المسلمة، حتىٰ صار الطعن في صحابة رسول الله أمرًا مرتكبًا بلا حذر.

وما دمت لم أزد في كلامي علىٰ هذا، فلست أدري بعد ما الذي يحملك علىٰ أن تخذلني أو تنصرني في أمر لم أنطق بعد فيه بكلمة!

نعم! قد يكون رأيي فيما أبديت أنت فيه رأيك، مخالفًا لك، ولكني لم أتكلم بعد فتعرف حجتي فيه. بل لعلي إذا كنت لك مخالفًا، ثم عرضت عليك خلافي لك، أن تكون أسرع إلىٰ موافقتي منك إلىٰ الخلاف علي، حين ترىٰ في ما أقول صوابًا يرضيك.

أليس هذا جائزًا، وممكنًا أيضًا؟ فإذا رأيتني بلغت في سياق مقالاتي في «المسلمون» إلىٰ ذكر دول الإسلام، فعندئذ فقل، فأنا أقبل منك ما تقول. واعلم أني لا آنف أن أصير إلىٰ الحق إذا عرفته. ولقد عشت علىٰ هذه الأرض زمانًا طويلًا، واعتقدت منذ عقلت آراء كثيرة، ثم تبين لي أن الحق في خلافها، فرجعت عنها جملة، ولم أبال بما كنت أرىٰ. ولعلك أنت خاصة تعلم من ذلك ما لا يعلمه غيرك.

وأنا أحب أن ترجع إلىٰ ما كتبته في مجلة «المسلمون»، ولا تأخذ كلام أهل اللجاجة، فإنهم أوهموك، فيما أظن، أني قلت شيئًا، والحقيقة أني لم أقل بعد فيما تناولته أنت شيئًا، وأنا أعيذك أن تتورط في هذا الشر الذي نجاهد جميعًا في دفع الناس عنه، وهو أخذ الأقوال بلا بينة، وبلا حجة، وبلا برهان، ولك مني تحية كنت أحب أن تبلغك، علىٰ غير هذه الراحلة المكرهة علىٰ ارتكاب طريق دنسته الأقدام، والسلام.

❋❋❋

اعتذار الأستاذ/ علي الطنطاوي للعلامة/ محمود شاكر رحمه الله

أخي الأستاذ محمود شاكر

علي الطنطاوي[1]

صدقت والله، أني لم أقرأ ما كتبت في «المسلمون»، ولقد فهمت مما قرأت في «الرسالة» أن الخلاف على دولة بني أمية، فقلت الكلمة التي لا أزال أراها حقًّا، وأنا أعتذر إن كنت قد أخطأت الفهم، أو أسرعت في الحكم، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

❋ ❋ ❋

(١) مجلة الرسالة، (٩٨١)، لسنة ١٩٥٢م.

لا يا حضرة القاضي، أنا مستأنف[1]
للأستاذ عبد الجواد رمضان

قرأت ما كتب القاضي الفاضل الأستاذ علي الطنطاوي في العدد الأخير من «الرسالة»، تحت عنوان: «أنا مع سيد قطب».

ولا كلام لي مع سيد قطب، ذلك الأستاذ الذي أحبه وأجله - علىٰ غير رابطة ولا اتصال -، وأشهد الإخلاص في كل ما يكتب، وإن خالف وجهة نظري أحيانًا؛ ولا مع تلميذي وصديقي الأستاذ رجب البيومي، الذي آلمني - علم الله - أن يتورط في موقف لا خير فيه.

وإنما دفعني دفعًا إلىٰ كتابة هذه الكلمة حديث ذلك الكاتب الرائع، المؤمن حق المؤمن، الذي تطير به كتاباته إلىٰ آفاق من الروحية، يعييني التطلع إليها عند غيره من كرام الكاتبين: الأستاذ علي الطنطاوي، وما أصدره من أحكام تعوزها الحيثيات ويخونها التعليل.

وقد حاولت أن أهزمه بضربة قاضية من أول جولة؛ حتىٰ لا أدع له فرصة مساجلتي أو الرد علي، فبحثت في أعداد «الرسالة» التي تملأ البيت عن مقال له في بني أمية نشرته منذ سنتين أو ثلاث علىٰ ما أذكر، طار بهم فيه إلىٰ عنان السماء؛ ثم أنسخه وأبعث به إلىٰ «الرسالة»؛ لتعيد نشره من جديد، فأظفر بالقلج من أيسر طريق؛ ولكن الحظ كان معه علي، فقد ذهب بحثي أدراج الرياح، بعد عناء طويل.

وإني أختصر الطريق إلىٰ فضيلة القاضي، فألقاه وجاهًا، دون مداورة، ولا مجاملة، ولا احتيال؛ وأقرر - في صراحة - أنه أحال في اعترافه «بأن لبني أمية في نشر الإسلام

---

(١) العدد (٩٨٠) بتاريخ: ١٤-٠٤-١٩٥٢.

وفي فتح الفتوح فضلًا لا ينكره أحد، ثم إنكاره أن تكون دولتهم دولة إسلامية، وأنه أخطأ في أن معاوية هدم أكبر ركن في صرح الدولة الإسلامية حين أبطل الانتخاب الصحيح وجعله انتخابًا شكليًّا مزيفًا، وترك الشورىٰ... إلخ إلخ.

ومعاوية - رضي الله تعالىٰ عنه - من كبار أصحاب رسول الله ﷺ، وأحد كتاب وحيه؛ والخلافة مسألة اجتهادية لم ينص فيها الشرع علىٰ وضع معين، اتكالًا علىٰ الاجتهاد فيها لمصلحة المسلمين؛ فقد لحق الرسول بالرفيق الأعلىٰ دون أن يقرر فيها رأيًا خاصًّا، واستخلف أبو بكر عمر بنَ الخطاب رضي الله عنهما؛ ووضعها عمر في أهل الشورىٰ، روىٰ الطبري أن عمر رضي الله عنه لما طعن، قيل له: يا أمير المؤمنين، لو استخلفت؟ قال: من أستخلف؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيًّا استخلفته، فإن سألني ربي؛ قلت: سمعت نبيك يقول: «إنه أمين هذه الأمة»، ولو كان سالم مولىٰ أبي حذيفة حيًّا، استخلفته، فإن سألني ربي؛ قلت: سمعت نبيك يقول: «إن سالمًا شديد الحب لله». فقال له رجل: أنا أدلك عليه، عبد الله بن عمر، فقال: قاتلك الله! والله ما أردت الله بهذا، ويحك! كيف أستخلف رجلًا عجز عن طلاق امرأته؟ وأنظر، فإن استخلفت، فقد استخلف من هو خير مني، وإن أترك، فقد ترك من هو خير مني، وأنَّىٰ يضيع الله دينه، وما أريد أن أتحملها حيًّا وميتًا. عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله ﷺ: «إنهم من أهل الجنة»... إلخ.

وقد ولي معاوية بعد صراع رجحت فيه كفته سياسيًّا ثم حربيًّا، بعد اختلاف جند علي عليه، ثم صالحه الحسن، وسلم له الأمر، بعد استشهاد الإمام، فاجتمع عليه أمر الأمة، ولا تجتمع أمة محمد علىٰ ضلالة.

عن الزهري، أن الحسن بن علي لما استخلف، كان عنده شرطة الخميس التي ابتدعها العرب، وكانوا أربعين ألفًا بايعوا عليًّا علىٰ الموت، وعلىٰ مقدمتهم قيس بن

سعد؛ ولكن الحسن كان لا يريد القتال، وإنما يريد الدخول في الجماعة؛ وكان قيس يخالفه في هذا الرأي، فشغب الجند بالحسن، ونهبوا سرادقه، حتىٰ نازعوه بساطًا كان يجلس عليه، وطعنه أحدهم؛ فلما رأىٰ الحسن تفرق الأمر عنه، بعث إلىٰ معاوية يطلب الصلح، وخطب أهل العراق فقال: يا أهل العراق، إنه يسخئ بنفسي عنكم ثلاث: قتلكم أبي، وطعنكم إياي، وانتهابكم متاعي.

وقال للحسين وعبد الله بن جعفر: إني قد كتبت إلىٰ معاوية في الصلح وطلب الأمان، فقال الحسين: نشدتك الله أن تصدق أحدوثة معاوية، وتكذب أحدوثة علي! فقال له الحسن: اسكت، فأنا أعلم بالأمر منك. ولما علم بذلك عبد الله بن عباس، كتب إلىٰ معاوية يسأله الأمان. ودخل الناس في طاعة معاوية.

ومعاوية مجتهد، ما في ذلك من شك، وقد أقره علىٰ اجتهاده أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وناهيك!

قال الطبري بسنده: خرج عمر بن الخطاب إلىٰ الشام، فرأىٰ معاوية في موكب يتلقاه، وراح إليه في موكب، فقال له عمر: يا معاوية، تروح في موكب وتغدو في مثله؟! وبلغني أنك تصبح في منزلك، وذوو الحاجات ببابك؛ قال: يا أمير المؤمنين، إن العدو بها قريب منا، ولهم عيون وجواسيس، فأردت يا أمير المؤمنين، أن يروا للإسلام عزًّا. فقال له عمر: إن هذا لكيد رجل لبيب، أو خدعة رجل أريب! فقال معاوية: يا أمير المؤمنين، مرني بما شئت، أصر إليه. قال: ويحك! ما ناظرتك في أمر أعيب عليك فيه، إلا تركتني ما أدري: آمرك أم أنهاك.

وإذن فما فعله معاوية من صميم الإسلام، ولو كان محمد رسول الله ﷺ ونبي الإسلام حيًّا؛ لأقره عليه، وقبله منه.

فالواحدة التي بألف ليست عند معاوية - وحاشاه -، ولكنها عند من تجنىٰ عليه!

فأما ما أخذه فضيلة القاضي علىٰ بني أمية - بالجملة - من تحكم الشهوات في مصلحة الأمة، واختيار شر الولاة، وعدوانهم علىٰ الحريات، وقتلهم العلماء كالحسين وابن جبير... إلخ إلخ إلخ. فلعمري، دولة يعد منها: عبد الملك بن مروان، الذي كان الإمام مالك إمام دار الهجرة يحتج برأيه، والذي حمله علىٰ تأليف «الموطأ»، وسليمان بن عبد الملك الذي يعد الإمام عمر بن عبد العزيز حسنة من حسناته؛ والوليد بن عبد الملك الذي خفقت في أيامه راية الإسلام علىٰ ثلاث أرباع العالم المعمور وقتئذ؛ وهشام بن عبد الملك الذي أتم تعريب الدولة؛ أقول: إن دولة منها من ذكرت، لدولة لم تغلبها الشهوات، ولا مال بها الهوىٰ عن الاجتهاد للأمة وللإسلام، ولا يضيرها أن كان منها بعض الأعضاء الفاسدين، فالكمال المطلق لله!

والقاضي خير من يعرف أنه لولا الحجاج وأمثاله لانتهىٰ الإسلام بانقضاء عهد الخلفاء الراشدين. ولقد تمرد الخوارج علىٰ علي الإمام الراشد، ولم يفرقوا في ائتمارهم المعروف بينه وبين صاحبيه معاوية وعمرو؛ والله يعلم أي كارثة كانت تصيب الإسلام لو تم ائتمارهم علىٰ الوجه الذي أرادوه؛ فالحجاج والقسري وبنو المهلب من هؤلاء الجبارين حقًّا ليسوا شرًّا ممن سلطوا عليهم، ولا يفل الحديد إلا بالحديد.

وإن قلبي ليبكي قبل جفني، حينما أذكر مصارع آل بيت محمد ﷺ وأولهم الحسين، ولكني أشرك شقيقه الحسن في دمه؛ علىٰ أن زمام الجيوش كثيرًا ما يفلت من إدارة الولاة، خصوصًا في الدول التي يعظم حظ أفرادها من الحرية كالدولة العربية. وعلىٰ الجملة فما اجتمع الناس علىٰ إمام، فإن الخروج عليه جريمة في نظر الشرع.

وليس مما يقبل من فضيلة القاضي أن العباسيين قلدوا الأمويين في شرورهم، فإن العباسيين أعظم في أنفسهم من أن يتأثروا أحدًا، وهم - في نظرهم علىٰ الأقل - بيضة الإسلام وذووه، والدليل علىٰ ذلك تمثيلهم بني عمومتهم الطالبيين إلىٰ تمثيلهم بالأمويين.

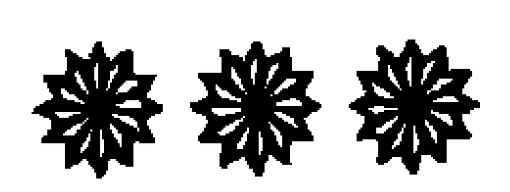
أما بعد، فإنني أختم كلمتي هذه التي طالت رغم أنفي بما قاله ابن السبكي صاحب «جمع الجوامع في أصول الفقه» - باب العقائد - [ص (٣٤٧) جـ٢]:

«ونمسك عما جرىٰ بين الصحابة من المنازعات والمحاربات التي قتل بسببها كثير منهم؛ فتلك دماء طهر الله منها أيدينا، فلا نلوث بها ألسنتنا. ونرىٰ الكل مأجورين في ذلك؛ لأنه مبني علىٰ الاجتهاد في مسألة ظنية، للمصيب فيها أجران علىٰ اجتهاده وإصابته، وللمخطىء أجر علىٰ اجتهاده؛ كما يثبت في حديث «الصحيحين» أن الحاكم إذا اجتهد فأصاب؛ فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ، فله أجر». اهـ بنصه.

فهل لي أن أطلب من حضرات الباحثين في هذه الموضوعات أن يعملوا بهذه «العقيدة الإسلامية»، وفي شئوننا الحاضرة ما يغنينا، عن تبديد تراثنا الخالد علىٰ وجه الزمان؟

عبد الجواد رمضان

«الرسالة»، العدد (٩٨٢)، بتاريخ: ٢٨ - ٠٤ - ١٩٥٢، ص(٨)



كلمة أخرى
للأستاذ علي الطنطاوي

سيدي الأستاذ عبد الجواد رمضان: ما تشرفت بمعرفة شخصك، ولكن تشرفت بتلاوة فصلك الذي يدل علىٰ فضلك ونبلك، وأنا أعترف يا أستاذ، أني لم أقرأ مقالات أخي الأديب الضليع الأستاذ محمود شاكر في «المسلمون»، ولم أطلع إلا علىٰ الجزء الأول من هذه المجلة، ولست مشتركًا فيها «مع الأسف»، ولا تباع في مكتبات دمشق فأراها، ولا أقول بذم أحد من الصحابة فضلًا عن القول بكفره والعياذ بالله أو نفي الإسلام عنه، ولا أنتقص بني أمية أقدارهم ولا أسلبهم فضائلهم، ولئن كنت كتبت مقالة في تمجيد بني أمية بالحق، لأكتبن مقالة في نقدهم بالحق. وما بنو أمية ولا غير بني أمية، ولا شيء في الدنيا إلا وفيه ما يمدح وما يذم، والكمال المطلق لله وحده، والعصمة للأنبياء. ولقد قال مثل مقالتي رجل فأنكرها عليه، ثم قبلها منه من هو خير مني ومنك ومن أهل الأرض، محمد رسول الله، حين قال له الرجل: يا رسول الله، رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما علمت، فقال الرسول صلوات الله عليه: «إن من البيان لسحرًا»[1].

فليس يرد علىٰ ما أوردته من فضل معاوية ومناقبه، ولست أنكره، ولكن قل لي: هل تنكر أنت أن معاوية بشر يخطئ ويصيب؟ وهل تنكر أن الإسلام حجة علىٰ معاوية، ومعاوية ليس حجة علىٰ الإسلام؟

فما حكم الإسلام في البدعة التي ابتدعها معاوية؟

هذا هو موضوع الكلام.

---

(١) هذا الحديث بقصته المذكورة هنا رواه الحاكم في المستدرك (٦٥٦٩) والطبراني في الأوسط (٧٦٧١) وقال الهيثمي في المجمع (١٣٢٨٧) عن رجلين من رجال الطبراني: لم أعرفهما وبقية رجاله ثقات، أما جملة: «إن من البيان لسحرًا» فقد أخرجها البخاري (٥١٤٦)، ومسلم (٨٦٩).

لقد قبض رسول الله ﷺ ولم يستخلف، واستخلف أبو بكر، وتركها عمر لمجلس الستة، كل هذا معروف، ولكن هل نال عمر الخلافة بعهد أبي بكر؟

لا يا أستاذ، وهذه الأخبار استقصيتها في كتابي «أبو بكر»، وكتاب «عمر»، وقد جمعت فيه ما تفرق من سيرة عمر في سبعين ومائة كتاب، وعزوت كل جملة فيه إلىٰ مصادرها، والأخبار كلها علىٰ أن أبا بكر لما أحس الموت أمر الناس أن يختاروا لأنفسهم، فتركوا ذلك إليه، فاختار عمر وعرض ذلك عليهم فقبلوا به، فلما مات بايعوه فصار خليفة بالبيعة، أي: بالانتخاب الحر، لا بالعهد، وكذلك كان عثمان بن عفان خليفة من بعده بالبيعة. إن الإسلام لم يحدد أسلوب الحكم، وترك ذلك لرأي الأمة، ولكنه وضع أساسًا لا يمكن إقامة الأمر إلا عليه، وهو الشورىٰ والانتخاب الحر، فإذا انتخبت الأمة رجلًا وبايعته؛ حرم الخروج عليه ومنازعته الأمر؛ لئلا تعم الفوضىٰ، والفوضىٰ أكبر ضررًا علىٰ الأمة من الاستبداد.

ومعاوية جاء ببدعتين:

الأولىٰ: أنه انصرف عما وضع في عنقه من أمانة الحكم، والنظر لمصلحة الأمة، إلىٰ تمهيد الأمر لابنه يزيد من بعده، جمع لذلك فكره، وسخر لذلك ماله وسلطانه، فصارت سنة من بعده، أدت إلىٰ إضاعة أمر المسلمين بانصراف الخليفة عنه إلىٰ أمر ولده، وإلىٰ تولية من لا يصلح للولاية.

الثانية: أنه حول الانتخاب الإسلامي الحر الصحيح إلىٰ نوع من الترغيب والترهيب والتدخل، ولو أن المسلمين كانوا أحرارًا في انتخاب من يخلف معاوية؛ ما انتخبوا يزيد، ولا يخلو من فضائل. ولكن هل كان يزيد أتقىٰ الناس؟ أو هل كان أعلم الناس؟ أو هل كان أحق الناس بالخلافة؟

وهل سار يزيد بالدولة سيرة أبي بكر وعمر؟ أم أظهر المحرمات، وجرأ الناس علىٰ الباطل؟ ومن أطلق لسان الأخطل الشاعر النصراني في أنصار رسول الله إلا يزيد؟ من

فعل بالمدينة ما لا تفعله الروم والمغول إلا يزيد؟

إنه إذا قيل عن الأسود أبيض، يقال عن الأبيض لا محالة أسود. فإذا كانت حكومة يزيد وأمثاله حكومة إسلامية، فإن حكومة عمر لا تكون إسلامية؛ لأنهما متناقضان مختلفان، وإذا كان عهد معاوية إلىٰ يزيد من الإسلام، فإن صرف عمر الأمر عن عبد الله ليس من الإسلام. هذا إن كانا متشابهين متكافئين، فكيف وهذا يزيد، وذاك عبد الله!

وأنت تذكر يا أستاذ، أن الذي قال عن معاوية، لقد جعل الأمر كسرويًّا قيصريًّا ليس عليًّا الطنطاوي! وأنت تعلم يا أستاذ، رأي عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين في أهله من بني أمية، وفي حكمهم، وفي الحجاج وأمثاله خاصة!

وأنا أشكر لك نصحك الناس ألا يلوثوا ألسنتهم بدماء القوم، وأنا أول من يسمع هذا النصح، وما بي والله عداوة الأمويين، ولا محبة غيرهم، ولكن المقام مقام الدفاع عن الإسلام، ببيان حكمه في حكم بني أمية؛ لئلا يحمل أحد سيرتهم علىٰ الدين، فيقتدي بهم، فيضل عن سبيل الحق.

علي الطنطاوي



العدالة الاجتماعية في الإسلام[1]

عز الدين إسماعيل[2]

نحن اليوم أمام أمشاج من الأفكار التي تدور حول العدالة وحول الاجتماع وحول الإسلام، ولكنها لا يمكن أن تدور حول العدالة الاجتماعية في الإسلام. وإذا نحن تطوعنا؛ كيما نفيد من هذه الأفكار بتنظيمها وترتيبها وتقسيمها؛ لم نظفر آخر الأمر ببحث علمي دقيق في صميم العدالة الاجتماعية في الإسلام، ولا الظلامة الاجتماعية في غيره من مذاهب وضعية.

ويجدر بي قبل أن أطيف بالقارئ في أرجاء هذا الكتاب أن أنبهه إلىٰ خدعة كبارة، وهالة باطلة نسجها الإمحال في وقت من الأوقات حول شخصية المؤلف، فأخذ مكانه بين الرعيل الثاني من المفكرين في مصر الحديثة.

إن أظهر ما تتسم به مؤلفات الأستاذ سيد قطب هو الضحالة والصحافية وصياغة أفكار الآخرين من جديد.

فأما عن ضحالته؛ فتتبين في مدىٰ استنتاجه من المقدمات التي يضعها أو يجدها موضوعة من قبل، وسنرىٰ لها الآن أمثلة من الكتاب المنقود.

وأما صحافيته؛ فإنه يتناول كل موضوع علىٰ أنه مقالة في صحيفة يومية أو أسبوعية، وينسىٰ أنه إنما يؤلف كتابًا، وأن الدراسة التي يصبها المؤلف في كتاب تختلف تمامًا عن المقالات أولًا وقبل كل شيء في أنها دراسة.

وأما صياغة أفكار الآخرين، فلعلي لا أثق من شيء ثقتي من هذه الصفة الجلية في

---

(١) مجلة الثقافة، العدد الثامن، شهر سبتمبر سنة ١٩٥٢م.

(٢) عز الدين إسماعيل: أديب مصري وصل إلىٰ منصب نائب رئيس الهيئة العامة للكتاب رحمه الله.

كتابات الكاتب. وفي كتاب اليوم أمثلة كثيرة، وسنعرض لبعضها. وإن شئت فارجع إلىٰ كتابه «النقد الأدبي أصوله ومناهجه»، وهناك تستطيع أن تدرك تمامًا أن الكاتب أعاد أفكار أبركرمبي وتشارلتن ولانسون التي سبق أن ترجمت إلىٰ العربية، فإذا بحثت عن جديد يختص به المؤلف؛ أعياك البحث دون جدوىٰ.

والكتابان اللذان خدعنا بهما المؤلف، وخيل إلينا أن فيهما من الأصالة ما ينفي عن المؤلف تلك الصفة، وهما «التصوير الفني في القرآن» و«مشاهد القيامة في القرآن»، هذان الكتابان بكل أسف ليس فيهما من أصالة الفكرة شيء، فقد تلقف الأستاذ سيد قطب أصل الفكرة من الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد، وراح يضخمها حتىٰ ظفر من هذه الضخامة بقدر يملأ كتابًا.

ولسنا هنا بسبيل أن نتتبع المؤلف في سائر مؤلفاته. وحسبنا كتابه الذي يحمل ذلك العنوان الضخم «العدالة الاجتماعية في الإسلام».

ونبدأ ببيان الصفة الأولىٰ كما تتضح في هذا الكتاب. ومن أمثلة ذلك أن المؤلف يريد أن يبين كيف أن الإسلام لا يعادي العلم كغيره من الأديان؛ فيستشهد علىٰ ذلك بالآية الكريمة ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ (ص ١٧)، ولو أنه دقق؛ لوجد أن الآية لا تعطيه هذه النتيجة التي انتهىٰ إليها، ولو دقق؛ لما كان في حاجة إلىٰ أن أنبهه إلىٰ الهدف التربوي الذي تهدف إليه الآية من دعوة العلماء إلىٰ أن يتقوا الله في علمهم. وهذا مثال آخر يتبين لنا فيه كيف يعامل المؤلف المسائل الكبرىٰ في تاريخ الإسلام ببساطة عجيبة حتىٰ إنه ليردها إلىٰ محض الصدفة. إنه يرىٰ وجود الأمويين منذ معاوية صدفة، ويرىٰ عمر بن عبد العزيز صدفة، ولا يكلف نفسه التغلغل في العوامل الاجتماعية والتيارات النفسية التي تعمل بقوة، سواء في المد الإسلامي وجزره، لنقرأ له قوله (ص ٢١٩): «لم يكن توقف المد في الروح الإسلامي إذن ضعفًا من هذا الروح عن الامتداد، وكذلك لم

يكن قصورًا عن مجاراة أطوار الحياة – وسنرىٰ بعد قليل أن هذا الروح ما زال يعمل في كثير من مناحي الحياة وجوانب المجتمع – ولكنه كان ثمرة لمصادفة سيئة في وقت غير مناسب، وما كادت المصادفة تسوق إلىٰ الإسلام خليفة فيه بقية من روح الخلافة في شخص عمر بن عبد العزيز، حتىٰ عاد المد الإسلامي إلىٰ الظهور، وعادت الحكومة إسلامية حقيقية».

وأظن أن المؤلف قد جنب نفسه مشقات كثيرة بأن اعتمد علىٰ ما أنتجه عنصر المصادفة في تاريخ المد الإسلامي. وهو عند المسائل الكبرىٰ في تاريخ هذا المد يمضي سريعًا إذا ما أحس معطلًا يقف دون فكرته التي يريد بطريق أو بآخر أن يقررها ويثبتها لنقرأ له هذين السطرين في (ص ١٧١): «فأما البيعة لعلي؛ فقد ارتضاها قوم وأباها آخرون. فكانت الحرب للمرة الأولىٰ بين المسلمين، وأعقبتها الكوارث التي حاقت بروح الإسلام ومبادئه في الحكم والمال وفي غير الحكم والمال» ثم يمضي.

ولست أدري لم أنف الكاتب أن يفيد في هذه المواطن من التحليل الرائع الذي نقرؤه والذي قرأه هو ولا شك في كتاب «عبقرية الإمام» للأستاذ العقاد، ولكن لعله يصدم هناك.

ولست أدري هذه الحملة التي توهمنا بأننا تنكبنا الإسلام في حياتنا، ورحنا نقتبس من هؤلاء وهؤلاء النظم والقوانين. لست أدري هل يصح – منطقيًّا علىٰ الأقل – أن أفترض فرضًا واهمًا، وأجهد نفسي في دفعه، وأشغل الناس معي في هذا الدفع. ويعجبني منه أن يشير إلىٰ شخصيتنا هذه الإشارة في (ص ٢٠): «ولكننا ندعو إلىٰ مراجعة الرصيد المذخور، ومعرفة أسسه العامة، واختبار قدرته علىٰ البقاء والصلاحية قبل أن نعمد إلىٰ تقليد مبتسر، مفقود الأسس التاريخية في حياتنا، تضيع فيه شخصيتنا، ونصبح معه ذيلًا للقافلة الإنسانية». تعجبني هذه الإشارة؛ لأن المؤلف لم يذكر من

ذلك الواقع التاريخي الذي ملأ به ما يقرب من نصف الكتاب حالة واحدة أو واقعة واحدة من صميم حياة المصريين وواقعهم التاريخي. أترىٰ تمثلت له الشخصية المصرية في واقع الشام التاريخي في القرنين الأول والثاني للهجرة؟ فمن هذا الواقع اقتبس، وإليه دائمًا كان يشير، ولو أنه اهتم بموضوع الشخصية أكثر من هذا، ودرسه دراسة متعمقة مستأنية؛ لرده ذلك إلىٰ اعتبارات هي غاية في الأهمية عندما يكون المد الإسلامي في الشعوب المفتوحة موضوع بحثه.

ولا أظنني في حاجة إلىٰ أن أكرر أن الدين الإسلامي حين اصطدم بشخصيات البلدان المفتوحة، تمخض هذا الاصطدام عن صور تختلف في قربها من الصورة الأولىٰ له قلة وكثرة، ولكنها تختلف علىٰ كل حال، ولماذا نبعد وقد اختلفت هذه الصورة الأولىٰ ولم يمض علىٰ الإسلام نصف قرن. لا أكرر هذا الذي سبقت إليه الدراسة، وإلا شاركت المؤلف إحدىٰ صفاته.

ولدينا الهند الآن، وهي مثال حي، تبلور العقيدة الإسلامية بصورة تبرز فيها شخصية الهند، وكذلك نحن في مصر لنا هذه الشخصية.

وأفضل الآن أن أنتقل إلىٰ الصفة الثانية، وهي صفة الصحافية.

والصحافية تتمثل عند المؤلف لا في هذا الكتاب، بل في سائر كتبه؛ فهو لا يقرأ الأصول التي تفيده في موضوعه، وإنما يقف عند الكتب الثانوية دائمًا. لا يجهد نفسه في المصادر الأولىٰ، وإنما يكتفي بما يلتقطه من كتب الدرجة الثانية في نظر الدراسة العلمية، ووقفة قصيرة عند المراجع التي ذيل بها المؤلف الكتاب، تؤكد لنا هذه الظاهرة.

ولعلي ذكرت في مستهل حديثي أن الكتاب أمشاج من الأفكار، وأعود الآن لأكرر هذه الملاحظة التي تبرز في المؤلف طابع الصحافية؛ فهذه الأفكار التي يتلقفها من قراءاته السريعة لتلك الكتب يسردها سردًا لا ضابط له ولا نظام فيه. بعبارة أخرىٰ فأنت لا تحس أن الكتاب كانت له خطة في نفس المؤلف قبل أن يبدأ كتابته. وكلما

مضيت في قراءة الكتاب؛ هالك التفكك بين تلك الأفكار. ونلاحظ أن المؤلف يريد أن يثبت فكرة من الأفكار قبل أن يبحث هذه الفكرة. وهذا خطأ منهجي؛ لأن إثبات الأفكار القبلية Apriori يورط الباحث دائمًا في التغافل عن الجوانب المضادة، وتخطي المزالق التي تعترض الطريق.

والمؤلف حين يتورط في هذه المزالق، نراه يصطنع بالضرورة تلك الأساليب الخطابية والعبارات الطنانة، وقد يتجاوز ذلك إلىٰ الاتهام والتحامل. نقرأ له في (ص ٢٠): «إن المجتمع الإسلامي لم يضعف ولم يتخلف عن ركب البشرية وهو يستمسك بالإسلام، إنما ضعف وتخلف بعد أن تخلىٰ عن هذا الإسلام. وتقرير هذه الحقيقة يفيدنا في تزييف التهم الباطلة التي يلقيها الغربيون علىٰ هذا الدين، ويستشهدون عليها بواقع المسلمين، والتي يتلقفها بعض المخدوعين هنا وبعض المأجورين، فيلوكونها، وقد يسودون بها مئات الصفحات مدعين حرية الفكر ودقة البحث، وهي باطل... إلخ». ولست أدري هل هذا الأسلوب هو الذي يمثل حرية البحث! وهل يلزم أن أتورط في العيب الذي آخذه علىٰ الناس؟!

وفي (ص ٢٠) يقول: «ولكنه الجهل بحقيقة هذا الدين، والكسل العقلي والنفسي عن مراجعة الرصيد القديم، والتقليد المضحك للاتجاه الأوروبي في فصل الدين عن الحياة... إلخ».

هذه نماذج من أسلوب المؤلف في خطابياته وحملاته، وهي إن صلحت فإنها تصلح في مقال بالصحف، ولا تصلح في كتاب يستهدف البحث العلمي السليم.

ولعل من صور اضطراب البحث في يد الكاتب أن تجده يقف بك أمام المشكلة في جوهرها، ثم إذا به يحيلك علىٰ ما سيأتي، حتىٰ إذا مضيت قليلًا، فقد نسيت المشكلة ونسيت ما كان مفروضًا أن سيأتي؛ لأنك تدخل في شيء آخر جديد.

يقف في (ص ١٩)؛ ليضع هذه المشكلة الجوهرية، هل لا يزال في الإسلام عناصر صالحة للتطبيق في العصر الحديث؟ ثم يقول: «هذا سؤال في الصميم؛ ولذلك لن يكون من المستطاع الإجابة الوافية عنه في هذا الموضوع، فسنجيب عنه تفصيلًا وتطبيقًا

فيما بعد»، حتىٰ إذا بلغت (ص ٢١٦) وجدت إجابة باهتة.

ونكتفي بهذا؛ لنقف وقفة أخيرة عند الصفة الثالثة التي تتضح من هذا الكتاب، وهي فقدان الأصالة عند الكاتب فيما يسوق من أفكار.

وأنا لا تروعني المراجع التي بلغت أربعة وثلاثين، والتي ذيل بها المؤلف الكتاب، فقد قرأت الكتاب ذهابًا وجيئة، وعرضت تمامًا مدىٰ إفادته من هذه المراجع، ورغم أنها جميعًا - فيما عدا كتب الدين - تعد مراجع ثانوية؛ فإن المؤلف قد أخفىٰ إفادته من بعضها، بحيث لم يشر إليها غير مرة في أثناء البحث، وأعني بذلك كتاب «الإسلام والنظام العالمي الجديد» لمولاي محمد علي.

وأود أن أضع أمام القارئ أمثلة لكيفية إفادة المؤلف من هذه المراجع، فإنه ينقل عنها نقولًا تطول إلىٰ حد أن تكون وحدها الأساس في البناء.

من أمثلة ذلك نقوله عن الأستاذ عبد الحليم الجندي في كتابه «أبو حنيفة، بطل التسامح والحرية في الإسلام»، فقد نقل عنه صفحات كاملة هي التي تمثلت عنده في صفحات ١٥٥ و١٥٦ ثم ١٥٨ و١٥٩.

وينقل عن الأستاذ أحمد زكي صفوت من (ص ١٩١) إلىٰ (ص ١٩٤)، وينقل أيضًا من (ص ٢٢٣) إلىٰ (ص ٢٢٦) عن كتاب «الإسلام علىٰ مفترق الطرق» ترجمة عمر فروخ، ثم ينقل عنه أيضًا من (ص ٢٣٢) إلىٰ (ص ٢٣٤)، وهكذا.

هذه الصفحات بكاملها تكون وحدها جزءًا كبيرًا من بناء الكتاب، يظهر قرب نهايته، عندما كان الأسلوب الخطابي قد شغل القدر الوفير من الكتاب في أجزائه الأولىٰ، هذه الصفحات تزيد وضوحًا في نفس القارئ إذا هو حاول أن يتبينها في كتابات المؤلف عامة، وفي هذا الكتاب خاصة، ولعلنا في حل من أن نعيد النظر في قيمة رصيدنا لا القديم، ولكن ذلك الرصيد الذي خدعنا وما زلنا نخدع فيه، رصيد المحدثين.

رد على مقال
«العدالة الاجتماعية في الإسلام»[1]
للأستاذ محمد رجب البيومي

كنت أقرأ في مجلة «الثقافة» الغراء فصولًا مختلفة في قواعد النقد الأدبي ومذاهبه للأستاذ عز الدين إسماعيل، فألمح أضواء التوفيق فيما أطالع، وأتصور أن الكاتب سيخطو بالنقد الأدبي خطوة موفقة حين ينتقل من القواعد المذهبية إلىٰ التطبيق، ولكني شعرت بمرارة لاذعة حين قرأت ما كتبه بالعدد الأخير من مجلة «الثقافة» خاصًّا بنقد كتاب «العدالة الاجتماعية في الإسلام»، فقد قضىٰ علىٰ كل أمل كنت أرجوه منه.

وكتاب «العدالة الاجتماعية في الإسلام» كتاب مرموق في المكتبة العربية، وقد ظهر منذ سنوات، كما تعددت طبعاته المرة بعد المرة، فمن يحاول أن ينقده اليوم، فلا بد أن يقدم للقارئ مآخذ هامة ظهرت لديه بعد القراءة الطويلة والتمحيص الدقيق، وكنت أنتظر ذلك من الناقد الفاضل، ولكن الريح قد أتت بما لا يشتهي الملاح.

بدأ الأستاذ نقده الثائر بقوله: «ويجدر بي قبل أن أطيف بالقارئ في أرجاء هذا الكتاب، أن أنبهه إلىٰ خدعة كبارة وهالة باطلة نسجها الإمحال في وقت من الأوقات عن شخصية المؤلف، فأخذ مكانه بين الرعيل الثاني من المفكرين في مصر الحديثة، وإن أظهر ما تتسم به مؤلفات الأستاذ سيد قطب هو الضحالة والصحافية وصياغة أفكار الآخرين من جديد».

فالناقد الفاضل يعلن صراحة أن كتاب «العدالة» قد شق طريقه إلىٰ الرواج لظهوره في وقت ممحل جديب، توقف فيه التيار الأدبي عن سيره المتواصل، وهذا قول

---

(١) «الرسالة»، العدد (١٠١٦) بتاريخ: ٢٢-١٢-١٩٥٢.

باطل؛ إذ إن السنوات الأخيرة قد قذفت إلىٰ المطبعة عشرات الكتب الإسلامية والأدبية لعشرات من أفاضل المؤلفين، ولم ينفرد كتاب «العدالة» بالظهور، ليقال إنه لقي ما لا يستأهله من الرواج والذيوع.

كما يحدد الناقد الفاضل مكانة الأستاذ قطب فيضعه في الرعيل الثاني من المفكرين في مصر الحديثة، وقد كان الأستاذ قطب من الرعيل الثاني فعلًا قبل أن يبدأ سيله الزاخر في السنوات الأخيرة بكتاب «العدالة» وما تبعه من المؤلفات، أما الآن فلا ينكر عليه منصف مكانه المنفوس في الرعيل الأول من الكتاب، وليس هذا بكثير علىٰ كاتب مجاهد دفع عن زملائه معرة الجبن والخمول، فمهد للثورة الأخيرة بقلمه، واندفع سنوات متلاحقة يحارب الفساد في الصحف الحرة النزيهة كـ«الدعوة» و«اللواء» و«الرسالة» و«الاشتراكية» و«روز اليوسف»، حتىٰ ليجوز أن نشبه موقفه من النهضة الأخيرة بموقف (فولتير) من الثورة الفرنسية. ولكن الأستاذ عز الدين يقسم الأدباء إلىٰ درجات متفاوتة، ثم يعز من يشاء ويذل من يشاء دون عدالة وإنصاف.

وهذه السرعة الحميدة الخصيبة في الإنتاج كانت سيئة شنيعة لدىٰ الناقد الغيور، فجعلته يحكم علىٰ إنتاج قطب بالضحالة والصحافية، ثم يزيد فيزعم أنه يسرق أفكار الآخرين. وإذا أعوزه الدليل علىٰ ذلك، تعدىٰ كتاب «العدالة» الذي أرهق نفسه في نقده، واندفع يقول:

«وإن شئت؛ فارجع إلىٰ كتابه «النقد الأدبي أصوله ومناهجه»، وهناك تستطيع أن تدرك تمامًا أن الكاتب أعاد أفكار أبركرمبي وتشارلتن ولانسون التي سبق أن ترجمت إلىٰ العربية، فإذا بحثت عن جديد يختص به المؤلف؛ أعياك البحث دون جدوىٰ. والكتابان اللذان خدعنا بهما المؤلف، وخيل إلينا أن فيهما من الأصالة ما ينفي عنه تلك الصفة، وهما «التصوير الفني في القرآن»، و«مشاهد القيامة في القرآن»، هذان الكتابان،

بكل أسف، ليس فيها من أصالة الفكرة شيء؛ فقد تلقف الأستاذ سيد قطب أصلِ الفكرة من الأستاذ العقاد، وراح يضخمها حتىٰ ظفر من هذه الضخامة بقدر يملأ كتابًا»!!

ونحن ننقل هذا الكلام؛ لنسجل علىٰ الناقد غفلته، فكتاب «النقد الأدبي» لا يعيبه إطلاقًا - علىٰ فرض التسليم بما ذكره الناقد - أن يفيض بآراء أبركرمبي وتشارلتن ولانسون؛ إذ إن الناقد المعاصر لا بد أن يحيط بالثقافة الغربية في موضوعه، وإذا ظهر في النقد الأدبي كتاب يخلو من الإشارة إليها في صفحاته، فقد سقطت قيمته الأدبية دون نزاع، والناقد الجريء يتعمد أن يغفل في كلامه حقيقة هامة؛ فالأستاذ قطب لم ينقل آراء هؤلاء النقاد إلا ليطبق عليها الآثار العربية من شعر ونثر، وقد فاض كتابه الجليل بالموازنة والتحليل، وهنا تتجلىٰ ميزة قطب الأصيلة؛ فهو باحث تطبيقي يزن الأثر الفني بميزانه الدقيق، وليس كمن يحشد لنا القواعد المذهبية في النقد الغربي من كل مكان، فإذا أراد تطبيقها علىٰ الأدب العربي؛ اضطرب مقياسه، واختلج ميزانه، وغمره التلجلج والبهر والارتباك!!

وقد ادعىٰ الأستاذ عز الدين أن كتابي «التصوير الفني في القرآن»، و«مشاهد القيامة» مأخوذان من الأستاذ العقاد، ولماذا؟ وأين الدليل؟ لأن العقاد قد كتب مقالة تشير إلىٰ فكرتها الأصيلة! فتلقف قطب الفكرة! وملأ بها كتابين كبيرين! وهذا يذكرني بما يقوله بعض الناس في معرض الفكاهة والتندر، من أن أوربا لم تخترع الطائرة، وليس لها أي فضل في اكتشافها علىٰ الإطلاق؛ إذ إن الجوهري وعباس بن فرناس قد هما بالطيران في يوم من الأيام، ثم أخذ الغرب الفكرة وادعاها لنفسه دون أن يقوم بمجهود!! وهكذا أخذ قطب مقالة الأستاذ العقاد، فأفرغ فكرتها الموجزة في كتابين كبيرين، فيا للسطو الشنيع والجريمة النكراء!!

ثم ماذا؟ لقد لجأ الكاتب بعد هذه المقدمة إلىٰ نقد كتاب «العدالة»، فأدهشني أن

يعمد إلىٰ التشويه دون أن يحترم عقول القراء؛ فهو حين يدلل علىٰ ضحالة قطب يزعم أنه استشهد بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]؛ ليبين أن الإسلام لا يعادي العلم كغيره من الأديان. وهذا غير صحيح؛ إذ إن قطبًا يعرض بعض الخصائص الحية في الدين الإسلامي، فيذكر أنه لا يعادي العلم، ولا يكره العلماء، وأنه لا يعتمد علىٰ الخوارق والمعجزات، ولا يقوم علىٰ الغيبيات في صميمه، بل يقوم علىٰ المشاهد والتأمل والنظر في الكون، ثم يذكر النصوص الدالة علىٰ ذلك من القرآن، ويعقب عليها بقوله: «وذلك طبيعي في دين يربط التقوىٰ بالعلم، ويجعل العلم سبيلًا إلىٰ معرفة الله وخشيته ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، فليت شعري كيف يكون الاستشهاد بالآية بعد ذلك دليلًا علىٰ أن الإسلام لا يعادي العلماء؟ وأين تكون الضحالة إذن؟ أهي عند الكاتب المظلوم، أم لدىٰ الناقد الممتاز؟

والمثال الثاني الذي استشهد به الناقد في مضمار الضحالة أعجب وأغرب من سابقه! فهو يزعم أن المؤلف يعالج المسائل الكبرىٰ في تاريخ الإسلام ببساطة عجيبة، «حتىٰ إنه ليردها إلىٰ محض الصدفة، ولا يكلف نفسه التغلغل في العوامل الاجتماعية والتيارات النفسية التي تعمل بقوة في مد الإسلام وجزره»، يقول الناقد ذلك، وتنتظر منه أن يدلك علىٰ مأخذ هام عرض له، فلا تجد غير ما يضحك ويدهش؛ فقد استنفد الأستاذ قطب عشرات الصفحات في إيضاح حقيقة الإسلام في عصر الرسول وخلفائه الراشدين؛ وأسهب في دراسة دعائمه الراسخة في الحرية والعدالة والمساواة، ثم عرض إلىٰ الحكم الأموي، فأوضح ما دار علىٰ مسرحه من مآس دامية لا ترجع إلىٰ طبيعة الإسلام، بل هيأت لها المصادفة التعسة! أجل لقد فعل الأستاذ قطب ذلك، وتدرج مع قارئه في التاريخ تدرجًا منطقيًّا، ولكن كلمة المصادفة هذه لا تعجب الناقد، فيغفل جميع ما تقدمها من تمهيد، وما أعقبها من استنتاج؛ ليخرج بدعوىٰ عريضة جوفاء لن تجد من

يطمئن إليها في كثير أو قليل!

والمؤلم المدهش أن الأستاذ عز الدين لا يفهم هدف الكتاب المنقود ورسالته؛ فهو يحتم علىٰ مؤلفه أن يسهب في شرح البيعة لعلي، وأن يفيد من التحليل الرائع الذي كتبه العقاد في «عبقرية الإمام»، وإنني ستجدني مضطرًا أن أنبه الناقد إلىٰ أن كتاب «العدالة» ليس كتاب تاريخ تراجع فيه مسائل البيعة والخلافة؛ فتذكر فيه مزايا علي - كرم الله وجهه - ومثالب معاوية الخلقية، ولكنه يحتاج إلىٰ التاريخ بالقدر الذي يسعف بالحجة وينهض بالدليل، فكيف يفرض الناقد علىٰ المؤلف أن يندفع إلىٰ استطراد متكلف لا يعنيه؟!

ويخيل إلي أن الناقد الألمعي لا يعرف شيئًا عن الروح الإسلامية التي تغمر العالم الإسلامي الآن، فقد نسي المسلمون قوميتهم الضيقة، وجعلوا الإسلام وطنهم الأول، وقامت جمعيات الإخوان المسلمين في شتىٰ عواصم الممالك الإسلامية بمجهودها الناجح في هذا المضمار. والناقد الطلعة يجهل ذلك قطعًا، فيتساءل عن الشخصية المصرية في القرنين الأول والثاني من الهجرة، وعن الشخصية المصرية الحديثة، وعن الشخصية الهندية أيضًا (كذا)! كأن باكستان لم تشرق شمسها علىٰ الآفاق، ثم يتذرع بالمنطق التاريخي الموهوم، فيسأل عن سر الحملة التي توهمنا بأننا تنكبنا الإسلام في حياتنا، ورحنا نقتبس من هؤلاء وهؤلاء! إي والله، إنها توهمنا فقط أننا تنكبنا الإسلام؟! وإذا كان الناقد لا يعتقد مع الواهمين بأننا تنكبنا الإسلام عدة قرون، فلماذا يتحدث الآن عنه؟

وقد أخذ الأستاذ عز الدين يتحدث عن الصحافية التي تتمثل في جميع مؤلفات قطب، وعن مصادره الثانوية التي لا تصل إلىٰ المراجع الأولىٰ بحال، وأنت تسأل عن المصادر الثانوية هذه، فتجدها تتمثل في الكتب الحديثة مهما بلغت في الدقة والتمحيص! كأن كل مؤلف حديث لا يجوز أن يرجع إليه البتة!! وهذا رأي نسمعه

لأول مرة، ونكتفي بتسجيله دون التعقيب عليه. فإذا سألت الناقد عن مظاهر الصحافية كما يفهمها؛ وجدتها تتمثل فيما سماه بالأساليب الخطابية، والعبارات الطنانة! ! مما لا يصح في كتاب يستهدف إلىٰ البحث العلمي السليم.

وأحب أن ألفت الناقد إلىٰ أن كتاب «العدالة» - فوق منزلته العلمية - ذو رسالة عملية؛ فقد ألفه كاتبه ليحدث انقلابًا شعوريًّا عاصفًا، وليطير بالنفوس الذليلة إلىٰ آفاق العزة والكرامة في أوج الإسلام، وكتاب كهذا يجب أن يخاطب الوجدان والشعور، ويتغلغل إلىٰ الخواطر والمسارب، وكان في طوق مؤلفه أن ينحو به المنحىٰ العلمي الهادئ، ولكنه مصلح ثائر يحطم السدود، ويقتحم الحواجز. وكتب الثورة جميعها، سماوية وبشرية، غربية وشرقية، تخاطب العقل والشعور معًا، ولا يعيبها أن تتلمس لها النقائص تلمسًا، فيقال: إن المؤلف يثبت الفكرة قبل أن يبحثها؛ إذ إن تقديم الفكرة لا يحول دون مناقشتها، ودفع ما يقف أمامها من الشبه المضادة، وإلا فستكون قليلة الجدوىٰ فاقدة التأثير.

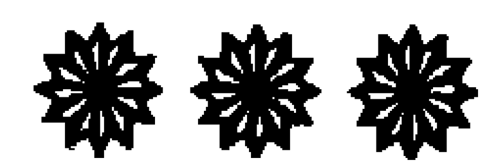
وقد عمد الناقد المغرض إلىٰ المغالطة والتضليل فيما لا سبيل إلىٰ دحضه؛ فهو يقول: «ولعل من صور اضطراب البحث في يد الكاتب أن تجده يقف بك أمام المشكلة في جوهرها، ثم إذا به يحيلك علىٰ ما سيأتي، حتىٰ إذا مضيت قليلًا، فقد نسيت المشكلة ونسيت ما كان مفروضًا أن سيأتي لأنك تدخل في شيء آخر جديد. يقف المؤلف في (ص ١٩)؛ ليضع هذه المشكلة الجوهرية، هل لا يزال في الإسلام عناصر صالحة للتطبيق في العصر الحديث؟ ثم يقول: هذا سؤال في الصميم؛ ولذلك لن يكون من المستطاع الإجابة الوافية عنه في هذا الموضوع، فسنجيب عنه تفصيلًا وتطبيقًا فيما بعد، حتىٰ إذا بلغت (ص ٢١٦)؛ وجدت إجابة باهتة».

والحق الذي لا يمتري فيه إنسان أن صحيفة (٢١٦) ليست وحدها هي الإجابة

المطلوبة، بل إن الكتاب بجميع صفحاته إجابة مقنعة تدور حول هذا السؤال؛ بل من أجله قد كتب المؤلف كتابه من ألفه إلىٰ يائه. ولن أعمد إلىٰ تلخيص مواضيع الكتاب، فيطول بي الحديث في غير طائل، ولكني أحيل الناقد إلىٰ الفهرس فقط! وأعلن أسفي لناقد فاضل يعمد إلىٰ هدم كتاب واضح دون أن يفهم مراميه! ولم يستطع الأستاذ عز الدين أن يخفي عن القراء ما تفيض به نفسه من التحامل المغرض والثورة علىٰ صاحب الكتاب؛ فهو يقرر فقدان الأصالة لدىٰ المؤلف في كتابه لشيء واحد؛ هذا الشيء هو أن المؤلف قد نقل عشر صفحات عن أربعة مؤلفات، وقد أثبتها متفرقة في مواضع شتىٰ من كتابه، وأسند كل نص إلىٰ قائله ومكانه؟ فيكون استشهاده بهذه النصوص المنقولة المسندة دليلًا قويًّا علىٰ فقدان الأصالة! مع أن صفحات الكتاب تستشرف إلىٰ الثلاثمائة، وكان في طوق كاتبه أن يرجع إلىٰ المصادر القديمة دون أن يشير إلىٰ من نقل عنهم من المحدثين، ودون أن يؤاخذ جزاؤه، أن يتهم بفقدان الأصالة، وقلة الابتكار.

لقد أسرف الأستاذ عز الدين إسماعيل في تجنيه دون مبرر يدعوه إلىٰ ذلك، وقد دفعني الإخلاص للحق وحده أن أعقب علىٰ حديثه راجيًا أن يتعود الإنصاف في آرائه المقبلة.

محمد رجب البيومي



هل تراجع سيد قطب عن كتاباته؟

قال سيد قطب في مذكراته الأخيرة «لماذا أعدموني؟»، والتي كتبها قبل وفاته، أي آخر ما كتب عن كتابه «العدالة الاجتماعية» الذي احتوىٰ علىٰ سب الصحابة - رضوان الله عليهم -:

«في الوقت ذاته صدر لي كتاب «العدالة الاجتماعية في الإسلام» سنة ١٩٤٩م مصدرًا بإهداء هذه الجملة:

إلىٰ الفتية الذين ألمحهم في خيالي قادمين يردون هذا الدين جديدًا كما بدأ، يجاهدون في سبيل الله لا يخافون لومة لائم... إلخ، ففهم الإخوان في مصر أنني أعنيهم بهذا الإهداء، ولم يكن الأمر كذلك، ولكنهم من جانبهم تبنوا الكتاب، واعتبروا صاحبه صديقًا، وبدءوا يهتمون لأمره»(١) اهـ.

فأين التوبة والرجوع؟!!

أين الإقلاع والاعتذار؟!!

بل حتىٰ آخر حياته ظل سيد معتزًّا بهذا الكتاب؛ فلقد زاره مندوب الجزائر في مؤتمر القاهرة، وطلب منه أن يكتب له بيانًا مختصرًا عن النظام الاجتماعي الإسلامي ووسائله في تحقيق العدالة الاجتماعية؛ ليساعده هو وإخوانه هناك علىٰ مقابلة التيارات الشيوعية، فقال له سيد قطب: إن لي ثلاثة كتب في هذا الموضوع، هي: «العدالة الاجتماعية في الإسلام»، و«السلام العالمي في الإسلام»، و«معركة الإسلام والرأسمالية»(٢).

فمتىٰ رجع عن هذه الكتب؟!!

لقد مات هذا الرجل وهو يطبع هذه الكتب وينشرها، ويعلن عنها في أغلفة كتبه،

---

(١) لماذا أعدموني، صـ١١، ط. الشركة السعودية.

(٢) لماذا أعدموني (صـ٧٩).

ولم يحذّر من كتاب واحد من كتبه التي تضمّنت هذه العقيدة الإلحادية وغيرها من الضلالات؛ واستمرَّ أخوه والإخوان المسلمون ينشرون هذه الكتب ويروّجون لها، ولم يُسمع منهم أي انتقاد لهذا الإلحاد.

والمسألة الثانية: وهي الطعنُ في جلّ الصحابة، وعلىٰ رأسهم: عثمان، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، والمقداد بن الأسود، ومعاوية، وعمرو بن العاص ﭬ ومَن عاصرهم من خيار التابعين.

وطعنُه هذا كثير، وجراحُه عميقة جدًّا يدمىٰ لها قلب كل مؤمن صادق الإيمان، وذلك في كتابه المسمىٰ بـ«العدالة الاجتماعية في الإسلام» الذي ظلم فيه الإسلام بتقرير الاشتراكية الماركسية، وحرّف من أجلِها نصوص القرآن والسنة، وحرّف قواعد الشريعة الإسلامية مجاراة للشيوعيين والاشتراكيين؛ فترك سيد قطب خصوم الشيوعية والاشتراكية ممن يسمونهم بـ«الرأسماليين» المعاصرين، وقفز إلىٰ ما قبل ألف وثلاثمائة وخمسين سنة، إلىٰ أصحاب محمدٍ ﷺ - وعلىٰ رأسهم عثمان - يشوههم ويقدح فيهم، يعيد هذا الطعن ويبديه بأسلوب فيه إهانةٌ لهم ويقطر عليهم حقدًا؛ وهو أمرٌ جليٌّ واضح يدركه المسلم والكافر، والبر والفاجر، والغبي والذكي، من الطبعة الأولىٰ لكتاب «العدالة» إلىٰ آخر الطبعات، وهي الثانية عشرة حسب علمي، وكذلك كتاب «كتب وشخصيّات» إلىٰ آخر طبعة من طبعاته.

وهؤلاء المروِّجون لكتب سيد قطب يدّعون إذا جوبهوا بضلالات سيد قطب التي دوّنها في كتبه، ومنها هاتان الضلالتان، يقولون: إن سيد قطب قد تاب ورجع، ولم يقدِّموا للناس أيّ دليل علىٰ رجوعه، وأنىٰ لهم الدليل وقد كانت أشياء:

الأول: إصراره وتماديه في طبع هذه الكتب التي تضمنت ضلالاته الكبرىٰ، ونشره لها بدون مبالاة إلىٰ أن مات.

والثاني: أن «الظلال» هو آخر ما كتب، وهو المعتمد، أحال فيه كثيرًا إلىٰ «العدالة الاجتماعية».

الثالث: «العدالة الاجتماعية» التي نقحها سيد عام ١٩٦٤م بها كثير من الطعون، سيأتيك بيانها.

الرابع: طبع أخيه لهذه الكتب ونشره بعد موت سيد قطب إلىٰ يومنا هذا، حتىٰ وإن أعلن غير ذلك؛ وهي مدة طويلة تستغرق أربعة وثلاثين عامـًا، وأين التعديلات التي وعد بها محمد قطب؟

وتأييد الإخوان المسلمين ومؤسساتهم بطبعها ونشرها، وقيامهم بالترويج لها؛ فهم مشاركون لسيد قطب في تحمّل وزر ومسئولية إذاعة هذه الضلالات الكبرىٰ وبثّها في أواسط المسلمين - ولا سيّما شباب المسلمين - في مشارق الأرض ومغاربها بشتىٰ الطبعات، تتراوح هذه الطبعات ما بين ستٍّ وعشرين لبعضها كـ«الظلال»، وإلىٰ خمسة عشر، وإلىٰ تسع طبعات.

هذا عدا الترجمات إلىٰ بعض اللغات. فهل يجوز نشر هذا الضلال في أوساط شباب مسلمين يريد كثيرٌ منهم الحق، فيقع في ضدِّه، ألا وهو الباطل؛ لظنِّه أنه حق، ويرد الحق ويخاصمه ويخاصم أهلَه؛ لأنه أصبح يرىٰ أن الحق باطلًا؟

❋ ❋ ❋

ماذا فعل سيد قطب بعد ردود العلامة محمود شاكر عليه؟

قال سيد قطب:

«والأمثلة كثيرة في سيرة عثمان على هذه التوسعات».

ثم أخذ يضرب الأمثلة، ثم قال سيد قطب:

١- «ولقد كان الصحابة يرون هذه التصرفات الخطيرة العواقب، فيتداعون إلى المدينة؛ لإنقاذ تقاليد الإسلام، وإنقاذ الخليفة من المحنة، والخليفة في كبرته لا يملك أمره من مروان.

وإنه من الصعب أن نتهم روح الإسلام في نفس عثمان، ولكن من الصعب كذلك أن نعفيه من الخطإ الذي نلتمس أسبابه في ولاية مروان الوزارة في كبرة عثمان»[1].

هذا كلام سيد قطب في الطبعة الثانية عشرة.

وفي الطبعة الخامسة كان أسلط لسانًا وأسوأ أدبًا مع خليفة رسول الله ﷺ حيث يقول: «ولقد كان من سوء الطالع أن تدرك الخلافة عثمان وهو شيخ كبير، ضعفت عزيمته عن عزائم الإسلام، وضعفت إرادته عن الصمود لكيد مروان وكيد أمية من ورائه»[2].

ويقول أيضًا في الطبعة الخامسة:

«ولقد كان الصحابة يرون هذا الانحراف عن روح الإسلام».

إلى أن قال:

«ولكن من الصعب كذلك أن نعفيه من الخطإ الذي هو خطأ المصادفة السيئة في

---

(١) العدالة الاجتماعية (ص١٥٩)، الطبعة الثانية عشرة ١٤٠٩هـ.

(٢) العدالة الاجتماعية (ص٢٠٦)، الطبعة الخامسة.

ولايته الخلافة وهو شيخ موهون، تحيط به حاشية سوء من أمية»[(١)].

ويقول سيد قطب:

«واعتذارنا لعثمان رضي الله عنه أن الخلافة جاءت إليه متأخرة، فكانت العصبة الأموية حوله، وهو يدلف إلىٰ الثمانين»[(٢)].

وفي الطبعة الخامسة كان وقحًا شديد الوقاحة مع عثمان رضي الله عنه، حيث يقول:

٢- «واعتذارنا لعثمان رضي الله عنه أن المصادفات السيئة قد ساقت إليه الخلافة متأخرة، فكانت العصبة الأموية حوله وهو يدلف إلىٰ الثمانين؛ واهن القوة، ضعيف الشيخوخة»[(٣)].

ولنقرأ ما ورد في مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه:

قال الإمام البخاري رحمه الله في «صحيحه»[(٤)]:

«باب مناقب عثمان بن عفان أبي عمرو القرشي رضي الله عنه.

وقال النبي ﷺ: **«من يحفر بئر رومة، فله الجنة»**. فحفرها عثمان.

وقال: **«من جهز جيش العسرة، فله الجنة»**. فجهزه عثمان.

ثم ذكر البخاري بسند إلىٰ أبي موسىٰ رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل حائطًا وأمرني بحفظ باب الحائط، فجاء رجل يستأذن فقال: **«ائذن له وبشره بالجنة»**، فإذا أبو بكر. ثم جاء آخر يستأذن، فقال: **«ائذن له وبشره بالجنة»**، فإذا عمر. ثم جاء آخر يستأذن، فسكت، ثم قال: **«ائذن له وبشره بالجنة علىٰ بلوىٰ ستصيبه»**، فإذا عثمان بن عفان.

---

(١) المصدر السابق (ص١٨٧).

(٢) العدالة الاجتماعية (ص١٦١)، الطبعة الثانية عشرة.

(٣) العدالة الاجتماعية، (ص١٨٩)، الطبعة الخامسة.

(٤) انظر كتاب: فتح الباري (٧/ ٥٢ - ٥٤).

وذكر بسنده أيضًا عن أنس ﷺ، قال: صعد النبي ﷺ أُحُدًا ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف، فقال: «اسكن أحد - أظنه ضربه برجله -؛ فليس عليك إلا نبي وصديق وشهيدان».

وذكر بسنده أيضًا إلىٰ ابن عمر ﷺ، قال: كنا في زمن النبي ﷺ لا نعدل بأبي بكر أحدًا، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نترك أصحاب النبي ﷺ لا نتفاضل بينهم.

وذكر بسنده أيضا عن ابن وهب، قال: جاء رجل من أهل مصر، وحج البيت، فرأىٰ قومًا جلوسًا، فقال: من هؤلاء القوم؟ فقالوا: هؤلاء قريش، قال: فمن الشيخ فيهم؟ قالوا: عبد الله بن عمر، قال: يابن عمر، إني سائلك عن شيء، فحدثني عنه، هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد؟ قال: نعم. فقال: هل تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد؟ قال: نعم، قال الرجل: هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم. قال: الله أكبر.

قال ابن عمر: تعال، أبين لك.

أما فراره يوم أحد: فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له.

وأما تغيبه عن بدر: فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ، وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ: «إن لك أجر رجل ممن شهد بدرًا وسهمه».

وأما تغيبه عن بيعة الرضوان: فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان؛ لبعثه مكانه، فبعث رسول الله ﷺ عثمان، وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلىٰ مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنىٰ: «هذه يد عثمان». فضرب بها علىٰ يده فقال: «هذه لعثمان».

فقال له ابن عمر: اذهب بها معك الآن».

فهذه الأحاديث وغيرها كثير توضح فضائل الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ، والذي أسأل الله تعالىٰ بمحبتي له ولسائر الصحابة - رضوان الله عليهم - أن يحشرني

يوم القيامة في زمرتهم؛ فإن محبة هؤلاء إيمان وقربة إلىٰ الله، و«المرء مع من أحب»، وإني أشهد الله علىٰ بغضي لكل من سب صحابة رسول الله ﷺ.

٣- «فلما جاء الأمويون، وصارت الخلافة الإسلامية ملكًا عضوضًا في بني أمية، لم يكن ذلك من وحي الإسلام، إنما كان من وحي الجاهلية، الذي أخفأ إشراقة الروح الإسلامي»[1].

وهذا الكلام وقد نقلته من كتاب «العدالة الاجتماعية» الطبعة الثانية عشرة، قد بُدل عما في الطبعة الأولىٰ، والتي نقل منها الأستاذ محمود محمد شاكر مقولات سيد قطب وطعوناته في صحابة رسول الله ﷺ، وذلك في مجلة «المسلمون» عام ١٣٧١هـ العدد الثالث.

فالذي نقله الأستاذ محمود شاكر: «فلما جاء معاوية، وصارت الخلافة الإسلامية ملكًا عضوضًا في بني أمية، لم يكن ذلك من وحي الإسلام، إنما كان من وحي الجاهلية».

قال محمود شاكر رَحِمَهُ اللهُ: «ولم يكتف بهذا، بل شمل بني أمية جميعًا فقال: فأمية بصفة عامة لم يعمر الإيمان قلوبها، وما كان الإسلام لها إلا رداءً تخلعه وتلبسه حسب المصالح والملابسات»[2].

ويقول سيد قطب أيضًا كما في الطبعة الثانية عشرة من كتابه «العدالة الاجتماعية»:

٤- «فبايع الناس علىٰ هذا الأساس الذي لا يعترف به الإسلام البتة، قام ملك يزيد، فمن هو يزيد؟».

---

(١) انظر كتاب: العدالة الاجتماعية (ص١٥٤)، الطبعة الثانية عشرة.

(٢) مجلة المسلمون عام ١٣٧١هـ، العدد الثالث.

ثم قال: «وأيًا ما كان الأمر، فإن أحدًا لا يجرؤ علىٰ الزعم بأن يزيد كان أصلح المسلمين للخلافة وفيهم الصحابة والتابعون، إنما كانت مسألة وراثة الملك في البيت الأموي، وكان هذا الاتجاه طعنة في قلب الإسلام، ونظام الإسلام، واتجاه الإسلام»[1].

وقد جاء هذا الكلام في الطبعة الأولىٰ من الكتاب نفسه كما نقله محمود شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ هكذا:

«وهذا هو الخليفة الذي يفرضه معاوية علىٰ الناس؛ مدفوعًا إلىٰ ذلك بدافع لا يعرفه الإسلام؛ دافع العصبية العائلية القبلية، وما هي بكثيرة علىٰ معاوية، ولا بغريبة عليه؛ فمعاوية هو ابن أبي سفيان وابن هند بنت عتبة، وهو وريث قومه جميعًا، وأشبه شيء بهم في بعد روحه عن حقيقة الإسلام. فلا يأخذ أحد الإسلام بمعاوية أو بني أمية؛ فهو منه بريء ومنهم بريء»[2].

٥- ويقول أيضًا: «وفي سبيل تبرئة الإسلام روحه ومبادئه من ذلك النظام الوراثي الذي ابتدع ابتداعًا في الإسلام؛ نقرر هذه الحقائق؛ لتكون واضحة في تصور الحكم الإسلامي علىٰ حقيقته، ولكي ندرك عمق هذه الحقيقة يجب أن نستعرض صورًا من سياسة الحكم في العهود المختلفة علىٰ أيدي أبي بكر وعمر، وعلىٰ أيدي عثمان ومروان، وعلىٰ أيدي علي الإمام، ثم علىٰ أيدي الملوك من أمية ومن بعدهم من بني العباس، بعد هذه الهزة المبكرة في تاريخ الإسلام»[3].

وجاء هذا الكلام في الطبعة الأولىٰ، كما نقله الأستاذ محمود شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ هكذا:

«ولسنا ننكر علىٰ معاوية في سياسة الحكم ابتداعه نظام الوراثة وقهر الناس عليها

---

(١) انظر كتاب: العدالة الاجتماعية، (ص١٥٥)، الطبعة الثانية عشرة.

(٢) مجلة المسلمون عام ١٣٧١هـ العدد الثالث.

(٣) انظر كتاب: العدالة الاجتماعية (ص١٥٥)، الطبعة الثانية عشرة.

فحسب، إنما ننكر عليه أولًا وقبل كل شيء إقصاءه العنصر الأخلاقي في صراعه مع علي، وفي سيرته في الحكم بعد ذلك إقصاءً كاملًا لأول مرة في تاريخ الإسلام. فكانت جريمة معاوية «الأولىٰ» التي حطمت روح الإسلام في أوائل عهده، هي نفي العنصر الأخلاقي من سياسته نفيًا باتًّا.

ومما ضاعف الجريمة أن هذه الكارثة باكرت الإسلام، ولم تنقض إلا ثلاثون سنة علىٰ سننه الرفيعة.

ولكي ندرك عمق هذه الحقيقة، يجب أن نستعرض صورًا من سياسة الحكم في العهود المختلفة علىٰ أيدي أبي بكر وعمر، وعلىٰ أيدي عثمان ومروان، ثم علىٰ أيدي الملوك من أمية، ومن بعدهم من بني العباس، بعد أن خنقت روح الإسلام خنقًا علىٰ أيدي معاوية وبني أمية»[1].

ويقول سيد قطب أيضًا في كتابه «العدالة الاجتماعية»:

«ولقد كان من الطبيعي ألا يرضىٰ المستنفعون عن علي، وألا يقنع بشرعة المساواة من اعتادوا التفضيل ومن مردوا علىٰ الاستئثار، فانحاز هؤلاء في النهاية إلىٰ المعسكر الآخر: معسكر أمية، حيث يجدون فيه تحقيقًا لأطماعهم، علىٰ حساب العدل والحق اللذين يصر عليهما علي ﷺ هذا الإصرار، والذين يرون في معاوية دهاءً وبراعة لا يرونها في علي، ويعزون إليهما غلبة معاوية في النهاية؛ إنما يخطئون تقدير الظروف كما يخطئون فهم علي وواجبه.

لقد كان واجب علي الأول والأخير أن يرد للتقاليد الإسلامية قوتها، وأن يرد إلىٰ الدين روحه، وأن يجلو الغاشية التي غشيت هذا الروح علىٰ أيدي بني أمية في كبرة عثمان، ولو جارىٰ وسائل بني أمية في المعركة؛ لبطلت مهمته الحقيقية، ولما كان لظفره

---

(١) مجلة المسلمون، عام ١٣٧١هـ العدد الثالث.

بالخلافة خالصة من قيمة في حياة هذا الدين.

إن عليًّا إما أن يكون عليًّا أو فلتذهب الخلافة عنه، بل فلتذهب حياته معها.

وهذا هو الفهم الصحيح الذي لم يغب عنه - كرم الله وجهه - وهو يقول فيما روي عنه - إن صحت الرواية -[1]: «والله ما معاوية بأدهىٰ مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهىٰ الناس»[2].

ومثل هذا الكلام - بل أشد - يقوله في كتابه الآخر «كتب وشخصيات»، فقد قال: «إن معاوية وزميله عمرًا لم يغلبا عليًّا لأنهما أعرف منه بدخائل النفوس، وأخبر منه بالتصرف النافع في الظرف المناسب؛ ولكن لأنهما طليقان في استخدام كل سلاح، وهو مقيد بأخلاقه في اختيار وسائل الصراع.

وحين يركن معاوية وزميله إلىٰ الكذب، والغش، والخديعة، والنفاق، والرشوة، وشراء الذمم، لا يملك علي أن يتدلىٰ إلىٰ هذا الدرك الأسفل. فلا عجب، ينجحان ويفشل، وإنه لفشل أشرف من كل نجاح.

علىٰ أن غلبة معاوية علىٰ علي، كانت لأسباب أكبر من الرجلين، كانت غلبة جيل علىٰ جيل، وعصر علىٰ عصر، واتجاه علىٰ اتجاه.

كان مد الروح الإسلامي العالي قد أخذ ينحسر، وارتد الكثيرون من العرب إلىٰ المنحدر الذي رفعهم منه الإسلام، بينما بقي علي في القمة، لا يتبع هذا الانحسار، ولا يرضىٰ بأن يجرفه التيار. من هنا كانت هزيمته، وهزيمته أشرف من كل انتصار»[3].

---

(١) هذه إساءة وطعن في علي بن أبي طالب ﷺ قبل أن يكون إساءة وطعنًا في معاوية ﷺ. فهل يعقل أن يتلفظ علي ﷺ عن أحد أصحاب رسول الله ﷺ وأحد كتبة الوحي بهذا اللفظ؟!.

(٢) انظر كتاب: العدالة الاجتماعية، (ص١٦٣)، الطبعة الثانية عشرة.

(٣) انظر كتاب: كتب وشخصيات، (ص٢٤٢).

ويقول أيضًا في الكتاب نفسه:

«وإذا احتاج جيل لأن يدعىٰ إلىٰ خطة معاوية؛ فلن يكون هو الجيل الحاضر علىٰ وجه العموم، فروح «ميكافيلي» التي سيطرت علىٰ معاوية قبل ميكافيلي بقرون هي التي تسيطر علىٰ أهل هذا الجيل، وهم أخبر بها من أن يدعوهم أحد إليها؛ لأنها روح «النفعية» التي تظلل الأفراد والجماعات، والأمم والحكومات»[(١)].

ويقول سيد قطب أيضًا:

٦- «ومضىٰ علي إلىٰ رحمة ربه، وجاء بنو أمية، فلئن كان إيمان عثمان وورعه ورقته كانت تقف حاجزًا أمام أمية، لقد انهار هذا الحاجز، وانفتح الطريق للانحراف»[(٢)].

وهذا الكلام جاء في الطبعة الثانية عشرة مبدلا، حيث إن في الطبعة الأولىٰ والتي أخذ منها الأستاذ محمود شاكر في رده علىٰ سيد هكذا:

«ومضىٰ عليٌّ إلىٰ رحمة ربه، وجاء معاوية بن هند وابن أبي سفيان»[(٣)].

ثم يقول – أي: سيد –:

«فلئن كان إيمان عثمان وورعه ورقته كانت تقف حاجزًا أمام أمية، لقد انهار هذا الحاجز، وانساح ذلك السد، وارتدت أمية طليقة حرة إلىٰ وراثاتها في الجاهلية والإسلام، وجاء معاوية تعاونه العصبة التي علىٰ شاكلته، وعلىٰ رأسها: عمرو بن العاص؛ قوم تجمعهم المطامع والمآرب، وتدفعهم المطامح والرغائب، ولا يمسكهم خلق ولا دين ولا ضمير»[(٤)][(٥)].

---

(١) المصدر السابق (٣٤٣).

(٢) انظر كتاب: العدالة الاجتماعية (ص١٦٤)، الطبعة الثانية عشرة.

(٣) قال الأستاذ محمود شاكر هنا معلقًا: «وأنا أستغفر الله من نقل هذا الكلام بمثل هذه العبارة النابية؛ فإنه أبشع ما رأيته».

(٤) قال الأستاذ شاكر معلقًا: «وأنا أستغفر الله وأبرأ إليه».

(٥) مجلة المسلمون، العدد الثالث.

٧- ويقول سيد قطب أيضًا:

«وإذا كنا لا نؤرخ للدولة الإسلامية، ولكن الروح الإسلامي في الحكم؛ فإننا نكتفي في إبراز مظاهر التحول والانحسار في هذا الروح بإثبات ثلاث خطب من عهد الملوك، وبموازنتها بالخطب الثلاث التي سبقت في عهد الخلفاء؛ يتبين الفارق العميق.

خطب معاوية في أهل الكوفة بعد الصلح فقال: «يا أهل الكوفة، أتراني قاتلتكم علىٰ الصلاة والزكاة والحج، وقد علمت أنكم تصلون وتزكون وتحجون؟ ولكنني قاتلتكم لأتأمر عليكم وعلىٰ رقابكم، وقد آتاني الله ذلك، وأنتم كارهون.

ألا وإن كل مال أو دم أصيب في هذه الفتنة فمطلول، وكل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين»[(١)].

ولقد كان أسلوبه في الطبعة الأولىٰ التي نقل منها محمود شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ وقحًا.

وأما في الطبعات الأخرىٰ؛ فقد خفف من أسلوبه، مع بقاء فكره ورأيه وعقيدته في معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يقول في كتابه «العدالة الاجتماعية» الطبعة الأولىٰ:

«ولا حاجة بنا للحديث عن معاوية؛ فنحن لا نؤرخ له هنا، ويحسبنا تصرفه في توريث يزيد الملك؛ لتعلم أي رجل هو.

ثم بحسبنا سيرة يزيد؛ لنقدر أية جريمة كانت تعيش في أسلاخ أمية علىٰ الإسلام والمسلمين».

قال الأستاذ شاكر - ثم يعقب عليه مستدركًا -:

«والله تعالىٰ يقول: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ۝٣٤﴾ [الإسراء: ٣٤]. والله يقول: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢].

---

(١) انظر كتاب: العدالة الاجتماعية، (ص١٦٧)، الطبعة الثانية عشرة.

فيؤثر الوفاء بالميثاق للمشركين المعاهدين علىٰ نصرة المسلمين لإخوانهم في الدين، أما معاوية؛ فيخيس بعهده للمسلمين، ويجهر بهذه الكبيرة جهرة المتبجحين، إنه من أمية التي أبت تحيزها أن تدخل في حلف الفضول!(١).

٨- ويقول سيد قطب أيضًا ذاكرًا خطبة أخرىٰ يزعم أنها لمعاوية ﷺ في أهل المدينة:

«وخطب كذلك في أهل المدينة فقال: أما بعد: فإني ما وليتها بمحبة علمتها منكم. إلخ».

وقد حذف تعليقه علىٰ هذه الخطبة في الطبعة الثانية عشرة من الكتاب، وهذا التعليق قد ذكره الأستاذ محمود شاكر رحمه الله في رده علىٰ سيد قطب، فيقول الأستاذ شاكر:

«ثم يذكر خطبة أخرىٰ لمعاوية في أهل المدينة: أما بعد: فإني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم». ثم يعلق عليه، فيقول(٢):

«أجل، ما وليها بمحبة فيهم، وإنه ليعلم أن الخلافة بيعة الرضا في دين الإسلام، ولكن ما لمعاوية وهذا الإسلام وهو ابن هند وابن أبي سفيان»(٣).

ويقول سيد قطب:

٩- «فأما بنو أمية، فقد ساروا في سياسة المال سيرة أخرىٰ»(٤).

وكالعادة، فقد خفف الأسلوب في الطبعات المتأخرة، وأما في الطبعة الأولىٰ التي اعتمدها الأستاذ محمود شاكر في رده عليه، فقد كان شديد الوقاحة، فهو يقول:

«وأما معاوية بعد علي، فقد سار في سياسة المال سيرته التي ينتفي منها العنصر الأخلاقي، فجعله للرشىٰ واللهىٰ وشراء الذمم في البيعة ليزيد، وما أشبه هذه الأغراض،

---

(١) مجلة المسلمون العدد الثالث.

(٢) أي: سيد قطب.

(٣) مجلة المسلمون، العدد الثالث.

(٤) انظر كتاب: العدالة الاجتماعية (ص١٧٦)، الطبعة الثالثة عشرة.

بجانب مطالب الدولة والأجناد والفتوح بطبيعة الحال»[1].

ويقول سيد قطب:

١٠- «ولكن الواقع التاريخي للإسلام - علىٰ الرغم من هذا كله - استطاع أن يقرر عدة مبادئ أساسية في سياسة المال، وأن يحقق الكثير من نظريات الإسلام ومبادئه، علىٰ الرغم من النكسة التي أصابته في مطلع عهده علىٰ أيدي بني أمية»[2].

وقال - أيضًا -: «هذا هو الإسلام، علىٰ الرغم مما اعترض خطواته الأولىٰ من انحراف في تصور معنىٰ الحكم وسياسة المال، كانت له آثار ضخام»[3].

وأما ما ورد في الطبعة الأولىٰ، فهو هكذا:

يقول الأستاذ محمود شاكر رَحِمَهُ اللهُ: «ثم قال شاملًا لبني أمية: وهذا هو الإسلام، علىٰ الرغم مما اعترض خطواته العملية الأولىٰ من غلبة أسرة لم تَعمر روح الإسلام نفوسها، فآمنت علىٰ حرف حين غلَب الإسلام، وظلت تحلم بالملك الموروث العضوض حتىٰ نالته، فسارت بالأمر سيرة لا يعرفها الإسلام»[4].

ولقد ذكر الأستاذ محمود شاكر طعونات أخرىٰ لسيد قطب في أبي سفيان بن حرب رضي الله عنه، وفي هند بنت عتبة أم معاوية رضي الله عنها.

فيقول الأستاذ شاكر رحمه الله:

«هذا ما جاء في ذكر معاوية، وما أضفىٰ الكاتب من ذيوله علىٰ بني أمية وعلىٰ عمرو بن العاص.

---

(١) مجلة المسلمون، العدد الثالث.

(٢) انظر كتاب: العدالة الاجتماعية، (ص١٧٨) الطبعة الثانية عشرة.

(٣) المصدر السابق، (ص١٨١).

(٤) مجلة المسلمون، العدد الثالث، كتاب ملحوظات وتنبيهات (ص٥١ - ٦٢).

وأما ما جاء عن أبي سفيان بن حرب فانظر ماذا يقول:

١١- أبو سفيان هو ذلك الرجل الذي لقي الإسلام منه والمسلمون ما حفلت به صفحات التاريخ، والذي لَم يسلم إلا وقد تقررت غلبة الإسلام، فهو إسلام الشفة واللسان لا إيمان القلب والوجدان، وما نفذ الإسلام إلىٰ قلب ذلك الرجل (يقصد أبا سفيان ﷺ). فقد ظل يتمنىٰ هزيمة المسلمين ويستبشر لها في يوم حنين، وفي قتال المسلمين والروم من بعد، بينما يتظاهر بالإسلام.

ولقد ظلت العصبة الجاهلية تسيطر علىٰ فؤاده.

وقد كان أبو سفيان يحقد علىٰ الإسلام والمسلمين، فما تعرض فرصة للفتنة إلا انتهزها.

١٢- ولقد كان أبو سفيان يحلم بملك وراثي في بني أمية منذ تولي الخلافة عثمان، فهو يقول:

يا بني أمية، تلقفوها تلقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان فما زلت أرجوها لكم، ولتصيرن إلىٰ صبيانكم وراثة!

وما كان يتصور حكم المسلمين إلا ملكًا حتىٰ في أيام محمد[1]. فقد وقف ينظر إلىٰ جيوش الإسلام يوم فتح مكة، ويقول: يا عباس بن عبد المطلب، والله يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيمًا، فلما قال له العباس: إنها النبوة، قال: نعم إذن! نعم إذن! وإنها لكلمة يسمعها بأذنه، فلا يفقهها قلبه، فما كان مثل هذا القلب ليفقه إلا معنىٰ الملك والسلطان».

ثم يقول عن هند بنت عتبة أم معاوية:

١٣- «ذلك أبو معاوية. فأما أمه هند بنت عتبة، فهي تلك التي وقفت يوم أحد تلغ

---

(١) قال الأستاذ شاكر معلقًا: «وأظن أنا أنه من الأدب أن أقول: ﷺ».

في الدم إذ تنهش كبد حمزة كاللبؤة المتوحشة، لا يشفع لها في هذه الفعلة الشنيعة حتى الثأر على حمزة، فقد كان قد مات، وهي التي وقفت بعد إسلام زوجها كرهًا بعد إذ تقررت غلبة الإسلام تصيح: اقتلوا الخبيث الدنس الذي لا خير فيه، قُبِّح من طليعة القوم! هلا قاتلتم عن أنفسكم وبلادكم؟»[1].

❋❋❋

(١) مجلة المسلمون، العدد الثالث، بعنوان: «لا تسبوا أصحابي»، للأستاذ، محمود مُحمَّد شاكر.

الخاتمة

فهذا بيان للجميع؛ ليعرف به حقيقة ما دار في قضية كثر الجدال فيها، فهل ما زلتم علىٰ رأيكم في هذا الرجل؟!

إنني أتساءل: هل تجنّينا علىٰ سيد قطب؟

إن نقد سيد قطب له خطره وخطورته؛ فهو شهيد الإسلام، وكثير من الدعاة يفسرون كتاب الله في ضوء ما يكتب سيد ويقرر، بل قد يخضعون الآية لتأويل فاسد؛ ليلائموا بينها وبين ما كتب سيد في كتبه، فسيد إذن أخطر رجل في الإسلام وعلىٰ الإسلام، ومن هنا وجب علىٰ كل مسلم أن يبين الخطأ من الصواب، وأن يميز الشر من الخير، وأنا لا أنقد سيدًا؛ لأنه سيد قطب، بل لأنه عند الناس «شهيد الإسلام». إن الخطأ من سيد خطيئة، واللمم من سيد إثم كبير، والصغيرة منه أكبر الكبائر، لماذا؟

لأنه عند الناس «شهيد الإسلام»، فعلىٰ قدر مكانتك في النفوس، يكون مقدار محاسنك ومساويك، والناس تردد: حسنات الأبرار سيئات المقربين، فكيف وسيد عند الناس أول المقربين؟

هل تغفر لسيد أخطاؤه؟

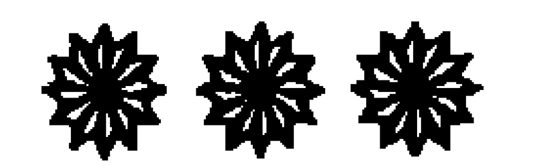
يقول بعض الأحبة العاتبين: إننا يجب أن نغفر لسيد أخطاءه؛ فهو مجتهد أصاب وأخطأ، أقول: كنت أود هذا يا أخي الكريم، لكن يا ليت خطأ سيد كان في الفروع، أو حتىٰ في بعض الأصول؛ ذلك لأن أخطاء سيد في أهم أس بني عليه الإسلام وهو التوحيد، وفي البداءة الأولىٰ التي يفهمها العامي من أهل الإسلام، بل إن سيدًا في كثير من كتبه نجد الغلو الفلسفي الذي يبعد النفس بعدًا سحيقًا عن الإسلام، فلو كانت أخطاء سيد أخطاء مجتهدين؛ لتناسيناها، لكنها أخطاء رجل غرته الأهواء، فسلك سبيلها،

فشطحت به، فإذا بشهيد الإسلام يصبح عند الحق شهيدًا علىٰ الإسلام اهـ[1].

هذه هي الحقيقة كاملة؛ ليكون كل مسلم علىٰ بيّنة من أمره.

والرجوع إلىٰ الحق خير من التمادي في الباطل[2]، وقد قال بعضهم للإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: إنه يثقل علي أن أقول فلان كذا وفلان كذا، فقال: إذا سكتَّ أنت وسكتُّ أنا، فمتىٰ يعرف الجاهل الصحيح من السقيم؟

اللهم هل بلغت. اللهم فاشهد. اللهم اعصمنا من الخطإ والزلل، وارزقنا الإخلاص وحسن الاتباع.



---

(١) مجلة الهدي النبوي، عدد جمادي الأولىٰ ١٣٦٧ هـ ص ١٣، مقال للعلامة عبد الرحمن الوكيل رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) ولنا في ذلك مبحث بعنوان: «الرجوع إلىٰ الحق خير من التمادي في الباطل؛ صفحات مضيئة من حياة سلفنا الصالح» مراجعة وتقديم فضيلة الشيخ الوالد حسن بن عبد الوهاب البنا المدرس بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا.

فتوى العلامة/ عبد المحسن العباد - حفظه الله -

إجابة علىٰ سؤال عن كتب سيد قطب ومناسبة قراءتها من عدمها.

أقول: إن سيد قطب كما هو واضح في مؤلفاته كاتب من الكتاب، وليس من العلماء الذين يُعوّل علىٰ كلامهم في المسائل العلمية، وهو عندما يكتب بانفعالٍ وحماس ينفِلتُ منه القلم، وتزل به القدم، فيقع في أخطاء فادحة، كالذي حصل له من الكلام في قصة نبي الله موسىٰ عليه الصلاة والسلام؛ إذ وصَفَه بأنه الزعيم المندفع العصبي المزاج، حيث قال في كتابه «التصوير الفني في القرآن» [(ص: ١٦٢ – ١٦٣)، ط. دار الشروق]:

«لنأخذ موسىٰ؛ إنّه نموذج للزعيم المندفع العصبي المزاج! !».

وقال في قوله تعالىٰ: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِ﴾ [القصص: ١٥]: «وهنا يبدو التعصبُ القومي، كما يبدو الانفعال العصبي!!».

وقال عند قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىّٞ مُّبِينٞ﴾ [القصص: ١٨]، قال: «ولكنه يَهُمُّ بالرجل الآخر كما همَّ بالأمس، وينسيه التعصب والاندفاع استغفاره وندمه وخوفه وترقبه، لولا أن يُذكِّره من يَهُمُّ به بفعلته، فيتذكَّر ويخشىٰ».

وكالذي حصل له في حق أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ، حيث قال في كتابه «العدالة الاجتماعية» [(ص٢٠٦)، الطبعة الخامسة]:

«ونحن نميل إلىٰ اعتبار خلافة علي امتدادًا طبيعيًّا لخلافة الشيخين قبله، وأن عهد عثمان كان فجوةً بينهما! !».

وقال فيه أيضًا (ص ١٨٦ من الطبعة نفسها):

«ولقد كان من سوء الطالع أن تدرك الخلافةُ عثمانَ وهو شيخ كبير، ضعفت

عزيمتُه عن عزائم الإسلام، وضعفت إرادتُه عن الصمود لكيد مروان وكيد بني أمية من ورائه! !».

وقال فيه أيضًا (ص ١٨٩ من الطبعة نفسها):

«وأخيرًا ثارت الثائرة علىٰ عثمان، واختلط فيها الحقُّ بالباطل، والخيرُ بالشرِّ، ولكن لابد لمن ينظر إلىٰ الأمور بعين الإسلام، ويستشعر الأمور بروح الإسلام أن يقرر أن تلك الثورة في عمومها كانت أقرب إلىٰ روح الإسلام واتجاهه من موقف عثمان، أو بالأدق من موقف مروان ومن ورائه بنو أميَّة! ! !».

وكالذي حصل له في حق معاوية وعمرو بن العاص ﭬ، حيث قال في كتابه «كتب وشخصيات» [(ص ٢٤٢) طبعة دار الشروق]:

«إن معاوية وزميله عمرًا لم يغلبا عليًّا لأنهما أعْرَفُ منه بدخائل النفوس وأخْبَرُ بالتصرف الدافع في الظرف المناسب؛ ولكن لأنهما طليقان في استخدام كلّ سلاح، وهو مقيد بأخلاقه في اختيار وسائل الصراع، وحين يركن معاوية وزميله إلىٰ الكذب والغش والخديعة والنفاق والرشوة وشراء الذمم، لا يملك عليٌّ أن يتدلَّىٰ إلىٰ هذا الدرك الأسفل، فلا عجب ينجحان ويفشل، وإنه لفشلٌ أشرف من كل نجاح!!».

لذا فإني أنصحُ بعدم قراءة كتبه، وبالاشتغال بقراءة الكتب النافعة المأمونة العاقبة علىٰ قارئها.

ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلًّا للذين آمنوا، ربنا إنك رءوف رحيم.

عبد المحسن بن حمد العباد البدر.

بتاريخ ١٤٢١/٦/٩هـ.

فتوى العلامة/ عبد العزيز آل الشيخ - حفظه الله -

سئل فضيلة الشيخ عبد العزيز آل الشيخ مفتي عام المملكة ورئيس هيئة كبار العلماء - حفظه الله -:

ظهر في الآونة الأخيرة من بعض الكتاب العقلانيين، من يتكلمون زورًا وبهتانًا في مقام الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان ﷺ، وأنه ليس من جملة الصحابة؛ لأنه أسلم بعد الفتح، فما هو قول سماحتكم؟ وكيف الرد على شبهتهم؟

فأجاب - حفظه الله ورعاه -:

هذا قولٌ باطلٌ، وقائله ضالٌّ مضلّ، مكذِّبٌ للحقِّ، مُنكِرٌ للحق.

معاوية بن أبي سفيان أحدُ أصحابِ النبي ﷺ، يقول المؤرخون: إنه أسلم عامَ ست، وأخفىٰ إسلامه علىٰ أبيه، وقالت له أمه: أخفِ إسلامك لا يقطع عنك أبوك النفقة، ثم عَلِم أبوه بإسلامه، فقال: لماذا؟ قال: ما آليتُ نفسي إلا خيرًا، وأنه أعلن إسلامه عامَ الفتح، وهو كاتب الوحيِ للنبي ﷺ، وهو ﷺ أميرٌ علىٰ الشام في أيام الصديق وعمر وعثمان، جمَع له عمر - لما توفي أخوه يزيد بن أبي سفيان - بين الشام كله، فأصبح أميرًا علىٰ الشام في عهد عمر وفي عهد عثمان، ورضيَه الصحابةُ، ورضِيَه المسلمون إمامًا لهم عامَ الأربعين بعد تنازل الحسنِ بن علي ﷺ عن الخلافة، وهو أول ملوكِ الإسلام، وخلافتُه كلُّها خيرٌ وبركة، معروف بالحلم والصفح والعفو، معروفٌ بالأخلاق الطيبة، والسيرة النبيلة، فهو صحابيٌّ ابن صحابي، وأمه صحابية - رضي الله عنه وأرضاه -، والمسلمون مُجمعون علىٰ أنه أولُ ملوك الإسلام، وأنه خليفةٌ مِن خلفاء المسلمين، وأن بيعتَه بيعةُ حق، وأنه أحد أئمة المسلمين وفقهاءِ أصحاب النبي ﷺ، رضي الله عنه وأرضاه. والله يقول: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ

دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الحديد: ١٠]؛ فلا شك أن المنفقين والمجاهدين أفضل، لكن الله قال: ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [النساء: ٩٥].

يقول أيضًا السائل: ما رأيكم أيضًا في قول القائل: «وحين يركنُ معاوية وزميله عمرو إلىٰ الكذب والغش والخديعة والنفاق والرشوة وشراء الذمم، لا يملك عليٌّ أن يتدلّىٰ إلىٰ هذا الدرك الأسفل، فلا عجب أن ينجحان ويفشل، وإنه لَفَشلٌ أعظم من كل نجاح»، هل هذا الكلام من جملة سب الصحابة؟

الجواب:

هذا كلامُ باطنيٍّ خبيث، أو يهوديٍّ لَعين، ما يتكلم بهذا مسلم.

عمرو بن العاص شهد له النبي ﷺ بالجنة، ومعاوية من فضلاء الصحابة، وهما رضي الله [لهم] الدين، [وأهل] تقوىٰ وصلاح، لا يشك مسلم فيهم، وما فعلوا شيئًا يُعاب عليهم، وكلُّ ما قاله أولئك؛ فمُجرَّد فرية وكذب وتضليل، - وعياذًا بالله - عنوانُ نفاق مِمّن قاله. اهـ.

(هذه الفتاوىٰ بتأريخ ١٥ رجب ١٤٢٦ هـ. ضمن سلسلة «محاضرات التوحيد» المقامة بالطائف لعام ١٤٢٦ هـ).

❁ ❁ ❁

قالوا عنه
سيد قطب بأقلام أصحابه

يقول سليمان فيّاض في مقال بعنوان «سيّد قطب بين النقد الأدبي وجاهليّة القرن العشرين»، في عدد سبتمبر ١٩٨٦، من مجلّة «الهلال»:

«لقد سمعت بأذني من سيّد قطب أنه ظل ملحدًا أحد عشر عامًا، ثم خرج من حيرة الإلحاد إلىٰ طمأنينة الإيمان».

في حين قال حلمي النمنم في (صفحة ٣٥) من كتابه «سيد قطب وثورة يوليو»:

«لا يوجد ما يشير إلىٰ اهتمام سيّد قطب بمسألة أصل الوجود والكون قبل سفره المثير للشكوك إلىٰ أمريكا».

أمّا عبّاس خضر، فقد كتب في كتابه الصادر بعنوان «هؤلاء عرفتهم» (عدد مارس ١٩٨٣من سلسلة اقرأ)، وقال:

«وقال سيّد قطب أمامي لأحد الأصدقاء: إن إثبات وجود الله أمر صعب، ولكن نفي وجوده هو أمر صعب أيضًا، إلّا أن الدين ضروري علىٰ أي حال؛ لقيادة القطعان البشريّة، ولا يمكن أن يسلس قيادها بغير الدين».

قال علي خامنئي مرشد الثورة الإيرانية الشيعي، مقدمة خامنئي لترجمته لكتاب «المستقبل لهذا الدين» لسيد قطب، وقد ضمنه عبارات المدح لسيد قطب، فمما قال:

«هذا الكتاب - رغم صغر حجمه - خطوة رحبة فاعلة علىٰ هذا الطريق الرسالي، مؤلفه الكريم الكبير سعىٰ بهذا الكتاب في فصوله المبوبة تبويبًا ابتكاريًّا أن يعطي أولًا صورة حقيقية للدين».

«الكتب الأخرىٰ للمؤلف المفكر المجاهد تشكل كل منها خطوة علىٰ طريق

توضيح معالم الرسالة الإسلاميّة، وتفند مزاعم أولئك الذين يتهمون الإسلام بالبعد عن المنهج العلمي الصحيح، وبأنها ستنفد أغراضه».

«أحد مؤلفاته القيمة والمبتكرة تحت عنوان: «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته»، ومترجم هذا الكتاب يعكف علىٰ ترجمته، وسيقدم قريبًا إلىٰ قراء الدراسات الإسلاميّة التحليلية.

❋ ❋ ❋

شهادة أيمن الظواهري

قال أستاذ التكفير والتفجير أيمن الظواهري في صحيفة «الشرق الأوسط»، عدد ٨٤٠٧ –في عام ١٩/ ٩/ ١٤٢٢هـ:

«إن سيد قطب هو الذي وضع دستور «الجهاديين!! » في كتابه الديناميت: «معالم في الطريق»، وأن سيدًا هو مصدر الإحياء الأصولي، وأن كتابه «العدالة الاجتماعية في الإسلام» يعد أهم إنتاج عقلي وفكري للتيارات الأصولية، وأن فكره كان شرارة البدء في إشعال الثورة الإسلامية ضد أعداء الإسلام في الداخل والخارج، والتي ما زالت فصولها الدامية تتجدد يومًا بعد يوم».

❋ ❋ ❋

قال القرضاوي

قال الدكتور يوسف القرضاوي في الحديث الذي بثته قناة «الفراعين» مساء الجمعة ٨ يوليو، ٢٠٠٩:

«إن سيد قطب انتمىٰ إلىٰ جماعة الإخوان المسلمين في بداية الخمسينيات من القرن العشرين، وإن انضمامه للإخوان جاء بناءً علىٰ رغبته واقتناعه بالجماعة، مشيرًا إلىٰ أن التغير في أفكار قطب من الاعتدال إلىٰ التكفير ظهر في كتاباته المتأخرة، خاصة تفسيره

الشهير «في ظلال القرآن»، وكتابه «معالم في الطريق»، ومؤكدًا أن هذا التغيير يظهر بصورة واضحة عند المقارنة بين الطبعة الأولىٰ من «الظلال» والثانية، حيث بدأ يتحدث في الثانية عن «الحاكمية» و «الجاهلية».

وأكد القرضاوي أن ما كتبه قطبٌ من أفكار خلال المرحلة الأخيرة من حياته يؤكد «خروجه عن أهل السنة والجماعة بوجهٍ ما؛ فأهل السنة والجماعة يقتصدون في عملية التكفير حتىٰ مع الخوارج»، قائلًا: إن أهل السنة لا يكفرون إلا «بقواطع تدل علىٰ أن الإنسان مرق من الدين الإسلامي تمامًا».

وأضاف:

«أعتقد أن الأستاذ قطبًا في هذا الأمر بعد عن الصراط السوي لأهل السنة والجماعة»، مرجعًا هذا البعد إلىٰ عدة أسباب أهمها أن هذه الكتابات كتبت في السجن، فقد كان يرىٰ أن الدولة من خلال تمكينها للشيوعيين بعدت عن الإسلام.

وعلىٰ الرغم من هذا الخروج عن أهل السنة والجماعة، يرىٰ القرضاوي أن قطبًا لو قدر له أن يعيش ويخرج من السجن ويناقش الناس في أفكاره، لكان تراجع عن الكثير منها كما تراجع أخوه محمد قطب الذي تخلىٰ عن فكرة التكفير العام للمسلمين».

«أعدم سيد قطب في ٢٩ أغسطس ١٩٦٦ بأمر من الرئيس جمال عبد الناصر».

❋ ❋ ❋

قطب ومدرسة الإخوان

وردًا علىٰ سؤال حول تصنيف سيد قطب وانتمائه إلىٰ المدرسة الإخوانية من عدمه.

قال القرضاوي: إن سيد قطب كان من المعجبين بالإمام حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، وكتب عنه مقالته «حسن البنا وعبقرية البناء» معبرًا فيها عن قدرات البنا التنظيمية في تأسيس الجماعة وتشكيل هياكلها التنظيمية.

لكن قطبًا لم ينقل عن فكر البنا - والكلام للقرضاوي - مثلما نقل عن الشيخ أبي الأعلىٰ المودودي، فقد تأثر قطب بالمودودي كثيرًا، وأخذ عنه فكرة الحاكمية والجاهلية، ولكن قطبًا خرج في النهاية بنتائج عن تكفير المجتمع وجاهليته تختلف تمامًا عما قاله المودودي.

وقال القرضاوي: إنه لا غبار علىٰ الحاكمية؛ فهي فكرة إسلامية أصيلة، وتعني أن تكون المرجعية للشريعة الإسلامية، وقد تحدث عنها الإمام أبو حامد الغزالي وغيره من علماء المسلمين.

أما «الجاهلية»؛ فدلالتها تختلف عند قطب عما جاءت عليه في القرآن الكريم اختلافًا كليًّا وجزئيًّا، حسبما يقول القرضاوي مستشهدًا بما كتبه قطب نفسه في كتابه «معالم في الطريق»، والذي اعتبر فيه أن المجتمع بالأساس غير مسلم، ومهمة المصلحين هي رد الناس أولًا إلىٰ العقيدة الإسلامية الصحيحة، وأن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

وأكد القرضاوي أن قطبًا أخطأ في قضية تكفير مجموع المسلمين، وليس فقط الحكام والأنظمة، مشيرًا إلىٰ أن قطبًا يتحمل بعض المسئولية عن تيار التكفير؛ فقد أخذ أفكار المودودي ورتب عليها نتائج لم تخطر علىٰ بال المودودي نفسه، وهذا أيضًا ما فعله شكري مصطفىٰ وغيره، حيث أخذ شكري أفكار قطب وخرج منها بنتائج لم تخطر علىٰ بال قطب، حيث اعتبر شكري أن جماعته «جماعة المسلمين» هم فقط المسلمون ومن دونهم فهم كفار.

❁❁❁

«الجاهلية» ومحاكمة أفكار قطب

ونفىٰ القرضاوي في الوقت ذاته أن تكون شهادته عن قطب هي افتئات علىٰ قطب، معتبرًا أنها محاكمة للرجل من خلال كلامه والنصوص التي وردت في كتبه،

وذلك ردًّا علىٰ ما قاله بعض الإخوان، مثل «محمود عزت» الأمين العام لجماعة الإخوان المسلمين، بأن الخطأ فيمن قرأ سيد قطب، وليس فيما كتبه.

وقال القرضاوي: إن الكلام الذي نقله عن قطب عن التكفير والجاهلية كلام واضح ولا يحتمل أي تأويل، مستشهدًا في حديثه برواية للدكتور محمد عبد الله المهدي، والذي كان معتقلًا عام ١٩٦٥، حيث أكد له أن قطبًا اعترف أن الكتابات التي كتبها في المرحلة الأولىٰ من حياته كـ«العدالة الاجتماعية في الإسلام»، و«السلام العالمي والإسلام»، و«مشاهد القيامة في القرآن»، لا تمثل رأيه ومذهبه الجديد، ولكن ما يذهب إليه ويتبناه هي ما كتبه في كتبه الأخيرة في السجن مثل «معالم في الطريق»، والطبعة الثانية من «الظلال»، و«هذا الدين»، و«الإسلام ومشكلات الحضارة».

وفي النقاش الذي جرىٰ في السجن يعترف قطب بأن له منهجين قديمًا وجديدًا، تمامًا كالإمام الشافعي، لكن الشافعي غيّر في الفروع، أما هو - قطب - فقد غير في الأصول، أي في أصول العقيدة، وهذه هي الإشكالية، حسبما يتحدث القرضاوي.

وقال القرضاوي: إن الذي يتأمل كتابات قطب، لا يشك في أنه تجاوز في مسألة التكفير، مؤكدًا أن منهج قطب ليس هو منهج الإخوان المسلمين الذي وضع الإمام البنا أسسه في «الأصول العشرين»، وأشار إلىٰ أن قطبًا لم يعش داخل الجماعة، ولم يترب «علىٰ حصيرها»، فقد كانت فترة وجوده في صفوف الجماعة قليلة، وما لبث أن دخل السجن، وفي السجن ظهرت التغيرات والمؤثرات الهائلة علىٰ أفكاره.

واعتبر القرضاوي أن المهم الآن ليس هو نسب سيد قطب لجماعة الإخوان أو غيرهم، ولكن المهم هو أفكاره، قائلًا: «نحن نحاكم أفكارًا»، والذي يتحمل مسئولية هذه الأفكار هو صاحبها وليس الإخوان، وأنا أرىٰ أن هذه الأفكار لا توافق فكر الإخوان المسلمين؛ لأن فكر الإخوان ليس فيه تكفير».

إخواني أم جهادي أم سلفي؟

وعن السبب في التنازع علىٰ أفكار قطب بين كل من الإخوان المسلمين والسلفيين والجهاديين قال القرضاوي: إن هذا يعود إلىٰ أن فكر قطب يمثل مجالًا ثريًا يأخذ الجهاديون ويستفيدون منه، كما أن السلفيين يأخذون من أفكاره، لكن لا يرونه سلفيًّا؛ لأنه كان حليق اللحية، والإخوان أيضًا يستفيدون من أفكاره، مؤكدًا أنه لا يزال يقرأ كتابات سيد قطب ويأخذ منها ما يفيده، وذلك نظرًا لأهميتها وصدق صاحبها في كتاباته.

وحذر القرضاوي كل من يقرأ كتابات قطب من الوقوع في أسر أفكاره، خاصة أن صاحبها كاتب ومفكر عظيم كتب هذا الكلام في لحظات نقاء روحي وصدق مع النفس، كما أن لديه من الموهبة في الكتابة ما يجذب القارئ ويؤثر فيه.

وفي النهاية أشار القرضاوي إلىٰ أن هذه الشهادة واختلافه مع قطب فيما انتهىٰ إليه من أفكار تكفيرية وأنها ليست علىٰ منهج أهل السنة والجماعة الذي ارتآه جمهور الأمة والإخوان المسلمين، لا تمنعه من أن يقول: إن هذا الرجل أديب عظيم بمقياس الإبداع في النقد الأدبي، وداعية عظيم، وعالم، ومفكر عظيم، وهو أيضًا مسلم عظيم يكتسب هذه العظمة ليس فقط من أفكاره، ولكن من خلال التضحية بنفسه وتقديم عنقه فداءً لدعوته في سبيل الله.

❋ ❋ ❋

وثائق مهمة
ترجمة كتاب «العدالة الاجتماعية» في أمريكا

نشرت مجلة «الرسالة» في زاوية «كشكول الأسبوع» السنة التاسعة عشرة، العدد ٩٢٣، سنة ١٩٥١، صفحة (٣١٥)، ما يلي:

«قرر المجلس الأمريكي للدراسات الاجتماعية ترجمة كتاب العدالة الاجتماعية في الإسلام للأستاذ سيد قطب إلىٰ اللغة الإنكليزية، ونشره في أمريكا، للتعريف بسياسة الإسلام الاجتماعية، وسيقوم بالترجمة المستشرق يوحنا جون بيهاردي الأستاذ بجامعة هالفكس» بكندا.

❋ ❋ ❋

موقف جماعة أنصار السنة المحمدية من تنظيم سيد قطب عام ١٩٦٥م

المجلد ٣٠، العدد ٦، جمادىٰ الآخر ١٣٨٥ هـ.

بيان للناس

لقد قامت الدعوة الإسلامية من أول أمرها علىٰ أساس مكين من الوضوح والصراحة والبعد عن الغموض والالتواء، ونازلت الباطل وجهًا لوجه حتىٰ أزهقته وقضت عليه. وكان سلاحها الذي لم يفل أبدًا هو الإقناع بالحجة من غير إكراه، والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة دون مواربة أو مداجاة ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦].

وقد أمر الله المسلمين أن يبسطوا العدل، حتىٰ مع أعدائهم، وحذرهم من أن يدفع بهم بغض هؤلاء الأعداء إلىٰ الظلم والعدوان، فقال سبحانه: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾. [المائدة: ٢]

هذا هدىٰ الإسلام وموقفه من أعدائه، فكيف به من أوليائه وأبنائه؟ وإنه ليدل علىٰ روح الإسلام القوية السمحاء وعلىٰ أنه دين يأبىٰ الخيانة ولا يرضاها خلقًا ولا سلوكًا لأهله. بل يدمغها بأنها جبن غدور ونذالة حقود لا تعرفها الإنسانية إلا في المنافقين واليهود وأحلاسهم ممن ينتسبون زورًا إلىٰ الإسلام.

ولقد روىٰ الإمام أحمد في «مسنده»، عن النبي ﷺ أنه قال: **«الإيمان قيد الفتك»**[1].

وهذا الحديث في مسند طلحة بن عبيد الله، وكان أحد جنده في أيام الفتنة قد استأذنه في أن يقتل عليًّا، فقال له: كيف تقتله؟ فقال الرجل: أغتاله، فنهاه طلحة. وروىٰ الحديث.

والمعنىٰ: أن الإيمان يمنع عن الفتك كما يمنع القيد صاحبه عن التصرف، فكأنه جعل الفتك قيدًا.

فالمؤمن لابد أن يكون له من إيمانه ما يحجزه عما لا يليق بأحرار الرجال وعما نهي الله عنه من الفتك والاغتيال والسعي في الأرض فسادًا، ومعاونة أعداء الإسلام ومظاهرتهم ضد أبنائه وأوليائه. وجاء في حديث آخر رواه أحمد: **«لكل غادر لواء يوم القيامة، يقال: هذه غدرة فلان»**.

ولهذا حرصت (جماعة أنصار السنة المحمدية) منذ أسست علىٰ تقوىٰ من الله، واعتصام بالكتاب والسنة، أن تدعو إلىٰ الله بالحجة والبرهان، وهي بمنأىٰ عن الحزبية العمياء والعصبية الحمقاء، ظاهرها كباطنها، وعلنها هو سرها، ليس لها ما تخفيه أو تخاف منه إلا غضب الله، دعوتها سلمية علنية، قوامها الإقناع بالحجج البيض من الكتاب والسنة. تجهر بالحق وتخلص النصح في صراحة وصدق وإخلاص، دون أن يلوي زمامها حقد غادر أو حسد فاجر، شعارها في دعوتها قول الله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام، الآية: ١٥٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف، الآية: ١٠٨]، وقوله

---

(١) ذكر ابن الأثير في مفرداته ما يأتي: «الفتك أن يأتي صاحبه وهو غافل، فيشد عليه فيقتله».

سبحانه ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

[النّحل، الآية: ١٢٥]

ولهذه - فهي عن صدق وإيمان - تستنكر بشدة هذه الأساليب التي لجأت إليها بعض الجماعات[١] باسم الدين، فحملت الإسلام وزر جناياتهم وإثم حماقاتهم، وكادت بجريمتها البشعة أن تقضي علي ما حققنا من أمجاد وبنينا من عماد.

جماعة أنصار السنة المحمدية[٢]

(١) المقصود ما حدث من جماعة الإخوان المسلمين من جرائم سنة ١٩٦٥ تم كشفها وإحباطها، وهي التي اعترف بها فيما بعد سيد قطب في كتابه «لماذا أعدموني» من استعداد الجماعة لنسف المنشآت الحيوية وضرب القناطر الخيرية.. إلخ، واغتيال كبار الشخصيات السياسية والعسكرية والأمنية - راجع كتاب «لماذا أعدموني»، ومن هنا فقد حرصت (جماعة أنصار السنة المحمدية) علىٰ تبرئة الإسلام مما ينسب إليه.

(٢) انظر كتاب: كتاب الحاكمية والسياسة الشرعية عند شيوخ جماعة أنصار السنة، ص٢١٧ - ٢١٩.

فصل الوثائق



القاهرة

رئيس مجلس الإدارة
فاروق عبد السلام

رئيس التحرير
صلاح عيسى

TUESDAY 25 Nov 2003 — السنة الرابعة - العدد ١٨٩

قادة الجماعة الإسلامية: سيد قطب أديب وليس فقيها.. ومن الخطأ التعامل مع فتاواه

في إجاباتهم عن أسئلة الأعضاء حول مبادرة وقف العنف

قادة الجماعة الإسلامية: سيد قطب أديب وليس فقيها

ومن الخطأ التعامل مع مفهومه لمصطلحات الحاكمية والجاهلية

شهادة الجماعة الإسلامية المصرية المقاتلة



العدالة الاجتماعية في الإسلام



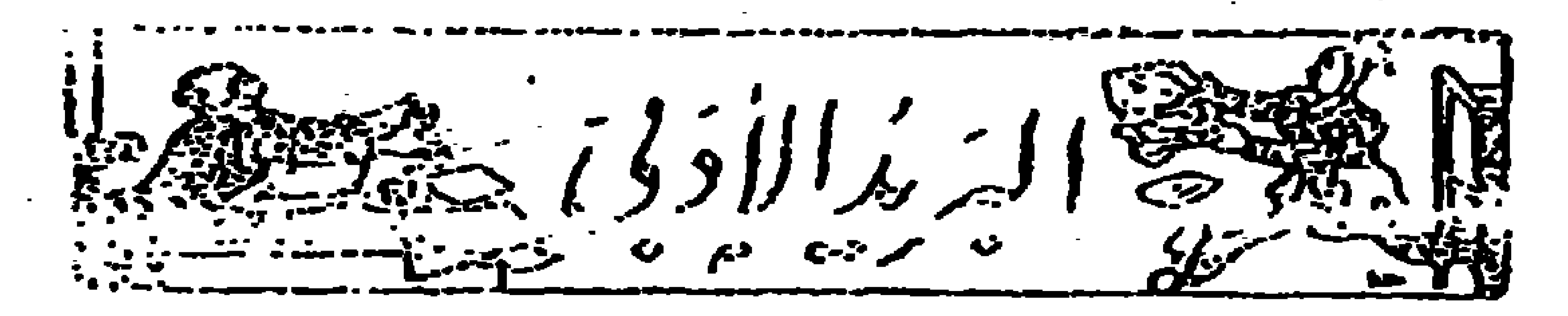
سيد قطب

دار الشروق

وما كان لي بعد هذا ، وأنا مالك زمام أعصابي ، مطمئن إلى الحق الذي أحاوله ، أن ألقي بالا إلى صخب مفتعل ، وتشنيع مصطنع .. وما كان لي إلا أن أدعو الله لصديقنا شاكر بالشفاء والعافية ، والراحة مما يعاني ، والله لطيف بعباده الأشقياء

أما أنا فما أحب أن يكون لي مع قوم خرجوا على خليفة رسول الله ، وقتلوا ابن بنت رسول الله ، ورموا وحرقوا بيت الله ، وساءوا في سياسة الحكم وفي سياسة المال على غير هدى الله .. أدب أرفع من أدب مولى رسول الله ، الذي أدبه ورباه !!!

سيد قطب



إلى أخي الأستاذ رجب البيومي

السلام عليكم ورحمة الله وبعد، فإنني لم أرد أن أدخل بينك وبين الأستاذ شاكر فيما شجر بينكما من خلاف، حتى يأتي إلى نهايته كما انتهى.. ذلك أني كنت حريصاً على أن أدعك ورأيك، وألا أبدأ نفارق بك في زحمة الجدل. وإن ظن أخونا شاكر أن بيننا صحبة وثيقة هي التي تدفعك إلى رد تهجمه أو تحجمه، حتى لقد أنذرنا منا عداوة يوم القيامة: «الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو»، لأن مألوف الناس قد جرى في هذا الزمن المتغير، على أن الحق وحده، أو الرأي وحده، لا يكفي لأن يدفع كاتباً فيكتب، دون هوى من صداقة أو علاقة!

وقد قرأه الناس في أنحاء العالم الإسلامي، فلم يستشعر أحد من موضوعه ولا من سياقه، أن النية السيئة البيتة لهذا الإسلام وأهله هي التي تسطر سطوره!

إنما أحس الألوف الذين قرأوه — أو على الأقل المئات الذين أبدوا رأيهم فيه — أن كل ما كان يبتغي هو أن أبرئ الإسلام من تهمة يلصقها به أعداؤه، وشبهة تحيك في نفوس أصدقائه. إذ يحسبون أن سياسة بني أمية في الحكم وسياستهم في المال، تحسب على الإسلام. والإسلام بريء من هذا الاتهام

روى سعيد بن جهمان عن سفينة — مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم — قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك. ثم قال سفينة: أمسك خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي.. فوجدناها ثلاثين سنة. قال سعيد: فقلت له: إن بني أمية يزعمون أن الخلافة فيهم. قال: كذبوا بنو الزرقاء! بل هم ملوك من شر الملوك».
رواه (كتاب السنن) بإسناد حسن

«لا تسبوا أصحابي»

للأستاذ محمود محمد شاكر

حسبُ امرئ مسلمٍ لله أن يبلغه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تسبُّوا أصحابي! لا تسبُّوا أصحابي! فوالذي نفسي بيده، لو أنّ أحدكم أنفق مثل أحُدٍ ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»، حتى يخشع لرب العالمين، ويسمع لنبيّ الله ويطيعُ، فيكفَّ غَرْبَ لسانه وضراوة فكره عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، ثم يعلم علماً لا يشوبه شكٌّ ولا ريبةٌ، أن لا سبيل لأحد من أهل الأرض، ماضيهم وحاضرهم، أن يلحق أدنى أصحابه درجة، مهما جهد في عبادته، ومهما تورّع في دينه، ومهما أخلص قلبه من خواطر السوء في سرّه وعلانيته.

ولن أضرب المثل بما يكتبه المستشرقون ومن لف لفهم ممن نعلم. ولا بأهل الزيغ والضلال والضغينة على أهل الإسلام؛ كصاحب كتاب الفتنة الكبرى وأشباهه من المؤلفين. بل سآتيك بالمثل من كلام بعض المتحمسين لدين ربهم، المعلنين بالذب عنه والجهاد في سبيله. لتعلم أن أخلاق الإسلام هي الأصل في تفكيره وفي مناهجه وفي عمله، وأن سمة الحضارة الوثنية الأوربية تتفجر أحياناً في قلب من لم يحذر ولم يتق، بكل ضغائن القرن العشرين وبأسوأ سخائم هذه الحضارة المتعدية لحدود الله التي كتب على عباده — مسلمهم وكافرهم — أن لا يتعدوها.

أربعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: هم أبو سفيان بن حرب، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وهند بنت عتبة بن ربيعة أم معاوية، رضي الله عنهم كيف يتكلم أحد الناس عنهم.

هذه صورة الصفحة التي طعن فيها سيد قطب في عثمان رضي الله عنه

عمر : « زدته لأنه كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك ، وكان أبوه أحب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أبيك ! » وفرض لأسماء بنت عميس زوج أبي بكر ألف درهم ، ولأم كلثوم بنت عقبة ألف درهم ، ولأم عبد الله بن مسعود ألف درهم ؛ فزادهن على أمثالهن لمكانتهن الخاصة إذ كن أزواجاً وأمهات لرجال لهم على غيرهم منزلة وفضل »[1] .

هما رأيان إذن في تقسيم المال . رأي أبي بكر ورأي عمر . وقد كان لرأي عمر ـ رضي الله عنه ـ سنده : « لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه » و ... « فالرجل وبلاؤه في الإسلام ... » وهذا الرأي أصل في الإسلام وهو التعادل بين الجهد والجزاء . وكان لرأي أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ سنده كذلك : « إنما أسلموا لله وعليه أجرهم ، يوفيهم ذلك يوم القيامة ، وإنما هذه الدنيا بلاغ » . ولكننا لا نتردد في اختيار رأي أبي بكر إذ كان أدنى أن يحقق المساواة بين المسلمين ـ وهي أصل كبير من أصول هذا الدين ـ وأحرى ألا ينتج النتائج الخطرة التي نشأت عن هذا التفاوت ، من تضخم ثروات فريق من الناس ، وتزايد هذا التضخم عاماً بعد عام بالاستثمار ـ والمعروف اقتصادياً أن زيادة الربح تتناسب إلى حد بعيد مع زيادة رأس المال ـ هذه النتائج التي رآها عمر في آخر أيام حياته ، فآلى لئن جاء عليه العام ليسوين في الأعطيات ، وقال قولته المشهورة : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم فرددتها على الفقراء » !

ولكن وأسفاه ! لقد فات الأوان ، وسبقت الأيام عمر ، ووقعت النتائج المؤلمة التي أودت بالتوازن في المجتمع الإسلامي ، كما أدت فيما بعد إلى الفتنة ، بما أضيف إليها من تصرف مروان وإقرار عثمان !

رجع عمر إذن عن رأيه في التفرقة بين المسلمين في العطاء ، حينما رأى نتائجه الخطرة ، إلى رأي أبي بكر . وكذلك جاء رأي علي مطابقاً لرأي الخليفة الأول ـ ونحن نميل إلى اعتبار خلافة علي ـ رضي الله عنه ـ امتداداً طبيعياً لخلافة الشيخين قبله ، وأن عهد عثمان الذي تحكم فيه مروان كان فجوة بينهما ـ لذلك نتابع الحديث عن عهد علي ، ثم نعود للحديث عن الحالة في أيام عثمان .

اختار علي مبدأ المساواة في العطاء ، وقد نص عليه في خطبته الأولى حيث قال : « ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على سواه بصحبته ، فإن الفضل غداً عند الله ، وثوابه وأجره على الله . ألا وأيما رجل استجاب لله وللرسول ، فصدق ملتنا ، ودخل ديننا ، واستقبل قبلتنا ، فقد استوجب حقوق الإسلام

(1) المصدر السابق .

العدالة الاجتماعية ـ الطبعة الحادية عشرة ـ ص: 172-173 دار الشروق

وحدوده ، فأنتم عباد الله ، والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية ، ولا فضل فيه لأحد على أحد ، وللمتقين عند الله أحسن الجزاء » .

هذا هو المبدأ الإسلامي السليم الذي يتفق مع روح المساواة الإسلامية ، ويكفل للمجتمع الإسلامي التوازن ، فلا يدع الثروات تتضخم إلا بقدر الجهد والعمل وحدهما ، لا بفضل إتاحة فرصة لا تتاح للآخرين ، بوجود وفر من المال للعمل فيه أكبر مما لدى الآخرين .

وقد كان عمر في آخر أيامه على أن يثوب إلى هذا المبدأ ، ولكنه عوجل فاستشهد ولم ينفذ عزيمته التي اعتزم ، بل عزيمتيه : عزيمته في أن يأخذ فضول أموال الأغنياء فيردها على الفقراء ، إذ كانت هذه الفضول قد نشأت ـ في الأغلب ـ من تفريقه في العطاء ، وعزيمته في أن يسوي بينهم في العطاء فلا تعود هذه الفوارق إلى الظهور كما ظهرت ؛ ولا يختل المجتمع الإسلامي كما بدأ يختل .

وجاء عثمان ـ رضي الله عنه ـ فلم ير أن يأخذ بالعزيمتين أو إحداهما . ترك الفضول لأصحابها فلم يردها ، وترك الأعطيات كذلك على تفاوتها . ولكن هذا لم يكن كل ما كان . بل وسع أولاً على الناس في العطاء فازداد الغني غنى ، وربما تبحبح الفقير قليلاً . وجعل يمنح المنح الضخمة لمن لا تنقصهم الثروة ، ثم أباح لقريش أن تضرب في الأرض بأموالها المكدسة ، فتزيدها أضعافاً مضاعفة ، ثم أباح للأثرياء أن يقتنوا الضياع والدور في السواد وغير السواد ! فإذا نوع من الفوارق المالية الضخمة يسود المجتمع الإسلامي في نهاية عهده يرحمه الله .

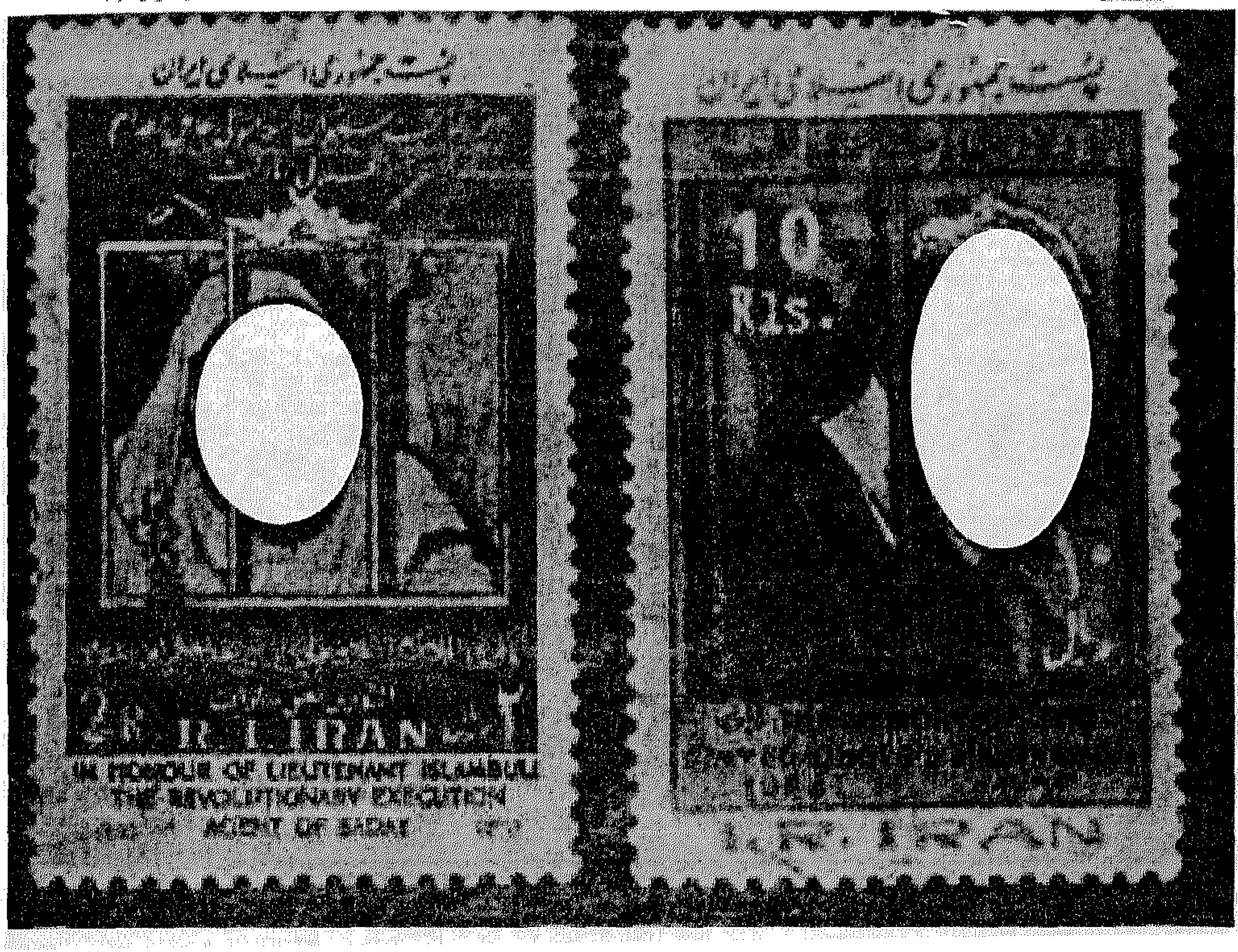
كان أبو بكر وكان عمر من بعده يتشددان في إمساك الجماعة من رؤوس قريش في المدينة : لا يدعونهم يضربون في الأرض المفتوحة ، احتياطاً لأن تمتد أبصار هؤلاء الرؤوس إلى المال والسلطان ، حين تجتمع إليهم الأنصار بحكم قرابتهم من رسول الله ، أو بحكم بلائهم في الإسلام وسابقتهم في الجهاد . وما كان في هذا الثبات على الحرية الشخصية كما يفهمها الإسلام ؛ فهذه الحرية محدودة بمصلحة الجماعة والنصح لها . فلما جاء عثمان أباح لهم أن يضربوا في الأرض . ولم يبح لهم هذا وحده بل يسر لهم وحضهم على توظيف أموالهم في الدور والضياع في الأقاليم ، بعد ما آتى بعضهم من الهبات مئات الآلاف .

لقد كان ذلك كله براً ورحمة بالمسلمين وبكبارهم خاصة . ولكنه أنشأ خطراً لم يكن خافياً على فطنة أبي بكر ؛ وفطنة عمر بعده . أنشأ الفوارق المالية والاجتماعية الضخمة في الجماعة الإسلامية ، كما أنشأ طبقة تأتيها أرزاقها من كل مكان دون كد ولا تعب ، فكان الترف الذي حاربه الإسلام بنصوصه وتوجيهاته ، كما حاربه الخليفتان قبل عثمان ، حرصاً على ألا ينتجاه .

سيد قطب

كتب وشخصيات

دار الشروق


پست جمهوری اسلامی ایران
R. I. IRAN
IN HONOUR OF LIEUTENANT ISLAMBULI
THE REVOLUTIONARY EXECUTION
AGENT OF SADAT
پست جمهوری اسلامی ایران
10
RLS.
I. R. IRAN

— ٢٤٢ —

الا تفاهة . فقد يكون هذا عن عدم معرفة الوسائل ، أو لضعف عن استخدام هذه الوسائل . كما قد يكون الترفع عن الأسلحة الملوثة والوسائل الهابطة . وهذا هو الذي كان ، وكان حقيقاً بالبيان .

إن معاوية وزميله عمراً لم يغلبا علياً لأنهما أعرف منه بدخائل النفوس ، وأخبر منه بالتصرف النافع في الظرف المناسب . ولكن لأنهما طليقان في استخدام كل سلاح ، وهو مقيد بأخلاقه في اختيار وسائل الصراع . وحين يركن معاوية وزميله إلى الكذب والغش والخديعة والنفاق والرشوة وشراء الذمم لا يملك علي أن يتدلى إلى هذا الدرك الأسفل . فلا عجب ينجحان ويفشل ، وإنه لفشل أشرف من كل نجاح .

قال ابن باز (رحمه الله) كلام سقيم خبيث

على أن غلبة معاوية على علي ، كانت لأسباب أكبر من الرجلين : كانت غلبة جيل على جيل ، وعصر على عصر ، واتجاه على اتجاه . كان مد الروح الاسلامي العالي قد أخذ ينحسر . وارتد الكثيرون من العرب إلى المنحدر الذي رفعهم منه الاسلام ، بينما بقي علي في القمة لا يتبع هذا الانحسار ، ولا يرضى بأن يجرفه التيار . من هنا كانت هزيمته ، وهي هزيمة أشرف من كل انتصار .

★ ★ ★

وهنا نصل إلى الملاحظة الرابعة . إذ نرى المؤلف يهش لروح النفعية في السياسة ، ويشيد بأصحابها ، ولا يعترف بغير النجاح العملي ، ولو على أشلاء المثل العليا والأخلاق .

ونحن لا نتجنى على الأستاذ شفيق جبري بهذه الكلمات . فاسمعه يقول عن « خديعة المصاحف » : « وعلى كل حال فان هذه الخديعة التي أوحى إلى صاحبها بها علم النفس . كان فيها حقن دماء المسلمين ، وخديعة فيها منتهى حرب ومنتهى دماء ، إنما هي خديعة خير » !!!

من هذا التعليق ، ومن إشادته بمعاوية في كل موضع نحس شديد إعجابه بسياسة معاوية . وقد عرفنا من قبل رأيه في ترفع علي .

صورة فتوى العلامة عبد المحسن العباد حفظه الله عليها توقيعه

إجابة على سؤال عن كُتُب سيد قطب - رحمه الله - ومناسبة قراءتها من عدمها؟.

أقول: إنَّ سيد قطب - رحمه الله - كما هو واضح في مؤلفاته كاتب من الكُتّاب، وليس من العلماء الذين يُعوّل على كلامهم في المسائل العلمية، وهو عندما يكتب بالعاطفة وحماس ينفلتُ معه القلم، وتزل معه القدم، فيقع في أخطاء فادحة، كالذي حصل له من الكلام في قصة نبيِّ الله موسى عليه الصلاة والسلام؛ إذ وصَفَه بأنّه الزعيم المندفع العصبي المزاج، حيث قال في كتابه "التصوير الفني في القرآن" (ص:١٦٢ - ١٦٣، ط: دار الشروق):

« لنأخذ موسى؛ إنّه نموذجٌ للزعيم المندفع العصبي المزاج!! ».

وقال في قوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾: « وهنا يبدو التعصبُ القومي، كما يبدو الانفعال العصبي!! ».

وقال عند قوله تعالى: ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ قال: « ولكنّه يَهُمُّ بالرّجل الآخر كما هَمَّ بالأمس، ويُنسيه التعصبُ والاندفاعُ استغفارَه وندمَه وخوفَه وترقُّبَه، لولا أن يُذكّره من يَهُمُّ به بفعلته فيتذكّر ويخشى ».

وكالذي حصل له في حقِّ أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، حيث قال في كتابه "العدالة الاجتماعية" (ص:٢٠٦ / الطبعة الخامسة): « ونحن نميل إلى اعتبار خلافة علي امتداداً طبيعياً لخلافة الشيخين قبله، وأنَّ عهد عثمان كان فجوةً بينهما!! ».

وقال فيه أيضاً (ص:١٨٦ من الطبعة نفسها): « ولقد كان من سوء الطالع أن تدرك الخلافةُ عثمانَ وهو شيخ كبير، ضعفت عزيمته عن عزائم الإسلام، وضعفت إرادتُه عن الصمود لكيد مروان وكيد بني أُميّة من ورائه!! ».

وقال فيه أيضاً (ص:١٨٩ من الطبعة نفسها): « وأخيراً ثارت الثائرة على عثمان، واختلط فيها الحقُّ بالباطل، والخيرُ بالشرّ، ولكن لابدَّ لِمَن ينظر إلى الأمور بعين الإسلام، ويستشعر الأمور بروح الإسلام أن يُقرِّر أنَّ تلك الثورة في عمومها كانت أقرب إلى روح الإسلام واتجاهه من موقف عثمان، أو بالأدقِّ من موقف مروان، ومن ورائه بنو أميَّة!!! ».

وكالذي حصل له في حقِّ معاوية وعمرو بن العاص رضي الله عنهما، حيث قال في كتابه "كتب وشخصيات" (ص:٢٤٢ / طبعة دار الشروق): « إنَّ معاوية وزميله عمراً لم يغلبا عليّاً؛ لأنّهما أعرفُ منه بدخائل النفوس، وأخبَرُ بالتصرف النافع في الظرف المناسب، ولكن لأنّهما طليقان في استخدام كلِّ سلاح، وهو مقيَّدٌ بأخلاقه في اختيار وسائل الصراع، وحين يركَن معاوية وزميله إلى الكذب والغشّ والخديعة والنفاق والرشوة وشراء الذّمم لا يملكُ عليٌّ أن يتدلّى إلى هذا الدَّرك الأسفل، فلا عجب ينجحان ويفشل، وإنّه لفشلٌ أشرف من كلِّ نجاح!!! ».

لذا فإنّي أنصحُ بعدم قراءة كتُبِه، وبالاشتغال بقراءة الكتب النافعة المأمونة العاقبة على قارئها.

ربّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاًّ للذين آمنوا ربّنا إنّك رؤوف رحيم.

عبد المحسن بن حمد العباد البدر

بتاريخ ٩ / ٦ / ١٤٢٦هـ

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات





للصف والمراجعة والتحقيق

القاهرة – هاتف: ٠١٠٧٢١٩٥٤٣

البريد الإلكتروني: EBADALRHMAN_SFEF@YAHOO.COM



ردود العلامة محمود شاكر ومعاصريه
على سيد قطب ومؤيديه



E-mail:dar_sabilelmomnen@yahoo.com